

إبراهيم عبد القادر المازني

في الطريق

في الطريق

في الطريق

تأليف

إبراهيم عبد القادر المازني

المحتويات

٧	الإهداء
١١	١- التدريب الأول
١٧	٢- الدكان
٣١	٣- الكآبة
٣٧	٤- العقد الضائع
٤٧	٥- الجارة
٥٣	٦- البحث عن الذهب
٥٧	٧- تفيدة
٦٧	٨- الهارب
٨١	٩- النسيان
٨٧	١٠- فتاة الحارة
٩٣	١١- في رأس السنة
٩٩	١٢- الذى يضحك أخيرا يضحك كثيرا
١٠٩	١٣- عقاب اللص
١١٥	١٤- ثمن سيجارة
١٢١	١٥- الببغاء والقط
١٢٧	١٦- السيارة المسروقة
١٣٣	١٧- ميمى
١٣٩	١٨- ليلي
١٥١	١٩- حواء والحية

الإهداء

بقلم إبراهيم عبد القادر المازني

إلى «حياة»

في بعض الأحيان أكون جالسا إلى مكتبي قبل طلوع الشمس، وأمامي الآلة الكاتبة أدق عليها وأرمي بورقة إثر ورقة، وإلى جانبي فنجان القهوة أرشف منه وأذهل عنه، فأحس راحتك الصغيرتين على كتفي فأدير وجهي إليك، وأرفع عيني لأصبح على بستان وجهك، وأستمد من ابتسامة عينيك النجلوين، وافترار ثغرك النضيد ما أفترق إليه من الجلد والشجاعة، وأدفع يدي فأطوقك بذراعي، وأضمك إلى صدري، وألثم خدك الصابح، وأمسح على شعرك الأثيث المرسل على ظهرك وجانب محياك الوضيء، وأتملى بحسبك وأنشر في كهف صدري المظلم نور البشر والطلاقة، فتدفعين ذراعك الغضة وتتناولين ببناك الدقيقة ورقة مما كتبت، وترفعينها أمام عينيك، وتزوين ما بينهما، وتتخذين هيئة الجد الصارم، وتفيضين على نفسك السمحة العطوف، وأنت مضطجة على ذراعي، سمتا وأبهة يغريان بالابتسام، وأنا أنظر إليك وفي قلبي سكينه، وجوى من قربك معطر بمثل أنفاس الروضة الأنف في البكرة الندية. وألمح شفقتك الرقيقتين تختلجان وعينيك تلمعان، فتطيب نفسي بسرورك الصامت، ثم أسمع ضحكك الفضية، وأراك تُغطين وجهك الحلو بالورقة فيستطيرني الفرح ويستخفني الجدل، ولكني أظهار بالخوف على الورقة التي لا قيمة لها أن يمزقها أنفك الجميل فترمين رأسك على ذراعي وينسدل شعرك الذهبي المتموج كالستار، وتصافح سمعي من ضحكاتك العذبة موجات لينه. ثم تعتدلين على

ساقى، وتدفعين ذراعيك فتطوقين بهما عنقي، وتجذبين وجهي إليك، ولكنك تشفقين على رقة شفطيك من خشونة خدى فتلثمين أذنى الطويلة – وتعضينها أيضا – فأصرخ، فتثبين إلى قدميك خفيفة مرحة، وتخرجين بعد أن خلفت في صدرى انشراحا، وفي قلبي رضى، وفي روحى خفة، وفي نفسى شفوفا، وفي عقلى قوة، وفي أملى بسطة واتساعا، وفي خيالي نشاطا، فأضطجع مرتاحا وأغمض عيني القريرة بحبك ثم أفتحها على:

«صيد حرمناه على إغراقنا فى النزع – والحرمان فى الإغراق»

أى والله، لولا الإغراق ما كان الحرمان. وهل هو إلا الشعور به من الإسراف فى الرغبة واللحاجة فى الطلب؟

بل أفتح العين على جثة صغيرة حملتها بيدي هاتين إلى قبرها، وأنزلتها فيه، ووسدتها التراب بعد أن سويته لها بكفى، ورفعت من بينه الحصى الدقاق ثم انكفأت إلى بيتى جامد العين وعلى شفتى ابتسامة متكلفة وفى فمى يدور قول ابن الرومى:

«لم يخلق الدمع لامرئ عبثا الله أدرى بلوعة الحزن»

وتدخل على زوجتى لتحيينى تحية الصباح، فألتقاها بالبشر والبشاشة، وأهم بأن أحدثها بما كبر فى وهمى قبل لحظة، ولكنى أزجر نفسى وأردها عن التعزى باللغظ. ولو أنى شرعت أحدثها بشيء من ذلك لما فرغت، فما أخلو بنفسى قط إلا رأيتنى أستطيب أن أتخيل فتاتى على كل صورة وكل هيئة وفى كل حالة من حالات الطيش والحكمة، والغضب والسرور، والسخط والرضى، والضحك والبكاء، والعشق والسلوان والنفور والإقبال، والحركة والسكون، واللعب، والنط، والقفز، والسباحة ... ويحلو لى أن أنشئ بينى وبينها أحاديث فى كل موضوع من جد وهزل، ويسرنى أن أسمع نكتها، وأرانى أستملح فكاهتها – وأنتحلها فيما أكتب – وأضحك أحيانا بصوت عال، بل أفهقه غير محتشم، فإذا تعجب لى داخل متطفل علىّ فى هذه الخلوة المحببة إلى نفسى رفعت له وجهها كالدرهم المسيح، وهربت بالتباله من الجواب الذى يطلبه بعينه أو لسانه، وتركته يظن بعقلى ما يشاء. وماذا أقول له؟ فى وسعى أن أكذب، فما لباب الكذب مفتاح، ولكن الكذب ينغص على المتعة التى استفدتها من الحوار الذى كان يدور بينى وبين «حياة».

وأنت يا «حياة» الجديدة بديل من «حياة» التي فقدتها، لا.. لست بديلاً، ولا أنت عوض عنها، ولا أحسبك يرضيك أن تكوني عوضاً عما لا يؤاتى. وتلك قد رببتها صغيرة ودلتها وهى رضية بيدي هاتين اللتين أتناول بهما خديك، ولاعبتها وأركبتها ظهرى، وقطعت بها فراسخ طويلة فى الغرفة الضيقة، وسقيتها الماء ورأيتها تمص ثدى أمها وهى زاهلة عن الدنيا وما فيها — وما هو كائن وما عسى أن يكون — ونحن ننظر إليها مسرورين مستغربين مفتونين بهيئتها، وهى مقبلة على الثدي، ويدها الدقيقة على الثدي، وأصابعها تتحرك فى لطف وعلى مهل، مستطرفين شفتها المثنية على سواد الثدي حول الحلمة وهى مكبة على الرضاعة.

ولكن فىك مشابه منها. وأنا أغالط نفسى وأزعم أنها لو كتب لها البقاء لما عدت. ولست تجلسين على ساقى فى الصباح الباكر — كما تفعل تلك فيما أتخيل — ولكنك تقرأين ما أكتب — بعد أن ينشر — وأراك يسرك أن تسكنى إلى، سكون الطائر إلى وكره. وهل هذا كل شيء؟ لا أدرى.. وأظن — بل أنا واثق — أنك تفهمين ما أعنى حين أقول إنك فصل من كتاب حياة.

وهل أحتاج أن أقول أن اسمكما ليس «حياة».

الفصل الأول

التدريب الأول

«ألا تنوى أن تعلمنى قيادة السيارة؟»

قلت: «إنى أنوى أن أعلمك أشياء كثيرة.. فى أوانها».

قالت: «مثل..؟ وأمالت رأسها الصغير وألقت إلیّ ابتسامة — أعوذ بالله من سحرها.

فبلعت ريقى، وقلت: «أوووه.. أشياء كثيرة كما قلت: مثل الرقة واللف واللين

وحسن الموااة ... أشياء كثيرة».

قلت وعلى فمها — وفى عينيها — ابتسامة المتسامح: «ألا ترانى لطيفة؟..».

قلت: «عفوا.. إنما أعنى أن هذه المسائل نسبية، فقد تكونين فى الواقع ألطف فتاة

تزين هذه الكرة الأرضية بوجودها.. وقد أكون أنا لا أحس ذلك ولا أعرفه، لبلادة فيّ أو..

جهل.. أو..».

فأشارت بكفها وقالت: «يكفى.. سأحاول أن أكون لطيفة معك، فكن لطيفا وقل لى

متى يكون الدرس الأول؟».

قلت: «الآن.. تعالى.. ضعى هذا المعطف على كتفيك».

فأولتني ظهرها لأضع عليه المعطف، وكانت تنظر إلى وأنا أفعل ذلك ببطء.

وانحدرنا إلى الطريق وركبنا، فقالت وأنا أهم بالمسير: «ألا تلبس المعطف؟ إن الجو

بارد».

فهزرت رأسى وقلت: «كلا.. سأتصعب عرقا بعد دقائق — بل ثوان — من ابتداء

الدرس الأول، ولكنك تعرفيننى.. لا أهرب من الواجبات مهما كلفتنى».

وقالت: «هل هذا واجب شاق؟»

قلت: «ستين»... ولم أزد.

ووقفنا في مكان خلوى رحيب لا خوف فيه من أن ندوس طفلا أو نصطدم بشيء، فقلت لها بلهجة الجد: «اسمعي من فضلك.. الآن يبدأ الدرس، التدريب الأول.. فاذا كرى دائما أن هذا درس وليس بلعب.. اسمعي الكلام وافهميه واعمل به ولا تحوجيني إلى شد شعرك أو قرص أذنك أو خدك».

وكانت تبتسم حينما شرعت أتكلم، فلما رأته جادا لا أضحك ولا يبدو على أنني أمزح، صارت الابتسامة كنور القمر المرتعش على صفحة الغدير الصافي، فرق لها قلبي، ولكني تحاملت على نفسي وغالبتها وحدتها — أعنى نفسي — بأن كل شيء خليق أن يفسد إذا لم أظهر الجد.

وقالت بضعف: «إني مصغية».

قلت: «هذا حسن.. ابتداء طيب.. والآن، ادنى مني.. التصق بي».

قالت: «لماذا»؟

قلت: «لتنناول العجلة وتتدربي على إدارتها بالضبط والإحكام الواجبين».. فحاولت أن تتناولها من غير أن تلقى بجسمها على صدري، وكان هذا متعذرا. وأدركت أنها مترددة، فقلت: «بالطبع ستزهق روحى وتنقص أضلاعى وتحبس أنفاسى.. ولكن هذا لا مفر من احتماله».

قالت: «صحيح»؟

فخفت أن تدفعا الرقة والإشفاق عليّ، إلى إيثار العدول فقلت: «إنّ في قولى هذا بعض المبالغة ولا شك، ولكنى أعنى أنه إذا كان لأحد منا أن يتردد أو يخشى شيئا.. فإنى أنا الخليق بذلك».

فظنت أنى غضبت أو أنّ ترددها جرح إحساسى وآلمنى، فقالت: «إنى آسفة».. فابتسمت لها صافحا عنها.. وقلت: «تفضلى..» وتناولت كفيها فوضعتهما على العجلة وأنا أسأل الله أن يلهمنى القوة ويرزقنى القدرة على مقاومة هذا الإغراء. وصار كتفها على صدري، وشعرها على وجهى، وأرجه في أنفى، وصفحة خدها الغض المشرق تحت عيني.. فلو مططت بوزى قليلا للمسته شفتاى. وسرنا خطوات ترنحت فيها السيارة كأنها سكرى، وأحسب أن لها — أعنى للسيارة — عذرها.. فما لمست عجلتها كف كهذه، رخصة بضة دقيقة.. وكنت أنظر إليها، فأشعر أنى أوشك أن أرتد إلى عصور الاستيحاء، وأحس أنى أريد أن أكلها لفرط حلاوتها، ولم أكن أحس — وهى على صدري — أن فى بدنها عظاما من فرط الرقة والطراوة. وكان شعرها يدير رأسى ويسكرنى بعطره الطبيعى. وكانت يدى اليمنى على كتفها، فكنت بجهد أرددها عن ضمها إلىّ.

وقلت لها — وقد وقفنا قليلا لنستريح، فقد كانت جلستها متعبة: «لن تستطيعي أن تختفى عني بعد اليوم كما فعلت من قبل»

قالت: «كيف؟ ماذا تعني؟»

قلت: «لا أظنك تعرفين ما أعني، فمن حقا أن تسألي وتعجبي.. لقد انتقلت فجأة من بيتك فأصبحت يوما فإذا أنت غير موجودة حيث ألفت أن أراك.. لا أدرى كيف تسنى لك أن تنتقلي من بيت إلى بيت من غير أن أشعر بذلك ونحن جاران متقابلان.. ولكنك نجحت.. غافلتني واختفيت».

فقالت: «على فكرة.. كيف اهتديت إلى البيت الجديد؟»

قلت: «أوه.. هذه حكاية طويلة.. رأيت أخاك فتبعته من حيث لا يشعر.. لو كنت شممت شعرك كما شممته اليوم.. لما احتجت إلى أخيك أو غيره».

فضحكت وقالت: «لم أكن أحسب أنك..» وأمسكت.

فقلت: «قولها.. ولا تخشى أن تسيئي إليّ. نعم، إن في بعض خصائص الكلاب.. ومن يدرى، لعل الله كان يريد في أول الأمر أن يخلق من طينتي كلبا ثم بدا له أن هذه الطينة لا تليق بكلب فصنع منها هذا الإنسان الذي يجلس إلى جانبك. ومن هنا بقيت لي حاسة الشم في الكلاب، ولكن قوتها في شيء واحد.. ما شممت شعرا إلا بقيت رائحته في أنفي.. ولو أنك وقفت بين عشرين فتاة وعصبت لي عيناى لاستطعت أن أهتدى إليك وأخرجك من بينهن بأنفي.. بمجرد شم الشعور».

فدهشت وقالت: «هل تتكلم جادا؟»

قلت: «في وسعك أن تجربى. هاتى عشرين فتاة.. وأرسلى لهن شعورهن وقفى بينهن وضعى على عيني ما شئت.. ودعيني أشمكن. نعم، في من الكلب هذا.. وليت لي منه مزاياه الأخرى.. بل ليتنى كنت كلبك على الخصوص».

فضحكت وقالت: «ولماذا؟ لا تخف أن تتكلم فإن حديثك لذيد».

قلت: «أشكرك.. لو كنت كلبك لكان من حقي الاعتراف به مثلا أن أقعد بين يديك في حيث تكونين. لا أحرم ذلك ولا يستطيع أحد أن يقصيني عنك، ولو حاول أحد ذلك لعضضته ومزقت ثيابه ولحمه ولأدبته.. نعم.. ولكن من حقي أن أضع رجلى على.. على.. في حجرك.. وألحس لك وجهك كلما شئت ذلك وأشتهيته.. معذرة فإن الكلب لا يحسن التقبيل.. وهذا هو البديل عنده من القبل.. ولو كنت كلبك يا فتاتي الجميلة لكنت حارسك الأمين، وفارسك الذى لا يقصر ولا يغفل ولا يسهو.. ولو كنت كلبك لكان من حقي على الأرجح — فإنك رقيقة القلب — أن أنام على سريرك..»

فصرخت ووضعت راحتها على فمى فضحكت، وقلت: «لا تخافى فإنى لم أصر كلبا مع الأسف.. أبى الحظ هذه النعمة على المسكين الذى هو أنا».

واستأنفنا الدرس وعدنا إلى التدريب، وأقبلنا على ذلك بعزم لا يفتر وإرادة لا تلين أو تضعف، ثم وقفنا وأراحت يديها وتنهدت وقالت: «تعبت».

قلت: «إنى آسف.. استريحى».

فسألتنى: «هل تعبت أنت أيضا؟»

قلت: «كلا.. إنما تعبت من التفكير».

قلت: «فى أى شىء كنت تفكر؟»

قلت: «هل تصدقيني إذا أخبرتك؟»

قلت: «لم لا أصدق؟ هل هو شىء غريب جدا؟»

قلت: «نعم.. جدا.. لقد كنت — وأنت على صدرى — أشتهى أن أمرغ نفسى فى هذه الرمال وأن أعوى كالكلب».

فضحكت حتى ترقرق الدمع فى عينيها، وقالت بعد أن وجدت لسانها: «ولكن لماذا؟.. إن هذا شىء غريب».

قلت: «لا غرابة على الإطلاق.. ألم أقل لك: إن فى من الكلب خصائص.. اشتهيت أن أفعل ذلك عسى أن تصنعى معى ما كان يمكن أن تصنعى مع كلبك.. تحمليني بين يديك.. عل ذراعيك.. وتدنين فمك الدقيق من وجهى وتقبليني فألاعبك وأضع يدي على كتفك وأنظر فى عينيك وأمسح خدى بخدك.. على فكرة.. وقبل أن أنسى».

فتركت الضحك، وأقبلت علىّ تسألنى: «نعم..».

قلت: «هل تستطيعين أن تخبريني أو تبينى لى كيف يسعك أن تأكلى؟»

فاستغربت، وقالت: «لست أفهم.. لماذا تظن أنى لا أستطيع أن أكل؟»

قلت، وأنا أضحك: «هل تسمين هذا فما؟ أنه أدق من أن يتسع لأصغر لقمة.. يصلح أن يكون قرنفة أو ما يشبه ذلك».

فقاطعتنى، وقالت: «والآن اسكت قليلا.. لقد دار رأسى.. لماذا تتكلم هكذا؟»

فههمت بأن أقول شيئا ولكنها أراحت كفها على شفتى فلثمتها، فابتسمت وقالت: «لقد كنت أفكر فى جزاء لما علمتني وقلت لى لتملأنى غرورا.. ولكنك أفسدت كل شىء.. أخذت جزاءك بنفسك».

قلت: «لا.. لا.. لا.. نمسح القبة».

التدريب الأول

قالت: «كيف يمكن»؟

قلت: «هكذا.. بشفتي».

فأطرقت قليلا، ثم رفعت رأسها وقالت: «لو سألتك عما تحب أن يكون جزاؤك منى، ماذا كنت عسى أن تطلب؟ أفهم أن هذه مسألة نظرية بحت».

قلت: «الجواب حاضر.. وما أظن بك ألا أنك تعرفينه.. وهل هو ألا أن تعديني كلبا لك»؟

قالت: «هذا سهل».

فصحت مسرورا وأنا لا أكاد أصدق: «إيه؟!»!

قالت: «لا تتعجل.. على مهلك.. لا تنس أن كلامنا كله نظري».

فارتددت وتنهدت أسفا محزونا، فقالت وهي تربت لى على كتفى: «لا تحزن يا كلبى العزيز.. أنت كلبى.. ألم تقل ذلك»؟

قلت: «نعم.. ولكن الكلب له مزايا.. لا تنسى ذلك».

قالت: «يحسن أن تتدرب عليها التدريب الأول»..».

فقاطعتها وصحت بها: «لا.. لا.. إني طول عمري كلب متدرب من زمان.. كلب عتيق.. والله».

وضحكنا ...

وافترقنا على موعد للتدريب الثانى.

الفصل الثاني

الدكان

وقفت «جلية» لا تدري ماذا تصنع، فقد انغزرت إحدى العجلتين الخلفيتين في الرمل وأبت أن تخرج منه.. وعجز المحرك عن جذبها، بل كانت العجلة تزداد غوصا كلما حاولت نزعها. وكانت الشمس قد مالت إلى المغرب ولم يبد أحد في الأفق، وكان الكشك الذى وقفت عنده منذ لحظة تشرب «الكازوزة» يبعد مسافة كيلو ونصف أو اثنين، فليتها ما جاوزته إلى هذا المكان القفر.. ولكنها أرادت أن ترى الطائرة الشراعية من مكان قريب والأرض بعد «الكشك» غير ممهدة. ولكن عناء السير فيها محتمل ولا خوف من الغوص. وقد طوفت من قبل في أرجاء هذا الفضاء الرحيب. فهي تعرف صلابة الأرض ولا تخشى رخاوتها، غير أن الحظ خانها في هذه المرة.. فما كادت تقف بالسيارة وتناهى عنها قليلا ثم ترجع، حتى ألفت العجلة قد غاب نصفها في الرمال الخائنة. وكان تلاميذ الطيران الشراعى بعيدين عنها بعد «الكشك»، فهل تترك السيارة وتعود أدراجها إلى الكشك تلتمس من صاحبه المعونة، وتسأله أن يدعو إلى نجدتها بعض خفرائه؟.. لم يبق من هذا مفر على ما يظهر، وإلا صار خطبها أدهى بعد الغروب. وصح عزمها على ذلك، فأقبلت على السيارة تريد أن تأخذ منها حقيبتها وقبعتها وإذا بصوت يقول لها: «اسمحي لى...».

فالتفتت مذعورة.. فما سمعت وقع قدميه وهو مقبل عليها ولا رآته، وإن كانت قد دارت بعينها في المكان ونفضته قبل أن تنوى الرجوع إلى «الكشك». ولم يسألها الرجل شيئا ولم ينظر إليها بل انطرح على الرمل بثيابه الأنيقة بعد أن ألقى طربوشه في السيارة، وراح يجرف الرمل بيده من خلف العجلة وقدامها.. ولما فرغ من ذلك ووسع للعجلة نهض ومشى مطرقا ينظر إلى الأرض كأنما يبحث عن شيء، ثم انحنى وتناول حجرا كبيرا ولوحا من «الصاج» وعاد بهما فوضع الحجر خلف العجلة واللوح

أمامها وتحتها، ليكون دورانها عليه لا على الرمل. ثم نهض مرة أخرى، وقال: «أظن هذا يكفي.. فلنجرب على كل حال».

فقالت: «أشكر.. لا أدري ماذا كنت أصنع لو لم تتجديني؟»
فأشار بيده، وقال: «أجلى الشكر حتى أستحقه.. إن العجلة المسكينة لا تزال غائصة، فلننقذها أولاً».

ومضى إلى آخر السيارة، وقال: «أديرى المحرك وسيرى بها، وسأدفعها من الخلف»..
ففعلت وخرجت السيارة ثم وقفت على مسافة أمتار، ونزلت منها جليلة متهلة الوجه فصاح بها: «لماذا وقفت.. هل حدث شيء؟»
قالت: «لا.. إنما جئت لأشكر».

ففرح يديه ومد يمانه إليها، وقال: «آه صحيح.. صار الشكر الآن واجباً. أليس كذلك؟»

فضحكت وسرها منه أنه لا يبدو عليه أنه يريد شكراً، وأنه كان ينتظر منها أن تمضى عنه بلا كلام.

وقالت، وهي تبتسم له في عينيه: «ألا تريد أن أشكر»؟
فقال وهو ينفذ الرمل عن ثيابه: «كلا.. إنه دين قديم أؤديه.. بعضه على الأقل»..
فغاضت الابتسامة، وقالت مستغربة: «دين؟ لى أنا؟ ولكنى لا أذكر أنى أعرفك.. لا مؤاخذه».

قال: «صدقيني حين أقول لك: إنه يسرنى أن أراك ناسية.. إنها ذكرى خليقة ألا تثير في نفسك إلا الامتعاض والنفور بل المقت.. فالحمد لله».

فدنت منه مقدار خطوة، وقالت: «ولكن أرجو أن تريحنى.. هل تعرفنى؟»
قال: «أعرفك؟ أظن ذلك.. وإن كنت لا أكتمك أنى نسيت اسمك. انتظري.. ورفع كفه الكبيرة الغليظة إلى جبينه.. اسمك يا ستى.. غريب أن تبقى الصورة كل هذه الأعوام ويذهب الاسم.. أوه.. جما.. جميلة.. وجدته.. وجدته.. جليلة.. أليس كذلك؟»
فصاحت: «نعم.. نعم.. ولكنى آسفة لأنى لا أذكرك أبداً.. لا صورتك، ولا اسمك».
فقال بابتسام: «انهما جديران منك بالنسيان».

فألحت عليه أن يذكر لها اسمه، فقال: «هذا لغز سأترك لك حله وأنت عائدة»..
فابتسمت، وقالت: «ألا تخشى أن أشغل به عن الطريق وما فيه فتحدث لى حادثة؟»
فقال: «صحيح.. صحيح.. إذن لم يبق لى مفر من التضحية. سأخسر ما صرت جديراً به من الشكر، وأسترد سخطك القديم».

فسألته وهي تضحك: «هل كنت فظيحا إلى هذا الحد» فقال: «ستعرفين مبلغ فظاعتي حين تعرفين اسمي.. مراد الباروني».

فأطرقت، وقالت على مهل: «مراد.. الباروني.. (وهزت رأسها) كلا.. إن ذاكرتي لا يختلج فيها شيء.. أسفة».

فقال، وهو يضحك: «أما أنا فإن ذكراك يقشعر لها بدني، فما أستطيع أن أنسى أنك صببت على ماء قربتين من الماء في الشتاء. سلطت على خرطوم الحديقة وأطلقت على ماءه.. أهذه زكري تنسى؟. ألسنت معذورا إذا ظللت متذكرا؟
فدنت منه، وقالت بصوت خافت كالهمس: «مراد؟ صحيح..»
فقال: «وكنت ظالمة لى..».

فقالت: «كلا.. لقد تذكرت الآن، فقد وضعت لى دودة ميتة فى قفاى.. الحق أنك كنت فظيحا».

فأشار بيده إشارة المستنكر: «لا.. لا.. هذا كان سوء تفاهم.. أعنى أنى كنت فرغت من اللعب بالدودة، وظننت أنك قد يسرك أن تأخذها لتلعبى بها.. ولكنى أخطأت فوضعتها لك فى قفاك بدلا من يدك، بل كان الخطأ منك لا منى.. فقد جعلت تجربين خائفة وأنا أجرى وراءك، فلم يسعنى ألا أن أتركها حيث تيسر لى.. فالذنب ذنبك يا جليلة».

فقالت جليلة، وهي تضحك: «أتذكر كيف كنت تصيح بأعلى صوتك كلما رأيتنى.. وكيف كنت تجرى ورائى وتدبب برجليك كلما أدركتنى فتزيدنى رعبا؟
فقال: «نعم أذكر ذلك.. أذكر كل شيء.. إنه كل ما بقى لى منك.. لقد كنت أصيح وأدبب لأخفى عنك حبى لك».

فقالت: «غريب.. أكنت تحببى؟ لقد كان نجاحك تاما إذن فى إخفاء هذا الحب».
ونظرت إلى وجهه الذى لوحته الشمس وشعره الذى ظهر فيه الشيب هنا وهنا، وأخذت الصورة القديمة تسترد ألوانها وتبرز معالمها شيئا فشيئا، ثم قالت: «لقد كبرت جدا.. طولا وعرضا.. وتغيرت أيضا. من الذى يراك الآن فيذكر ذلك الطفل الشقى الذى كان يسود عيشى ويُرعبنى كلما ظهر فجأة من وراء شجرة.. أو من تحت الأرض — فيما كان يخيل إلى ماذا صنعت بنفسك كل هذه السنين؟»

فقال: «أوه.. ماذا يصنع الناس بنفوسهم؟ يكبرون ويقعون على عمل يشغلون به. أنا أيضا وجدت لى عملا.. فى تجارة رابحة والحمد لله.. وأنت؟»

قالت: «أوه.. كبرت مثلك».

فقاطعها وقال: «كلا.. إنك لم تتغيري.. لو كان هنا دود لما خطر لي وأنا أنظر إليك إلا أننا ما زلنا طفلين، ولهممت بأن أضع لك واحدة في قفك».

فضحكت وقالت: «لقد صرت مهذبا جدا.. لم يبق شيء من ذلك الطفل اللعين.. غريب أن نلتقى هنا هكذا بعد كل هذه السنين.. ماذا كنت تصنع؟ أعنى هنا».

قال: «أتمشى.. للرياضة».

فتنبهت، وقالت: «إذن لا أقل من أن أحملك معي في السيارة».

وقال وهو يركب معها مسرورا: «ما قولك.. نحتفل بهذا اللقاء الذي لم يكن لي ولا لك فيه حساب، بالعشاء نتناوله في محل الحاتي.. هه؟»

فابتسمت لنفسها في مرآة السيارة وأصلحت شعرها الذي عبث به النسيم، ثم التفتت إليه وهزت رأسها أن نعم.. ثم انطلقت تخطف بسيارتها الأرض.

ولم يكن في جليلة خفة أو طيش، ولكنها كانت فتاة وحيدة مدللة.. ورثت عن أبيها قسوة القلب واستقلال الطبع، وعن أمها سرعة الاستجابة لدواعي الخير. وقد مات أبوها قبل سنوات، فلم يبق لأمها سواها ولم تهمل تربيتها.. ولكنها كان ينقصها حزم زوجها وحكمته، فألقت لها الحبل على الغارب وهي تحسب أنها لا تعدو ما كان يصنع أبوها. على أن الفتاة لم يكن فيها سوء ولم تثمر الحرية شرا، وإنما أكدت استقلالها وأورثتها تمردا صريحا على كل قيد من القيود التي يفرضها العرف حتى على الفتاة الحديثة. وكانت أمها وبعض أهلها يشق عليهم ذلك أحيانا، فتقول لهم إنى لا أفعل سوءا، ولا أسوء أدبي، ولا أتوقح على أحد، ولا قيمة لخروجي وحدي، أو مرافقة أصحابي وصواحبى إلى السينما أو غيرها.. فكانت أمها تسكت ولا تقول شيئا لعلمها أن الكلام لا خير فيه.

ولم تكن جليلة بارعة الحسن، ولكن صوتها كانت له حلاوة التغريد.. وكانت نظرتها الحاملة تفعل فعلين يبدوان متناقضين: تنعش القلب وتفتت الجسم، فإذا أدامت إليك كرة الطرف — على عاداتها إذا سرها منك عمل أو قول — شاع الرضى في نفسك وفاضت بالسرور، ودار رأسك، وأحسست بالخدر في أعصابك. وكانت أقرب إلى القصر منها إلى الطول، وإلى الامتلاء منها إلى النحافة والهزال، وقد حمتها كثرة الحركة والولع بالمشى في الهواء الطلق، وغطام النفس عن الأطعمة الدسمة الثقيلة، أن تصبح كأمتها أكاداسا من اللحم تلح على روحها. وكانت سمراء، ولكن سمرتها مشربة حمرة لا كدرة

فيها ولا نمش. وكان شعرها جعدا وأثيئا.. وكانت تفرقه وترسله إلى الورا وتقصه وتأبى أن تقصه. كانت أنيقة بلا تكلف، ولم تكن رقيقة الحال أو مضطرة إلى حسن التدبير والاقتصاد. فقد ترك لها أبوها الحازم ثروة كافية، ولكنها كانت تؤثر أن تصنع ثيابها بيديها، فتجىء محبوكة التفصيل على قدها الجميل يبرز من تحتها ثيابها الناهدان الراسخان كالرمانتين الصغيرتين. وكانت مجدولة الساقين لا عظيمة العضلة ولا مضطربتها ولا عرقوب لها. وجمال الساق في المرأة يشير بحسن القوام.. وكانت تكره الأحذية العالية الكعوب نفورا من بروز الفخذين. على أن هذا كله ما أكثر من يشاركنها فيه، ولو اقتصر الأمر على التكوين المادى لما كانت لها مزيه تنفرد بها، ولكن أنوثتها كانت قوية الجذب شديدة الإغراء.. فلولا استقلالها وشخصيتها لما استطاعت أن تنجو من المعاطب.

وقال مراد وهو عاكف على البيان الذى قدمه إليه الخادم: «معدرة، فىنى أتضور جوعا.. لم أكل فى نهارى شيئا. ماذا تريدن.. كباب.. لحم رأس.. حمام؟ إنى أرى الحاتى عنده كل ما يؤكل.. لا الكباب وحده.. ما قولك؟»

فأثرت الكباب، وقالت: «إن هذا فنّه الذى يمتاز به، فيحسن أن أقتصر عليه.. وكانا جالسين فى آخر القاعة ووجهها هى إلى الباب ووجهه إلى الناس. وشغلا برهة بالأكل وذكرىات الطفولة، فقال لها وهو يضطجع: «أتذكرين يوم تحدثك أن تتسلقى النخلة؟ (فهزت رأسها) لقد كنت لا تطيقين التحدى.. فهل أنت ما زلت كذلك؟» فوضعت الشوكة على الطبق، ونظرت إليه وسألته: «ماذا تعنى؟» قال بابتسام: «أعنى أن وراءك.. بعد مائتين اثنتين.. رجلين أحدهما يحدق فى ظهرك، لا يخالجنى شك فى أنك تحسّن وقع نظراته على جسمك.. إنها نظرة حامية.. كاوية.. انتظرى قليلا وسأدعو الخادم ليجيئنا بالقهوة، فأديرى وجهك حين يقبل وانظرى..»

ففعلت ثم اعتدلت فى جلستها وقد علا وجهها الاصفرار، فأكب مراد على بقية الفاكهة وتشاغل بها عما رأى فى وجهها من دلائل التغير. ولم تفت جليلة هذه الكياسة منه، ووقع من نفسها اتقاؤه الفضول.. فتماسكت وضبطت صوتها وهى تقول: «لقد تغيرت جدا.. من كان يظن أن ذلك الطفل الخبيث الذى كان يتعقبنى وينغص حياتى يصبح هذا الرجل الوديع الظريف الكيِّس؟ أتعرف من هذا يا مراد الذى يكونى بنظراته؟ إنه خطيبى زكى.. أفهمت الآن؟»

فقال بهدوء وبصوت متزن النبرات: «خطيبك زكى؟ هذه أخبار.. أظن أن من واجبي أن أقدم لك التهنئات».

ولكنها أحست من نبرات صوته على الرغم من اتزانها أنّ هذا الخبر لم يسره، فقالت: «لا داعي للعجلة.. ثم إن الزواج مسألة عادية جدا على كل حال.. أو كما يمكن أن تقول أنت.. هو شر يصيب كل إنسان.. عاجلا أو آجلا.. متى يصيبك يا مراد؟» فقال: «أنا؟.. لا أدري.. صاحبك.. أعنى خطيبك لا يزال محمقا في ظهرك. فهل تستطيعين أن تنهضى وتذهبي إليه وتقولى له بكل هدوء إن لك حقا في أن تتناولى العشاء مع صديق قديم مثلى وضع في طفولته دودة في ظهرك وصببت عليه عشرين قربة من الماء في الشتاء؟»

فقالت ببساطة: «إنى أحب زكى.. وأنت لا تعرفه.. بالطبع ليس في كونى معك هنا ما ينبغى أن يسوءه، ولكنه لا يعرف أنك هذا الصديق القديم.. كل ما يعرفه أنه خطيبى.. وإنى — كما قال مرارا — طائشة.. مندفة».

قال مراد: «اشربى القهوة.. لا تفسدى على نفسك الليلة.. ستشرحين له كل شيء، فيعود حملا وديعا ويعتذر إليك من هذه النظرات الحامية».

فشربت القهوة، ولكنها كانت ساهمة.. فقد كانت تحب «زكى» هذا، وكانت تكره الاضطرار إلى الشرح وتستتقل أن تحتاج حتى إلى ما يشبه الاعتذار.

وقال مراد: «لقد قام الرجلان.. خطيبك وصاحبه».

فقالت: «يحسن أن نقوم إذن.. فسيودع صاحبه ولا شك ويقف في انتظارى.. أشكرك يا مراد.. نبهتني إلى أنه خرج فلألحق به».

وخرجا.. وودعها مراد بعد أن عرفت منه عنوانه، وعرف منها عنوانها، وألح عليها أن تتصل به إذا جد أمر من جراء لقاؤهما الليلة.

وقالت جليلة لزكى: «معى سيارتى، فلا حاجة إلى تاكسى».

فدخلت في السيارة واضطجع.. ثم قال: «من هذا الرجل الذى كان معك؟».

فقصت عليه وما وقع لها عند المطار، فقاطعها وقال: «كيف تكلمين رجلا غريبا؟ إن هذا كثير..».

قالت: «ولكنه ليس غريباً.. لقد نشأنا معا.. فى حى واحد».

فنفخ وقال: «ولكنك لم تكونى تعرفين أنه هو صديق طفولتك».

فقلت بلهجة المستغرب: «هل كنت تريد أن أتقبل معونته ولا أشكره على الأقل»؟
فترك هذا وقال: «ولماذا تخرجين إلى هذا المكان وحدك»؟
قالت: «لأنك مشغول عنى بأعمالك الكثيرة التى لا تدع لك وقتا لمرافقتى.. ومع ذلك أى بأس هناك»؟

قال: «بأس؟ بأس؟ هذا الذى حدث لك من غوص العجلة أليس بأسا»؟
قالت: «لا تكن متعنتا.. إن السيارات يمكن أن يحصل له أى شىء فى أى مكان فى الدنيا». فترك هذا أيضا وقال: «ولكن تأتين معه إلى الحاتى.. ماذا يقول الناس»؟
فقلت: «إذا كان الحاتى مكانا لا يليق أن يدخله الشريف..».
فقاطعها بسرعة، وقال: «لست أقول هذا.. الأمر على العكس».
قالت: «اذن انتهينا».

فسكت، فما رأى حجة له تنهض. وساءه ذلك فقد كان شديد الاعتداد بنفسه، وكان عظيم الطموح واسع الأمل فى المنازل الملحوظة.. فلم يسره أن الفتاة التى سيتزوجها تفرع حجته بأقوى منها، وأحس أن فى هذا تنقضا له وغضا من مقامه وسقوطا لهيبته، ولكن الكلام خانه فأثر السكوت على مضمض.

وكان زكى — أو إذا أردت اسمه كله زكى الدين حمد — من أصل تركى أو شركسى — سيان — وكان يطمع أن يبلغ بماله الموروث حيث لم يستطع أن يبلغ بالكفاية الشخصية. وكان أمله الذى لا ينفك يحلم به فى اليقظة والنام أن يصبح يوما من أعضاء البرلمان، ومن أجل هذا كان يتقرب إلى الزعماء السياسيين بوسائل شتى.. وكان يعنيه جدا أن يحسن رأيهم فيه ووطنهم به ... وكان يحرص على المركز المأمول، ويحيط نفسه سلفا بكل مظاهر الأبهة والسمت والوقار، وينظر إلى الأمر كله كأنه واقع. وينتظر من الناس أن يعدوه كذلك، بل أن يبالغوا ويروحوا يمدون بصرهم إلى المستقبل، وأن يخالوه كما يتخيل نفسه فيه وزيرا أو رئيس وزارة.

وقال لجليلة — وهو يودعها على باب بيتها: «أرجو يا جليلة ألا تعرضينى لكلام الناس، واذكرى أن لى مركزا يجب أن أحافظ عليه».

فسحبت يدها من يده وقد ألمها كلامه، وأحست أن سهما وقع فى قلبها. كانت حساسة وذكية. ولم يكن يخفى عليها أن ليس له مركز سوى ما يفيد الغنى. ولم تكن هى تحتاج منه إلى مال فإن مالها كثير. وكانت تدرك أن ما يسميه «مركزه» جانب ضعف فيه، ولكنها كانت تغض عن ذلك لحبها له، غير أنها لم تكن تتوقع أن يتهمها

بأنها تسيء إلى هذا المركز — وإن كان موهوماً — فضلا عما تنطوى عليه عبارته من التعريض بها، بعد أن شرحت له الأمر كله ولم تُخف عنه شيئا. وماذا تخفى وليس في الأمر ما يستدعى الكتمان؟

وقالت له — وهى تهم بالدخول: «ليلتك سعيدة».

فسألها: «متى نلتقى غدا؟»

فأطرقت شيئا ثم رفعت رأسها، وألقت إليه ابتسامة ساخرة، وقالت: «غدا؟ لا..

إنى على موعد مع مراد..».

ولم يكن ثم موعد ولا شبهه، وإنما قالت ما قالت مدفوعة إليه بضجرها وألمها.

ودخلت.. وتركته واقفا وفمه مفتوح.

ولم تحاول أن تلتقى بمراد في اليوم التالي، فقد كانت تدرك أن هذا لا يكون منها إلا خرقا وحماقة.. فلزمت بيتها إلى المساء، ثم خرجت في سيارتها على عاداتها وجالت بها جولة قصيرة، ثم ردت بعض الزيارات وعادت فلزمت غرفتها. وكان الألم لا يزال يحز في نفسها، فساء نومها واضطرب. وذهب يوم وجاء يوم، ولكنها أحست ثقلا في جسمها وفتورا.. فبقيت في فراشها، وأوصت أمها أن تمنع أن يوقظها أحد — حتى ولا زكى — فشعرت الأم أنّ في الأمر شيئا، ولكنها حدثت نفسها أنه خلاف لا يلبث أن يزول. وجاء زكى يسأل عن خطيبته، فعرفت الأم أنه لم يلحقها منذ يومين.. فأظهرت تعجبها وزلت، فقالت إنها كانت تحسب أنها لم تخرج إلا للقائه. وزل زكى أيضا فقال لها إن جلييلة تسلك مسلك الأطفال، وأن ذلك يسيء إلى مركزه، وأنه كلّمها في ذلك فغضبت ولجت فيما نهاها عنه، فهو يرجوها — الأم — أن تكبحها قليلا.. فما يليق أن تترك هكذا — حبلاها على غاربها. وعرفت جلييلة هذا الذى دار بين أمها وبين خطيبها، فدهشت له.. ولكنها لم تغضب ولم تثر، بل كان من الغريب أنها أحست كأنما وضع لها في مكان القلب قطعة من الثلج.

وجاء العصر.. فركبت سيارتها وخرجت بها إلى مصر الجديدة. وكان كل همها أن تكون وحدها وأن تدور دورة في الهواء الطلق وتمشى قليلا، عسى أن ينفعها ذلك.. فيعفيها من الشعور بالانقباض والفتور. وإنما لفى بعض الطريق، وإذا بها ترى مرادا يمشى بسرعة كأنما يريد أن يدرك موعدا.. فوقف وأشارت إليه وقد أحست أن جسمها قد صار أخف مما كان.. فجاءها يعدو، فسألته: «إلى أين؟»

فلم يجب عن هذا السؤال ولم يلق إليها تحية، بل ركب وهو يقول: «أرانا نلتقى في هذه الأيام.. حسن هذا.. أليس كذلك؟»

فأعدها ما في وجهه من البشر، وقالت ضاحكة: «غريب هذا.. تمضى سنوات لا نلتقى فيها مرة واحدة، وفي أربعة أيام نلتقى مرتين».

فقال: «لا تغطى يا فتاتي.. ليست هذه مصادفة..».

فنظرت إليه مستغربة، وسألته: «ليست مصادفة؟»

فقال وعلى فمه ابتسامته الوضيئة التي لا تفارقه: «كلا.. ليست مصادفة.. إنها إرادتى سلطتها عليك فجذبتك إلى حيث أنا.. نعم».

فعاد إليها إشراق وجهها وأطمأنت، وقالت: «أوه.. أه.. إرادتك؟ طبعاً..».

فقال: «لا تمزحى.. إنى أتكلم جادا».

فرمت إليه نظرة سريعة، فألفته لا يزال يبتسم.. فحولت وجهها إلى الطريق، وقالت: «هذا بديع.. تكلم، إن أذن لك».

قال: «نعم.. إرادتى.. لم أزل منذ عشر سنين أربى هذه الإرادة، فهل تستغربين أنها بلغت من القوة هذا الشأو؟ بالطبع لا، وأنت أول من ينبغي أن يكون من تلاميذى المؤمنين بى.. من حوارى. هه؟ وسأفتتح بك العهد الجديد».

وبلغا آخر الطريق إلى المطار — من ورائه — فجلسا على سلم السيارة، وأخرج مراد سيجارة وذهب يدخن في صمت.. فلما طال ذلك التفتت إليه وقالت: «إنك لا تسألنى ماذا حدث؟»

فلم يحول وجهه إليها وأدرك من كلامها أن شيئاً لابد أن يكون قد حدث. ولم يشأ أن يتطفل عليها بالسؤال، فاكتفى بأن يقول: «إن أذن لك.. أعرناك السمع».

فقال: «إنك قليل الفضول».

قال: «لأنى مشغول عنه بما في نفسى.. الدكان غاصة. لا تحتمل زيادة».

قالت: «لغة التاجر، اسمع.. غضب زكى، أوه. غضب جدا.. لم يقل شيئاً كثيراً، كل ما قاله إنى خفيفة طائشة، وأنى أسىء بسلوكى إلى مركزه».

فانتفض مراد واقفاً وقد تجهم وجهه ورمى السيجارة، ثم التفت إليها وقال بلهجة صارمة: «من يكون زكى هذا؟»

وكبح نفسه عن الاسترسال، ورد لسانه بجهد، وضبط أعصابه، وعاد إلى مكانه من السلم والتفت إليها وقال — وقد وسعه أن يبتسم مرة أخرى: «معدرة.. ليس لى حق.. قولى إنك صفحت عنى».

فسرها منه أنه غضب لها، وفارت نفسه بالسخط على خطيبها من أجلها، فقالت له برقة: «أشكر.. إننا صديقان قديمان».

فقال لها — وهو ينهض مرة أخرى: «قومي نتمشى.. دعي السيارة، فلن يخطفها أحد».

وقطعا مسافة وهما صامتان، ثم وقف والتفت إليها وقال: «اسمعي يا جلييلة.. إنى أعتد على ما تخولني صداقتي القديمة من الحق في الصراحة ... عشرون قرية من الماء تجعل لي هذا الحق، أريد أن أقول إنى تحاشيت في مقابلتنا الأولى أن أكاشفك بما أضمر لك من الحب كل هذه السنين الطويلة، لأنك قلت عرضا أنك مخطوبة.. ولكن وجه المسألة تغير اليوم بعد أن سمعت منك ما قال هذا البغل».

فقاطعتها ضاحكة: «اذكر أنه خطيبي. لا يزال خطيبي. وإنى قلت لك إنى أحبه».

فقال: «لم يعد هذا يعينيني.. لست أحاول أن أصرفك عنه.. كلا، ولكنه لم يبق لي بد من أن أقول إنى أحبك، وإنى أحبك مذ كنت طفلة، وكنت أعابك وأكايك وأصرخ في وجهك. وكان هذا مظهر حبي الصباني.. أما الآن، فإن مظهره أنى مستعد أن أذهب إلى خطيبك هذا وأخنقه بيدي هاتين».

فقالت ضاحكة: «لقد توهمت لحظة أنك صرت أرق».

فقال: «كلا.. أنا كما كنت.. واسمعي ولا تقاطعي وإلا بحثت عن دودة ووضعتها لك في قفاك.. إذا حدث يوما أن صار الدكان للإيجار فاخبريني».

فقالت: «لغة التاجر أيضا.. ولكنى سأستعيرها منك.. ثق أنك مفضل عندي على كل مستأجر لهذا الدكان إذا خلا يوما من الأيام.. لم يخطر لي أن هذا ماتنطوى عليه لي.. ومن التي تتصور أن وضع الديدان في قفاها يكون علامة حب؟ ولكنك كنت دائما غريبا.. على كل حال، المسألة المهمة أن الدكان مزحوم. ليس خاليا.. رحت أستبضع فامتلا.. صحيح أنه امتلا بأشياء لا قيمة لها.. ولكنى لم أكن أعرف أن ما غص به عديم القيمة.. المهم أنه ممتلى، وأظنك تدرك أنه ما دام مملوءا فلا مكان هناك لجديد.. يجب الصبر حتى أخليه مما فيه.. هذا يحتاج إلى وقت. ومن يدرى، ربما كان الإخلاء أصعب من الملاء. ولكنك تفهم.. قل إنك تفهم وتعدر».

فقال ببساطة وهدوء: «لا بأس. لا بأس.. إن دكاني أيضا مزحوم. ولكنه مزحوم بالنفيس الغالي.. ولست أريد أن أخليه — لا أستطيع أن أخليه حتى لو أردت. وهيهات أن أريد أو أستطيع.. أنه مكتظ منذ خمس عشرة سنة، وسيظل مكتظا طول العمر.

وقد عرفت أن مفتاحه معك.. في يدك.. فادخلي حينما تشائين. وعسى أن تشائى.. عدينى أن تحتلى مكانك من الدكان بعد أن تفرغى من أمر دكانك.. وفي أثناء ذلك نبقى كما كنا دائما.. صديقين حميمين».

ولم يسع جلييلة الا أن تفكر في أمر الرجلين — مراد الذى تعرفه منذ الطفولة، والذى كان يسود عيشها بعبثه — لأن هذا كان تعبيره الخاص عن حبه لها — وقد ظل بعد ذلك يحبها، ولكنه أحجم عن طلب يدها لرقه حاله بالقياس إليها. وقد صار تاجرا، ولكنه لم يُثِرْ لأنه لا يربح إلا الكفاية.. ومن هنا إحجامه إلى الآن عن خطوبتها كما حدثها. وقد زاد على ذلك أنه كان لا يتصور أن ترضى به فتاة مثلها، فكتم حبه وطواه في صدره، وسأل الله المعونة على احتمال اليأس المخامر. وهو ظريف كئيس لبق دائم البشر واسع الإدراك رحيب الأفق حلو الفكاهة ... وزكى الغنى الذى لا ينفك مهموما بمركزه المتخيل والذى لا يتقى في سبيل الحرص عليه أن يجرح قلب فتاة ويتهمها بالخفة والطيش في سلوكها، وبأن سيرتها توشك أن تسيء إلى مركزه الموهوم هذا. وقد أحبته.. هذا صحيح، ولكن عينها فتحت، فهي تراه الآن على حقيقته. وليس يسعها إلا أن تفكر في حياتها معه كيف يكون. إذا كان كل ما يباليه في الدنيا هو هذا المركز.. ولكنها خطيبته وقد قبلت أن تكون زوجته.. فما العمل الآن؟

وسألت نفسها: أى الرجلين أحب إليها؟ وحيرها الجواب.. فهل هذا الذى تشعر به لمراد حب؟ إن يكن هذا فهو هادئ جدا.. أما زكى فإن الدكان كما قالت لمراد مزحومة.. صحيح أنها مزحومة بما لا قيمة له — كما ظهر الآن — ولكنها مزحومة.. فهل تخلو يوما؟ هذه هى المسألة.. وإلى أن تخلو لا سبيل إلى شىء.

ولو أن زكى ذهب إليها في ذلك الوقت ولاطفها وضاحكها ومازحها واعتذر إليها — ولو كانت هى في رأيه المخطئة — لعادت المياه إلى مجاريها كما يقولون، ولارتفعت قيمة ما في الدكان وارتدت إليه نفاسته. ولكنه أراد أن يلقتها درسا، فأعرض أياما وجفاها وانقطع عن زيارتها، ولم يكفه ذلك.. بل أرسل إليها خادمة من عنده تبلغها تحياتها وتسالها باسمه عن صحتها، وأوصاها أن تخلق مناسبة لتقول لها أن سيدها يكثر — في هذه الأيام — من زيارة بيت خالته — وكانت لها بنت في مثل سن جلييلة — ليثير غيرتها وإشفاقها من أن يطير العصفور من يدها، فأفلح ولكن في استثارة نقيمتها عليه.. فقالت لنفسها إن رجلا يهينها ويعرض بها ويرميها بأن سلوكها من شأنه أن يسيء إلى سمعته وأن يضر بمركزه، ثم لا يجعل هذا بينه وبينها بل يفضى به إلى أمها،

ثم لا يكفيه هذا بل يجفوها ثم يغلو في تعمد الإساءة إليها فيرسل إليها خادمة تبلغها أنه انصرف عنها إلى سواها.. مثل هذا الرجل خير له ولها أن ينقطع ما بينهما.

على أنها لم تتعجل — وإن كان عزمها قد صح على الفراق — فقد كانت شديدة الثقة بنفسها والاعتداد باستقلالها وإرادتها الحرة، فلم تر ما يدعو إلى العجلة بعد أن انتوت أن تفصم العروة. واستوى عندها أن يكون ذلك يوم انتهت إلى هذا العزم، وأن يكون بعده بأيام أو أسابيع. فقد كانت واثقة أنه ما من شيء يستطيع أن يحولها عنه. وصار عجبها أن الدكان خلا بسرعة مما كان يغص به. ولم تكن تلقى في تلك الأيام مرادا، لأنها أرادت أن تختبر نفسها لتعرف ما تنطوى عليه له.. فأدهشها أنها تحس وحشة، وأنها تشتهي أن تكون معه، وأن تستعيد ما تشعر به في مجلسه من سكينه النفس واطمئنان القلب والرضى الهادئ. وزاد شوقها إليه أنها كتمت الأمر كله عن أمها. ولو كان مراد إلى جانبها، لكان خليقا أن يفهم ويعذر ويعطف وأن يسرى عنها بفكاهته التي لا تخونه، وأن يغذيها بقوته التي تجعله لا ينسى أن يضحك وهو يفجع في أمله الذي عاش به سنين وسنين..

وتعجبت لسرعة استيلاء مراد على هواها، فما لقيته إلا مرتين بعد طول الانقطاع والغيبه. فهل هذا هو الحب الذي يقال عنه أنه يكون من أول نظرة.. أم تراها كانت تحبه منذ عرفته وهي لا تدري، وكان حبها له راقدا كامنا ينتظر فرصة للظهور؟ لاشك أنها كانت تحبه، كذلك قالت لنفسها وهي راقدة على سريرها بعد الغذاء. نعم كان يقسو عليها ويركبها بالمزاح المتعب، وكان يختبئ لها وراء الأشجار ثم يفاجئها بصرخة ترعبها فيضحك ويقهقه. وكان يجري وراءها حتى تنقطع أنفاسها وتقع من الإعياء.. فيحملها، ولكنه لا يرحمها، ولا يترفق بها.. بل يقرصها ويعضها، فتصرخ وتصيح وهو يضحك ولا يبالي.. ولم تستطع أن تنتقم منه إلا مرة واحدة حين أرسلت عليه خرطوم الماء فأغرقتة، فجعل ينتفض من البرد. ولكنه كان يضحك مع ذلك ولم يسخط عليها.. ولم ينطق بكلمة تشي بالألم أو النقمة أو الغضب، بل احتمل ذلك. ولما رق له قلبها وأقبلت عليه بالاعتذار إليه وطلبت الصفح منه، لم ينس دعابته وعبثه ونجحها كما يفعل الكلب «وو.. وو..» ففزعت. فما كانت تتوقع شيئا من ذلك، ومضت عنه مغيظة محنقة معتقدة أنه شر صبي في الحارة، وكان هو يقهقه وينطوى من شدة الضحك غير عابئ بالماء والبرد.. فتالله ما أقواه. ومع ذلك كانت لا تلعب إلا معه.. وإذا

أقبل عليها غيره من الصبية نفرت. نعم، لا شك أنها كانت تؤثره، ولماذا لا تقول إنها كانت تحبه؟ صحيح أنها لم تكن تعرف الحب.. ولكنها تعرفه الآن، فقد صارت خبيرة مجربة.. فلماذا لا تسمى الشيء باسمه الصريح؟

وارتدت من الماضي إلى الحاضر، وذكرت كيف غاصت عجلتها في الرمل ووقفت حائرة.. وإذا به يظهر كأنما شق الأرض وخرج منها – كما كان يفعل وهو صبي – وينطرح على الأرض بلا كلام أو سؤال، ولا يبالي ما يصيب ثيابه، ويجرف الرمل بيديه الكبيرتين ويحمل الحجارة.. يفعل كل ذلك ولا يرفع عينه إلي.. ثم يعرفني فيتلطف في تذكيري بنفسه. ويتظاهر بنسيان اسمي وهو منقوش ومحفور في قلبه.. وتنازعه نفسه أن يُفضى إليّ بحبه، فيشير إليه من بعيد في معرض الكلام على ذكريات الحداثة.. ويعرف أنى مخطوبة، فيفقد كل أمل. ولكنه يتجلد ويتكلف الابتسام ويمضى في مؤانستي بحديثه، كأنما لم ينهد ولم يتقوض بنيانه.. وهل أنسى كيف ثار وانتفض حين رويت له ما أهانني به زكي؟ فقد كانت وثبته تلك دليلا كافيا على عمق ما يجن لى من الحب.. ومع ذلك أبت له الكياسة والأدب إلا أن يكبح نفسه ويردها عن النيل من زكي مخافة أن أكره ذلك منه.

وظلت تناجي نفسها على هذا النحو، ولا تكتحل عينها بغمض حتى كان العصر.. فقامت ولبست ثياب الخروج، واستقلتها سيارتها الصغيرة إلى دكان مراد، فأقبل عليها يرحب بها، فقالت: «أنت أولى من الغريب».

فابتسم وقال: «آه.. أهو ذاك»؟

قالت: «نعم.. أريد شيئا من الحرير.. قطعا كثيرة. ألوانها شتى.. الوقت ضيق».

فقال: «الوقت؟.. لست فاهما شيئا..».

قالت: «ألا تعرف أن العروس تحتاج إلى ثياب كثيرة»؟

فامتقع لونه، ولكنه تجلد وقال: «متى، إن شاء الله؟ لست أطمع أن أدعى، ولكنى أريد أن أحتفل بليلة الجلوة وبسرورك فيها.. وحدي».

فسألته بخبث: «وحدك»؟

فقال: «نعم.. لن يكون معي سوى خواطري».

وأدار وجهه إلى الباب ليخنق زفرة يعلو بها صدره، ثم التفت إليها وقال: «متى يكون هذا»؟

فرفعت إليه وجها مشرقا، ونظرت إليه نظرتها الحاملة، وقالت: «متى تريد أن يكون»؟

فقطب، وقال: «إيه»؟

فأعادت سؤالها: «متى تريد أن يكون»؟

فحدق في وجهها — في عينيها — ثم صاح وقد فطن إلى ما تعنى، وانحنى عليها فرفعها بيديه عن الكرسي غير عابئ بالعمال والزبائن، وأهوى على فمها باللثامات ثم ردها إلى الكرسي، وصاح بأحد رجاله: «اذهب. اذهب. حالا. حالا».

فوقف الرجل كالأبله لا يفهم ولا يدرى أين يريد منه أن يذهب، فصاح به: «هات المأذون.. ألا تعرف المأذون يا أبله؟ اذهب.. حالا..».

فوقفت جليلة وأقبلت عليه تسأله: «ماذا تعنى؟ ماذا تريد أن تصنع»؟

فقال: «ماذا أعنى؟ يا له من سؤال.. نعقد العقد.. هنا.. حالا في الدكان.. هذا ما أعنى.. رجالى وزبائنى شهودى.. شهود سعادتى.. لقد كان التجار في الزمن السالف يجيئون برجال يقفون على أبواب الدكاكين ويدعون المارة أن يدخلوا ويزينون لهم البضاعة، وقد انقضى ذلك الزمن وحلت الإعلانات في الصحف محل هؤلاء المنادين.. ولكنى اليوم سأقف بالباب وأدعو الناس.. كل الناس.. أن يدخلوا، لا ليشتروا، بل ليشاركونى في سعادتى. لماذا لم يجئ المأذون؟ اذهب أنت وراءه واستعجله».

وفرحت جليلة بهذا الجنون وخجلت أيضا.. أفرحها أن عقله استطير من فرط الجذل، وأخجلها أن كل هؤلاء الناس من العمال والزبائن يرونها وأن عيونهم جميعا عليها، وأنهم جميعا يفحصونها ليعرفوا سر هذا السحر الذى ذهب بلب الرجل الذى ألفوا منه الرزاة والوقار والسكينة والظرف والعقل.. وأرادت أن تستمله، فأبى.. فاقترحت أن يذهب بالمأذون إلى البيت، فأبى أيضا، وقال: إن ناسا في هذا الزمان يتزوجون في الطيارة.. فماذا يمنع أن نتزوج في الدكان؟ فقالت: إنه فرق ساعة، والمسافة إلى البيت لا تستغرق زمتا. فأبى أيضا، وقال إنه يخاف عليها أن تطير وتتسرب في الهواء.. كلا، ولا بد أن يكون العقد هنا.

وراقها هذا الجنون وألهب خيالها فرضيت..

وتزوجا في الدكان!

وقالت له وهما خارجان: «نسيت أن أقول لك إنى وجدت أن الدكان لم يكن خاليا قط.. كان ما فيه مخزوننا من أيام الصبى.. فلما أدت عيني فيه عرفت، ولهذا جئت».

فقبلها على باب الدكان ... ولم يستح الرجل!

الفصل الثالث

الكآبة

يقول بعض الأطباء بلهجة الجزم التى لا تردد فيها ولا تلعثم: إن حيوية الجسم الإنسانى تكون أدنى ما تكون بعد منتصف الليل. وفي تلك الساعة العصبية، يعجز العقل عن تدبر الحاضر بسكينة ورضى، واستشفاف المستقبل بشجاعة، ورجع البصر فى الماضى بغير أسف. ولكن كل امرئ غير هؤلاء الأطباء يعرف أن ساعة الكآبة والهبوط لا وقت لها، وأنها قد تكون الأولى صباحا أو الثانية مساء. كما قد تكون فى العصر أو الغسق. فليس لها ثبات ولا أوان معروف، وأن ساعتها قد تكون ثوان أو دقائق. وقد تمتد وتطول، فينطوى فيها الليل والنهار جميعا والعمر أو خيره فى بعض الأحيان.

ومهما يكن من ذلك، فإن المحقق — على كل حال — أن كاتباً مثلى لا يسعه إلا أن يشعر وهو يتأمل «سعيدا» بقصوره وعجزه، فإن مثل هذه الكآبة لا يستطيع أن يوفىها حقها سوى مجمع من أعلام البيان. وقد يسع «زولا» أن ينصفها، وعسى أن يكون «جوركى» قادرا على تناولها بقلمه، ولعل «دستوفسكى» كان أقدر من سواه على ذلك، ولكنها فوق طاقتى وحدى. وشر ما فيها أنك لو سألت «سعيدا» نفسه عنها، ما سببها أو داعيها، لما وسعه أن يعلله.. ولكن الأرجح أن يتعجب لها، فقد كان حسن الحال ميسر الرزق. ولا نكران أنه كان يكد ويتعب فى سبيل الرزق.. ولكن كل إنسان يفعل ذلك، حتى أصحاب الضياع لا مفر لهم من العمل والسهر والتعهد والعناية بما يملكون، وإلا نضب المعين وجف المورد. وكان فوق ذلك ذا زوجة صالحة فيها رقة وجمال وأدب وحذق ولها عقل، وكفى بهذا نعمة.

وكان فى تلك الساعة فى «قهوة» لها حديقة تشرح الصدر. والطريق أمامها واسع نظيف، واليوم يوم أحد، والغوانى يرحن ويجئن على الرصيف.. كل اثنتين أو ثلاث أو أربع معا، وهن فى حفل من الزينة. وأخلق بالمرء حين ينظر إلى وجوههن الصبيحة

وقدودهن البارعة وخطرتهن الرشيقة، ويسمع أصواتهن اللبيلية أن يشيع البشر في نفسه! وكانت في حديقة القهوة نافورة صغيرة، ترسل الماء خيوطا دقيقة تعلو ثم تتناثر على صورة المظلة. وقد اجتمع الماء والخضرة والوجه الحسن — بل الوجوه الحسان — فماذا يبغى سعيد فوق ذلك؟ أم ترى اجتماع ذلك كله هو سر الكآبة، من يدري؟

وجاء ماسح الأحذية وقعد ومد يده بالصندوق إلى رجل سعيد بلا استئذان، فرفع هذا قدمه إلى الصندوق بحكم العادة لا بدافع الرغبة.. فقد كان الحذاء نظيفا لماعا. وقال الرجل بعد فترة صمت شغل فيها بغسل الحذاء بالماء والصابون: «من زمان ما جئت إلى هنا يا بك».

ولم يكن سعيد «بيكا» ولا كان له أمل أو رغبة في رتبة كهذه.. فإنه رجل عمل لا يحفل بالألقاب والرتب، ولكن كل امرئ «بك» عند ماسح الأحذية وسائقى المركبات. ولم يزد سعيد في جواب السؤال على «آه»، ثم أدار عينه في الجالسين بهذه القهوة فألقى ناسا يشربون وآخرين يلعبون «الطاولة» وحولهم كثيرون ينظرون إليهم وهم وقوف. وأخذت عينه رجلا وامرأة جالسين تحت شجرة وأمامهما قدحان من «الزبيب» فقد كان هذا أحد الشهور التي لا «راء» في حروفها — وهى مايو ويونيه ويوليه وأغسطس — والقاعدة المصرية أن شرب «الزبيب» يخلو ويطيب في هذه الشهور الأربعة. فاشتتهت نفسه قدحا من الزبيب.. وصفق فجاء الخادم، ولكنه تردد وخطر له أنه ليس معه من يشاربه. فنظر إلى الخادم الصبور، وسأله: «عندك إيه؟» ولم تكن به حاجة إلى سؤال كهذا، ولكن الخادم ألف هذا من الزبائن، ووطن نفسه عليه، فقال بلا تملل: «قهوة، شربات، كازوزة، شاي..» وأمسك. ثم كأنما تذكر، فزاد «خشاف، ليمونادة».. ولم يأنس من سعيد قبولا، فقال: «ويسكى، كونيكا..» فاستوقفه سعيد بإشارة، وسأله: «كونيكا من أى صنف؟» فقال الخادم: «كمبا، كمبا عال، مارتل، كور فوازييه، انيسى..».

فهز سعيد رأسه، وقال: «هات زبيب».

ومضى الخادم، فقال ماسح الأحذية: «القهوة دى يا بك عال».

فزاد صدر سعيد ضيقا ولم يجب، ودار بنفسه أن كل إنسان سعيد إلا هو. وأنكر أن يكون اسمه سعيدا، ورأى في هذا الاسم تهكما من الأقدار. وخطرت في هذه اللحظة فتاة أمامه وألقت نظرة سريعة على حديقة القهوة وهى تمر بها، فقال سعيد لنفسه إنه كان خليقا أن يشعر ببعض السعادة لو كانت معه في هذه الساعة فتاة كهذه تؤنسه

بحديثها. ومرت فتيات أخريات وراءها، فقال لنفسه: «ما أكثر الفتيات اللواتي يمشين وحدهن ولا رجال معهن»!

وقال ماسح الأحذية: «شارع ظريف يا بك.. وخصوصا يوم الأحد..» وأشار بيده إشارة عامة يمكن أن تشمل المباني ومركبات الترام. ورفع وجهه الأسمر إلى سعيد وابتسم له ابتسامة لا تخلو من معنى.. فعبس سعيد، ثم بدا له أن التعبيس لا موجب له، فابتسم متكلفا ورد عينه إلى الشارع ومن يمشين فيه.

وقال الرجل: «بس سعادتك ما بتجيش».

فاحمر وجه سعيد، فقد أدرك غرض الرجل. ولم يخفَ عليه ما يرمى إليه، وكان الزبيب قد جاء فصب عليه ماء، ورفع الكأس إلى فمه ورشف. وأقبلت إذ ذاك فتاة تعدو على الرصيف وكان جسمها لينا وثوبها محبوبا، فلم يسعه إلا أن ينظر إلى صدرها العارى، وخصرها الهضيم وتحت ردفها يرتجان، وثناياها اللؤلؤية التي تفتت عنها شفتاها الحمراء.. فرفع الكأس مرة أخرى وشرب وقال لنفسه: إنه مسكين مسكين ومحروم محروم. ثم ارتد يقول — لنفسه أيضا — إنه ليس مسكينا ولا محروما فإن له زوجة جميلة، وإن في وسعه أن يُعجب ما يشاء بجمال النساء غيرها.. ثم يسكن بعد ذلك إلى زوجته، وأن حسبه من السعادة وفاءها وبرها وإخلاصها. ثم هز كتفيه — وإن كان وحده — وقال: «وما قيمة أن يعجب المرء بالجمال وما خير ذلك؟ وماذا يكون معنى هذا الإعجاب على مسافة أمتار؟ لكأنى أنظر إلى شريط سينما.. ولا فرق بين أن أرى الفتيات يخطرن على الرصيف أمامى، وأن أرى صور النساء فى شريط السينما. إنما تكون للإعجاب قيمة إذا جالس الرجل المرأة وحادثها ونعم بوجودها وحديثها وأنس بمحضرها على العموم. ولكن..» وهز رأسه مرة أخرى متحسرا. فقد كان فيه احتشام وحياء شديد. وكان من غريب أمره أنه يجتنب المجالس التي يختلط الرجال فيها بالنساء. وكان يدعى إلى سهرات من هذا القبيل عند من يعرف من الأجانب والمصريين، فيعتذر ثم يروح يقرع نفسه ويسخط عليها. وكان حياؤه أو شعوره الشديد بنفسه يوهمه أنه ليس مقبول الشكل أو ظريفا، ولا أنس لأحد به. وكان كثيرا ما ينظر إلى نفسه فى المرأة ويدور أمامها، ليرى كيف يبدو من كل ناحية.. فلا تعجبه الصورة التي تطلعه، فيمط بوزه ويقطب وينحط على أقرب كرسي ويروح يفكر فى سوء طالع، حتى أورثه هذا اضطرابا فى الأعصاب.

وصفق، فقال ماسح الأحذية: «حاجة يا بك»؟

فقال سعيد: «لا..» وتردد فقال: «ناد الجرسون».

فوضع الرجل الفرشاة ونهض، ولما عاد جلس وهو يقول: «أنا خدامك يا بك.. تحت أمرك.. بس أوامر. أتمنى خدمة.. والله يا بك».

فدار رأس سعيد، وقال لنفسه: «لم يبق إلا هذا.. نعم لم يكن ينقصني إلا أن أستعين بهذا الرجل.. مصيبة. مثلي يخطر له أن يستعين على سد الفراغ الهائل في حياته الجافة برجل من هذا الطراز.. ومع ذلك، لم لا..؟ وماذا يستطيع مثله.. إنه لا يسعه شيء أعجز حتى أنا عنه، لأنه إذا كان يعرف أحدا فإنه لا يعرف ولا يمكن أن يعرف إلا الطبقة التي هي كالشمس لكل الناس.. أعوذ بالله.. لا.. ليس هذا ما أريد. ومع ذلك من يدري.. ألا يمكن أن أختبره؟»

وجاء الجرسون ثم انصرف ليגיע بالكأس الثانية، فخطر لسعيد خاطر، والتفت إلى الرجل وقال: «اسمع: إنى أريد شقة صغيرة.. غرفتين فقط.. شقة أشتغل فيها. البيت ضجة وضوضاء.. شقة صغيرة هادئة.. في حي محترم...».

فأقبل الرجل على الحذاء يمسحه بهمة ونشاط، وقال: «كثير يا بك.. بس أوامر».

فقال سعيد: «طيب ابحت وأبق قل لي».

فقال الرجل: «حاضر.. من عيني».

فرمى إليه قرشين، فتقبلهما الرجل مسرورا داعيا مؤكدا صحة عزمه على خدمته بإخلاص، ومضى عنه.

وتناول سعيد الكاس وشرب وهو يحدث نفسه أن هذا جنون. وماذا يصنع بالشقة؟ أما إن أمره لغريب.. وهم بأن يدعو الرجل ويصرفه عن البحث، ولكنه عدل وقال إن الأمر بيدي أنا لا بيده، فلا داعي للعجلة. غير انه مع ذلك استثقل أن يدع الرجل يظن به الظنون. وعاد يقول لنفسه إنه رجل لا قيمة له ولا لظنونه، فليظن ما شاء.. ولكن حملته على نفسه لم تفت.

وكان الليل قد أظلم ولم تبدد سواده المصابيح.. وكان هو في النور، فقدرته على رؤية الشارع محدودة.. فصارت الفتيات كالأشباح، واتسع المجال بذلك للخيال، فالدميمة منهن يحيلها الخيال فاتنة ساحرة. وساعدته الخمر على إتمام الصور، وجلاء غامضها، وعلاج عيوبها المرئية أو الموهومة. وكانت الخمر قد أنعشته قليلا، فكان ينظر ويفكر ويتخيل بشيء من الارتياح.. ولكنه مع ذلك أحس أنه عاجز عن احتمال كل هذا الجمال، وإن كان أكثره مما رسم خياله، فنادى الجرسون ونهض..

ولقيه ماسح الأحذية وهو على الرصيف، فسأله: «تجى بكره يا بك؟»
ولكن البك لم تعد له أذن تستطيع أن تحتمل الإصغاء إلى مثل هذا الرجل، فقال
له: «رح.. رح» فألح الرجل ومشى إلى جانبه، يقول: «ليه يا بك.. أنا خدامك.. بس
استنى طوّل بالك.. إن ما كنتش أخدمك خدمة...»
فقاطعه سعيد ونهره.. ومضى عنه.

والمثل يقول: «راحت السكره وجاءت الفكرة» ولكن الفكرة تروح أحيانا مع
الصحو وتجىء مع السكر.. أو على الأقل، هذا ما كان من أمر سعيد، فقد قال لنفسه
إنه إذا كان من العجز بهذا القدر.. فأولى به أن يظل عاجزا وأن يعترف لنفسه بذلك
ويوطنها عليه. ولم يكن هذا الخاطر مما يجلو الكآبة ويلطف الوحشة التى تحسها
النفس، وأخلق بالاعتراف بضعف الحيلة وقلة الوسيلة وعدم الصلاح أن يزيد هبوط
الروح! ولا عجب إذا كان سعيد قد عاد إلى بيته وهو يسأل نفسه لماذا شرب هذا الزبيب
السخيف؟

ودخل على زوجته، وهو يقول لها: «اسمعى.. من الآن فصاعدا لا تدعيني أخرج
ومعى فلوس.. بس الكفاية للانتقال.. فاهمة؟»
فظنت أن ما معه سرقة النشالون، فقال: «لا.. بس شربت زبيب.. جنون بالطبع..
الرجال مجانين».

وارتمى على كرسى، وهو يقول: «قال زبيب.. كلام فارغ.. مسخرة وقلة حيا».
وأخذت كآبته صورة السخط على النفس، ولا نعرف كيف كانت أحلامه فى تلك
الليلة.. فإنه لم يقصها على أحد، ولكن الأرجح أنها لم تخل من «الزبيب والكلام
الفارغ»!

الفصل الرابع

العقد الضائع

رجعنا من السويس على عجل — أختى وزوجها وأنا — وكنا نقضى فيها أياما، فقد تلقينا نبأ من خادمتنا القديمة الأمانة «فرحة» بأن عمدة قريتنا قادم.. وسينزل علينا ضيفا إجابة لدعوة قديمة نسيناها، فأسرعنا نحشو الحقائق حشوا بلا عناية، لنكون فى البيت قبل أن يصل. ومضى ابن عمى — زوج أختى — فجاء بالسيارة. وكنت قد هضت ساقى قبل ذلك بيوم، فلم يبق مفر من أن يسوق هو السيارة وإن كان لا يحسن ذلك.. ولم يتلق فيه إلا بضعة دروس قليلة. وكان الأحجى أن نستأجر رجلا لهذا، ولكننا كنا نحرص على ألا يكون معنا غريب يحول وجوده دون حريتنا فى الكلام والضحك واللهو أثناء الطريق وقد عزيت نفسى بأن طريق السويس سهل والحركة فيه قليلة، فلا داعى للخوف. وفى وسعه أن يخطئ كما يشاء.. فلن يضره أو يضرنا ذلك، وإن كان يخشى أن يضيع وقتنا.

وجلست إلى جانبه، وجلست أختى على المقعد الخلفى، وطمأنتها بأنى وأنا معه سأكون السائق الحقيقى، وأنه لن يفعل إلا ما أمره. ولكننا لسوء الحظ، ألفينا الطريق غاصا بالسيارات.. فتعجبنا أولا، ثم تذكرنا أن هذا يوم الأحد، فلا عجب إذا كان الكثيرون قد أقبلوا على السويس ليقضوا اليوم فيه.

وقطعنا بعض عشرات من الكيلومترات فى سلام — وفى ضحك أيضا — ثم بلغنا أول مرتقى فى طريقنا، فأشرت على ابن عمى بأن يضع ناقل السرعة فى المحل الثانى.. ففعل، فوقفت السيارة فى منتصف الانحدار. وكنا لا نزال فى مكاننا حين وقف المحرك للمرة العاشرة، فاقترحت عليه أن يكف عن العمل، وأن يضطجع ويشعل سيجارة. ولكنه هز رأسه وقال: «هل أرجع بها القهقرى، ثم أبدأ من جديد؟» فقلت له: «كلا، إنى أفضل لسخافتى أن أواجه الموت».

فقلت أختي: «هل نستطيع أن ندفعها بأيدينا حتى نبلغ ذروة هذا المرتفع؟..»
قلت: «كلا.. إن زنتها لا تقل عن طنين».

وقال ابن عمي؟ «لن أسألك عن السبب في وقوفها كلما حاولت أن أحملها على السير، فإنني أعرف جوابك.. ولكنني أؤكد لك أنني أضع ناقل السرعة في مكانه بأقصى ما يسع إنسانا من الترفق والبطء.. وإذا كنت تريد أن تعرف رأبي فهو أن السيارة قد أصابها تلف».

قلت: «سببها التلف على التحقيق، إذا ظلت تحاول أن تدير المحرك ثم توقفه.. فستنفد الكهرباء وتحتاج كلما أردت إدارة المحرك أن تنزل وتديره «بالمفيلة». وقد ينفعك هذا، فيغيرك بالتفكير قليلا».

فصاح بي: «أتظن أنني لم أفكر؟ أتتوهم أنني لا أفكر الآن؟ إن رأسي يكاد ينفجر من فرط التفكير».

فضحكت أختي، فصاح بها: «نعم اضحكي.. انظري إلى الجانب المضحك.. ولم لا.. قد يطير عقلي، ولكن هل يجوز أن يمنعك هذا من الضحك؟»

ودأس برجله الزر يريد أن يدير المحرك.. ووقفت السيارة مرات أخرى لا أذكر عددها فاضطجع وأغمض عينيه وراح يقول: «لا فائدة.. لا فائدة.. قضى الأمر، وأنا واثق أنه كتب علينا أن نبقي هنا إلى الأبد. ومن يدري.. ربما كان في الطريق مارديده سيف مسلول.. والسيارة تراه وإن كنا نحن لا نبصره. ومن العبث أن يقاوم المرء القضاء والقدر. كلا.. لا تتكلموا.. فإنني أؤثر أن أقضى نحبي في سلام وبغير ضجة».

وفي هذه اللحظة وقفت إلى جانبنا سيارة ونزل منها رجل لم نكد نبصره حتى أيقنا أنه إنجليزي، وحقق هو ظننا فقال لنا بلغته: «هل أستطيع أن أساعدكم؟»

فشرحت له الأمر وعرفته خطبنا، فابتسم وهم بكلام ولكن ابن عمي قال له: «امض عنا.. اذهب.. وحدك.. إن أماننا ماردا وقد حذر السيارة من المضي ففهمت عنه.. كان صريحا فيما قاله لها، اذهب وأرجو لك السلامة».

فابتسم الرجل ودعاه إلى النزول، واتخذ مكانه.. وصعد بنا إلى رأس التل، ولم يكتف بذلك بل ظل معنا — على مسافة منا.. وراءنا — حتى فرغنا من المرتفعات، وصار الطريق بعد ذلك سهلا منبسطا، فشكرناه ولكن أي شكر يمكن أن يفى بحسن صنيعه ومروءته؟

وكان مساء.. ثم كان صباح.

ولم يكن النهار قد ارتفع ولا كانت الشمس قد علت، لما دخلت على «فرحة» توقظني قبل موعدي المألوف بساعتين، وتخبرني أن أختي تصيح علىّ وتدعوني إليها في غرفتها. وقد عجبت، وحق لي أن أعجب.. فما أعرف موجبا لإزعاجي في مثل هذه الساعة المبكرة — الساعة من فضلك — ومع أختي زوجها، فما حاجتها إليّ؟ وقد حاولت أن أهمل هذه الدعوة، ولكن «فرحة» أبت أن تمضى عنى وتدعنى أستأنف النوم.. فتمطيت وفركت عيني وتثاءبت وقلت لها: «ماذا هناك يا فرحة»؟

فقلت بلهجتها الهادئة المطمئنة وصوتها المتزن النبرات الذى لا أذكر أنه ارتفع عن هذه الطبقة مرة واحدة في عشرين عاما قضتها معنا مذ كانت طفلة: «إن الأمر يستدعى وجودك».

وفرحة عاقلة ذكية وحريصة دقيقة العبارة، قد رباها أبى مع أختي وعنى بتعليمها أيضا، وجعل لها حصة في الوقف الذى وقفه قبل وفاته. وكانت هذه مفاجأة سارة لنا، فقد أحببنا فرحة حب الأخت. وكانت هى — وما زالت — ربة البيت. ولسنا نعاملها معاملة الخدم وإنما نعددها واحدة منا لها علينا مثل الذى لنا عليها. وحسبك منها، أنها ما أخذت في حياتها معنا أجرا على خدمة، وأنها بعد وفاة أبيتنا لم تحاسبنا قط على ريع حصتها وإن كنا نودعه البنك باسمها.. فإذا أرادت ثوبا أو خاتما أو غير ذلك طلبته منا، كما يمكن أن تطلبه أختي منى أو من زوجها. فإذا كانت تقول الآن أن الأمر يستدعى وجودى، فقد صار القيام لابد منه.

ودخلت على أختي وورائى فرحة، فألفيتها مستلقية على السرير في منامة قرمزية مزركشة ومعتمدة بكوعها على وسادة وثيرة مربعة محشوة بريش النعام وخدها على راحتها ويسراها على فخذها وبين أصبعيها سيجارة.. وكان منظرها فاتنا فإنها جميلة ممشوقة، وكانت هذه الرقدة تبرز خطوط جسمها الرشيق وبراعة الانحناءات فيه.. وكان زوجها قاعدا فوق السجادة، فنظرت منها إليه وقلت: «لا عجب أن تدللها.. لست بإنسان إذا لم تفعل».

فابتسمت مسرورة وأدنتنى منها وقبلتني، وقالت: «اجلس هنا.. إلى جانبي على السرير.. وأنت يا فرحة.. قصى عليهم الحكاية» فأراحت فرحة أناملها على شبك السرير وأشارت بيدها الأخرى إلى منضدة صغيرة قريبة وقالت: «قبل أن أترك الغرفة وضعت بيدي عقدها — وأشارت إلى أختي — على هذه المنضدة، وفي الصباح دخلت عليها فلم أجده. وسألته عنه فقالت إنه في مكانه، فذهبت إلى البك — تعنى زوجها فإن

فرحة مؤدبة — وسألته فجعل يضحك ويتحسس عنقه ويقول إنه ليس هنا.. هذه هي الحكاية».

فقلت متمما لها كلامها: «فجئتم بشرلوك هولمز ليحل اللغز ويضع يده على اللص.. أشكر لكم هذه الثقة العظيمة».

فقلت أختي، وهي تضحك: «العفو.. الواقع أن كل ما أذكره هو أنى قمت بالليل، وغبت عن الغرفة دقائق، ومررت في عودتى بغرفة هذا الزوج الصالح.. ولكن شخيره كان عاليا فهربت».

فنهض ابن عمى محتجا وقال وهو يتمشى: «شخيري.. هل تريدان أن تقولى إنك أفردت لى غرفة من أجل شخيري.. شخيري.. لبيتك ترين نفسك فى المرآه وأنت نائمه. إذن لرأيت كيف ترمين اللحاف وتضربين برجلك هنا وبيدك هناك، كالأطفال بلا أدنى فرق. لقد تزوجت طفلة حين تزوجتك.. تقول شخيري.. مثل هذا الطعن القبيح على سيدها وتاج رأسها، هل يليق يا فرحة»؟

فابتسمت فرحة ولم تقل شيئا. وماذا عساها تقول، وشخيره يزعم الجيران حتى لقد جلا السكان عن هذا الحى، وخربت بيوت أصحاب العمائر فيه.

... وانتهت ضجة الضحك أخيرا — ولكل شىء آخر — فقلت: «ماذا كان شرلوك هولمز خليقا أن يصنع فى مثل هذه الحالة»؟

فصاح بى ابن عمى: «دع الفلسفة من فضلك.. الأمر واضح.. البيت موصل من كل ناحية والمنافذ كلها مسدودة، فالذى أخذ العقد لم يجئ من الخارج وإنما هو ولا شك واحد ممن فى البيت».

فصحنا جميعا — ما عدا فرحة فإنها مؤدبة.. «برافو.. برافو..» فلم يعبأ بنا ومضى يقول: «الجديد علينا هو ابن العمدة.. فهو السارق».

فلما نطق بهذا، صحنا به جميعا — حتى فرحة وإن كانت مؤدبة — فلم ينهزم، وقال وهو يعود إلى الجلوس على الحشية: «لا بأس.. ولا داعى للصياح.. المسألة بسيطة،

إذا لم يكن هو اللص فمن عسى أن يكون غيره»؟

فقلت: «أنت مثلا.. لم لا»؟

فقهقه، فقلت: «ألا يمكن أن تكون قد أخذته لتضعه فى مكان أمين ثم نسيته كعادتك؟ إنك هكذا وأنت تعرف ما يكلفنا نسيانك. قم انظر أين وضعت العقد، واذكر الأسفنجة.. قبل أن تعترض وتحتج.. قم من فضلك».

فقلت أختي وهى تعتدل في مجلسها: «يا سليم.. إني لم أخطئ حين أزعتك.. كلا، وأنا الآن واثقة أن ابن العم قد نسى أين وضعه».

فصاح بها محتجا: «ولكنى يا ستي لم أدخل غرفتك.. ودعتك — أعنى قبلتك ولا مؤاخذه يا سليم، فهذه عادة الأزواج — ثم لم أعد.. فكيف يمكن أن أكون قد أخذته؟»

فقلت وهى تقف: «تذكر.. حاول أن تتذكر..».

وزدت أنا على قولها: «جرب مرة واحدة أن تكلف هذا الرأس عملا.. لا تخف أن تتعب».

فمضى عنا إلى الباب وهو يقول: «إنى زاهب إلى الحمام..».

وهنا ينبغى أن أقول إن العقد الذي غاب مما ورثناه عن أمي، وهو من اللؤلؤ النفيس.. وكانت حياته نحو مائتين، وأكثرها من الكبار في حجم الفولة، وقد رأينا أن نجعل منه عقدا واحدا صغيرا أعطيناه لفرحة، وبقي الكبير وآخر صغير لأختي.. فكانت إذا لبست أحدهما تلفه على نحرها الجميل، فغير معقول أن يسرق منها وهو على نحرها. على أن الأمر لا محل فيه للتخمين، فقد قالت فرحة إنها وضعت على المنضدة.. وفرحة صادقة، ثم أن ذاكرتها لا تخونها أو تعابثها كما تعابث ابن عمي — أحمد — ذاكرته. ولم يكن أسخف من قوله — وإن كان يمزح على عادته — إن ابن العمدة «حسن» هو الوحيد الذي تتجه إليه التهمة، فإن «حسنا» هذا من سراة الناس، وهو فوق ذلك من أقرباء أحمد الأذنين. وقد ذكرت ذلك لأريك إلي أي حد يذهب أحمد في مزاحه.

ولا أحتاج أن أقول إننا استقبلنا يومنا مكتئبين مهمومين محزونين، فإن للعقد قيمته الذاتية والمعنوية.. وقد كنا نتكلف المرح ونبدى صفحة البشر ونتلقى الأمر بما يشبه الاستخفاف، لأننا اعتدنا أن نواجه الأمور على هذا النحو، وربانا أبوانا على الجلد وضبط الإحساس. أما أحمد فكان بطبيعته هزالا يركب الحياة بالدعابة والبشاشة والعبث، وقد أحبنا وأحببناه وأنس بنا وأنسنا به، فعاش معنا وأثر بيتنا على بيت أبويه، وانتهى الأمر بما كان لابد أن ينتهي به — أي أن يتزوج أختي — ولست أعرف أسرة أخرى تعيش هذه العيشة السعيدة الرغيدة. وحسبك أن المال موفور وأن الطباع رضية والأمزجة متطابقة.

ومن عادة أحمد أن يغنى وهو في الحمام. ولست أعنى أنه يغنى الأصوات الشائعة، وإنما أعنى أنه وهو في الحمام يصف كل ما يعمل، ويرفع الصوت بالغناء بهذا الوصف..

فإذا كنت على مقربة من الحمام لم يسعك إلا أن تسمعه يقول — أو يغنى على الأصح: «أين الأسفنجة يا سيدي.. لابد أن تكون هذه الزوجة المهمة قد ضيعتها.. ومن يدري يا حبيبي.. فعلها خبأتها عمدا.. آه يا روعي.. وأين الكبريت.. أظنني نسيتته.. هذا خازوق يا حبيبي.. وكيف أسخن الماء الآن؟ يا لعنة الله انزلي على رأس الذي اخترع التدفئة بالغاز.. آه يا عيني.. والله وحسه.. نجد الكبريت فلا نجد القرش الذي نضعه في الثقب لينطلق الغاز.. ويسخن الماء فلا نجد الأسفنجة.. وأجد كل ذلك وأنا في الحوض، ويبدأ الشعور بالراحة وإذا بالغاز قد فرغ. وأخذ الماء يبرد.. ويجب أن أخرج من الحوض لأضع قرشا آخر في الثقب وأبحث عن الكبريت.. والكبريت مبلول.. معلوم يا سيدي.. أو الكبريت فرغ.. طبعي.. أصيح.. ومن يسمع.. ألبس البرنس وأخرج لأجيب بكبريت.. خازوق آخر يا حبيبي.. لقد سيبت الغاز مفتوحا.. فالحمام كله غاز.. وستخنتق يا ولد إذا لم تفتح النافذة.. افتح يا سيدي وابد.. ووح يا حبيبي من البرد.. الذي سمى هذا حماما كان ولا شك ابن حرام».

وهكذا إلى غير نهاية.. ومن تحصيل الحاصل أن أقول إننا اعتدنا أن نقف قرب الحمام كلما دخل فيه أحمد لنعرف ما يجري فيه، فنقع على الأرض من كثرة الضحك. ولا بد أن يحدث له شيء لا يحدث لسواه، لأنه كما أسلفت سريع النسيان.. ينسى أين وضع الإسفنجة وأنه رمى الكبريت في الحوض، وينسى أنه نسي أن يجيء معه بقروش ليضعها في الثقب.. فإنه يبقى في الحوض ساعة وساعتين وهكذا. ولولا أنه نساء لعابثناه عامدين لنضحك، ولكنه أغنانا عن ذلك.

وكان حسن قد استيقظ ونهض ليلحق بنا ويجلس معنا، فألفانا عند الحمام واقفين وإن كانت المقاعد في الدهليز، فحيا بيده.. فأشرنا إليه أن اسكت.. ورآنا نبتسم وأحس من هيئتنا أننا نتسمع، فمشى على أطراف أصابعه ووقف معنا يصغى أيضا، وكان أحمد يقول: «العقد ضاع.. قال ضاع.. كلام فارغ يا حبيبي.. والله ما أخذه إلا هذا الحرامي الذي نزل في ضيافتنا.. بالطبع سرقه في عمر أمه ما رأت مثله الأقارب عقارب يا سيدي.. ضاع العقد يا ستي.. أنا المسكين يا حبيبي.. هات لي عقد غيره يا سيدي.. طبعا يا ماما.. من يدري.. لعل العقد لم يضع.. أيوه يا سيدي.. لم يضع.. الأرجح.. والمعقول أن يكون في الدولاب.. أخفته الزوجة الصالحة لأشترى لها عقدا سواه.. النسوان ملاعين يا روعي.. قالوا العقد ضاع.. ضاع فين يا أهل القونطة، لا يا ستي العقد في الدولاب، والغرض مرض».

وكان يبدئ ويعيد في هذه المعانى.. فأما حسن فلم يفهم وكان ينظر منى إلى أختى، وكان يرانا نضح فيتكلف الضحك مثلنا.. وأما أختى فضحكت أولاً ثم لما سمعته يتهمها بأنها خبأت العقد لتطالبه بحلية.. تجهمت، فشددت على ذراعها، فنظرت إلى مبتسمة وهزت رأسها، وعاد إلى وجهها الإشراق.. ولكنها لم يسعها إلا أن تقول لنا ونحن نمضى عن الحمام قبل أن يخرج هو علينا: «شف.. ينسى أين وضع العقد ثم يدعى أنى خبأته.. طيب..».

وقال حسن: «ألا تقول ما هى الحكاية»؟

فضحكت، وقلت: «الحكاية باختصار إن أختى لا تجد عقدها.. وأحمد يتهمك بسرقة العقد.. لقد سمعته بأذنك.. والآن أفهمت»؟

وكانت هذه صدمة، فإن معرفة حسن بأحمد يسيرة، وإن كان من أقاربه الأدين.. ولكنه احتمل هذه الصدمة، وأسرعنا نحن فعرفناه بأساليب قريبه، فضحك معنا. ولكنه مع ذلك صار يطرق من حين إلى حين.

وخرج أحمد أخيراً ودخل علينا وفى يده صحيفة يتأملها وينظر إلى الصور التى فيها فما كانت له عناية بقراءة الصحف. وجلس إلى المائدة وأدار عينه فيما عليها، ثم سأل: «ماذا أعددت لنا يا امرأة»؟

فاغتنمت أختى هذه الفرصة، وصاحت: «ألا تنتظر حتى يستعد الباقون للأكل؟ ما هذه الشراهة؟ ثم كيف تزعم أنى أخفيت العقد لتشتري لى سواه»؟

فقال ببطء: «الجواب على السؤال الأول بالنفى.. النفى البات.. أما الشرط الثانى من السؤال، فإن الرد عليه يكون بعد الأكل.. فإنه يحتاج إلى عقل، والعقل يذهب به الجوع». فعادت تصيح به: «ولكن كيف تجرؤ»؟

فقال بهدوء: «من الغريب أنى جئت إلى هنا لأكل لا لأتكلم أولاً يا امرأة». فقالت: «هل عنيت بالبحث فى ثيابك؟ بالطبع لم تعن..».

فالتفت إلى حسن، وقال: «شف يا حسن.. شف.. احذر يا ابنى أن تتزوج.. لا عذر لك وقد رأيت بعينك ما تصنع الزوجات ببعولتهن».

فقال حسن: «أظن أنى سأتزوج.. وعلى فكرة كيف تسمح لنفسك أن تتهمنى بالسرقة»؟

فرفع أحمد يديه إلى السماء، ثم التفت إلى حسن وقال: «وأنت أيضاً؟ لم يبق لى عيش فى هذا البيت.. فلأرحل». ونهض، وقال: «يا امرأة، إنى فى المكتب».

لم ندع مكانا في البيت إلا بحثنا فيه، ولا ثوبا في خزانة أحمد إلا نفضناه وقلبنا جيوبه.. حتى السجاجيد رفعناها ونظرنا تحتها.. حتى الستائر نحيناها وأجلنا عيوننا فيما وراءها وفيها أيضا مخافة أن يكون حبل العقد قد علق بشيء منها. فلم نجد عقدا ولا حبة من عقد، فيئسنا وحل الاكتئاب محل البشر، فقد كنا إلى ما قبل ذلك نعتقد أن العقد موجود في مكان ما ولكن أعيننا لا تراه. وقد أعدنا البحث مرة أخرى لظننا وتوهمنا أننا تخطيناه بعيوننا ونحن ندبرها كما هي العادة في حالة الاضطراب. ولم يكن أحمد يعطينا من مزاحه في خلال هذا البحث المتعب.. فلما كففنا، قال وهو يضطجع ويشعل سيجارته: «لا فائدة.. لقد كنت أعلم من أول الأمر أن لا فائدة.. قلت لكم مائة مرة أن هذه الزوجة تعرف أين يوجد العقد.. نعم، هي خبأته». فصاحت به: «ألا يمكن أن تسكت»؟

فقال: «أسكت كيف.. وأنت تحملينا كل هذه المشاق من أجل خرزات»؟.. ولم يتمها.. فقد هجنا به احتجاجا على وصف حبات اللؤلؤ بأنها خرزات. ولما هدأت الضجة، قالت أختي: «اسمعوا.. إنى لم أعد أطيق البقاء هذا النهار في البيت، فلنذهب إلى أي مكان آخر ولننغد هناك».

وكان هذا اقتراحا حسنا، فإن بقاءنا في البيت كان خليقا بأن يغرينا باستئناف البحث مرة وأخرى، فنشقى على غير جدوى. فمن الخير أن نخرج وأن نقضى النهار في مكان آخر ثم نعود.. ومن يدري؟ فقد نجد العقد تحت عيوننا حين نعود كما يحدث كثيرا. وما زلت أذكر كيف كنت أبحث مرة عن قلمي وكانت أختي معي، فلما تعبنا جلسنا على الكراسى وهممت بأن أخرج سيجارة وإذا بالقلم بين أصابعي.. ومن الغريب أن أختي لم تره في يدي كما لم أراه. وقد ذكرت أختي بهذه الحكاية أو الحادثة، وفي مرجوى.. أن أبعث في نفسها الأمل، فلا تقضى النهار يائسة، وإن كانت تتشجع وتتجدد ولا تبدى جزعا.

وقمت إلى حمامي على حين راح غيرى يلبس الثياب استعدادا للخروج.. وكان طبيعيا أن يفرغوا من شأنهم قبلي وأن يستبطنوني، فإني أنا في حركة دائمة في الحمام، وهم لا يصنعون شيئا بعد أن لبسوا الثياب ووقفوا ينتظرون.. وليس أشد على المضطرب القلق من الانتظار. فأقبلوا على باب الحمام يدقون عليه بأيديهم وينقرون بأصابعهم، ويدعونني أن أسرع..

وأخيرا خرجت.. فما يمكن أن تكون لمستحم راحة أو لذة وعلى باب من يصيحون به ويُسْمعونه ما يكره، فلحقوا بي في غرفتي ولكنى أخرجتهم منها بجهد.. فإني

مستعد أن أحتمل كل شيء إلا أن يحيط بى هؤلاء الصائحون الصاخبون وأنا ألبس. على أنى أسرع وعجلت لأنقى شر هجومهم على كرة أخرى، وكانت ساقى لا تزال أحسها ثقيلة مما أصابها فى السويس وهاضها، وإن كانت لا تؤلمنى. فلما صرت إليهم فى الردهة وقفت هنيهة أدعكها بكفى لالينها، فسألتنى أختى: «ألا تزال تؤلمك؟» قلت: «كلا.. لا ألم ولكنى أحسها ثقيلة».

فقال ابن عمى: «كلك ثقيل يا أختى.. تعال».

فقلت: «ولكنى حقيقة أشعر أنها أثقل مما كانت أمس».

فقلت أختى: «طبيعى.. هذا من الجهد الذى تكلفته اليوم فى البحث».

فاقتنعت ونزلنا إلى الباب، وكان ابن عمى قد جاء بالسيارة قبل ذلك وتركها أمام الباب، فجلست أختى ومعها حسن على المقعد الخلفى، واتخذ أحمد مكان القيادة، وقلت له وأنا أفتح الباب الآخر لأجلس إلى جانبه: «لعل درس الأمس نفعك، فلا تكرر أخطاءك المعتادة».

فزام أولاً، ثم قال: «ولكن إذا كنتم تريدون أن أشرفكم بتولى القيادة العامة.. أفلا يحسن أن أعرف إلى أين يراد منى أن أحملكم؟»

فقلت أختى: «أوه.. إلى أى مكان.. إلى القناطر الخيرية إذا شئت أو إلى أى مكان تحب».

قال حسن: «إلى القناطر إذن. اركب يا هذا.. أم تريد أن أنزل وأحملك؟»

وكان الركوب يحوجنى أن أحمل ساقى بيدى، لأن ثنيها كان يؤلمنى فى موضع الركبة.. فجلست على المقعد ووجهى إلى الباب وملت على ساقى وهى ممدودة لأحملها وأدور بها لأدخلها فى السيارة. ثم ارتددت ضاحكا، فسألتنى أختى عن الخبر، فقال لها زوجها: «دعيه.. إنه يحلم. لا يزال نائما.. ألا تريدان؟.. أعنى ألا تسمعين؟»

فمسحت أولاً الدموع التى ترقرت فى عيني من فرط الضحك، ثم مسحت بطنى التى صارت توجعنى.. ثم تنهدت وقلت: «أخ.. مسألة ظريفة جدا».

فقلت أختى: «ولكن ما هى الحكاية؟ أنظن أن من اللائق أن نقف ساعة أمام الباب؟»

قلت: «أظن أن الواجب أن ندخل.. نعود إلى البيت دقائق قبل أن نخرج إلى رحلتنا».

فنهضت أختى عن مقعدها قليلا وزحفت إلى الأمام مقدار شبر ووضعت كفها البضة على كتفى، وقالت: «لا تعذبني انطق». قلت: «لا حاجة بى إلى الكلام.. خذى».

وانحنيت فأخرجت العقد المفقود من طية البنطلون عند حرفه، ورفعته إلى عينها وقلت: «لقد كنت أظن أن ساقى اليوم أسوأ مما كانت أمس لأنى أحسها أثقل.. فالآن عرفت السبب، ولكنى لا أعرف كيف سقط العقد في طية البنطلون».

ولا أزال إلى الآن أجهل كيف أمكن أن يحدث هذا، وإنما الذى أعرفه أن أختى نعمت في يومها هذا، وأن ابن عمى حاول أن يركبنى بعبثه المألوف.. فوضعت كفها على فمه، فقبل أصابعها، ثم عضها، فصرخت. فقال: «هذا جزاء من يدافع عن السراق واللصوص والخونة!»

الفصل الخامس

الجاراة

كثيرا ما أطلب العزلة والهرب من الناس لا لأنى أكرههم أو أنفر منهم، بل ليتسنى لى أن أخلو بنفسى وخواطرى. ولست أعنى أنى أشتهى أن أكون فى مكان خلاء.. وأنما أعنى أنه يحلو لى أحيانا أن أرى أن كل من حولى ممن لا أعرف. ولا أدرى كيف هذا.. ولكنه يخيل لى حين يتفق لى ذلك، أنى خلعت ثيابى على ساحل بحر ورميت نفسى على مائه ورحت أسبح فيه، وأضرب بذراعى ورجلى، وأفعل غير ذلك مما يفعل السابح. وما أعرف من السباحة شيئا.. وأنى لشبيهه بابن الرومى الشاعر الذى يقول فى بعض شعره إنه لم يتعلم من السباحة سوى «الغوص» وأنه لو ألقى به فى الماء لسبق الحجر. ولكن هذه هى الصورة التى ترتسم بذهنى حين أرانى فى حشد كبير ممن لا أعرف من الخلق. وكثرا ما يسألنى أخوانى: «أين كنت البارحة؟» فأقول: «كنت فى السينما» فيسألوننى: «وحدك؟» فأقول: «نعم مع الأسف» ولا داعى للأسف، ولكنى أقول ذلك لهم على سبيل المجاملة، فيقول قائلهم: «ولم لم تخبرنا؟.. إذن لذهبنا معك وأنس بعضنا ببعض» فأقول: «أى والله.. ولكن هذا هو الذى كان، فلندعه لى الحاضر الذى نحن فيه».

وفى نوبة من هذه النوبات، ركبت سيارتى وانطلقت بها لى سينما «المتروبول» وأنا أحدث نفسى بما أرجو أن أفيده من السرور والمتعة حين أرى تلك الطفلة الفاتنة «شيرلى تمبل» من غير أن يكون لى جانبى أحد يقول لى: «انظر.. يا سلام أما إنها لراقصة.. يا للبراعة. كيف استطاعت أن تجيد التمثيل لى هذا الحد؟ ترى كم ينقدونها أجزا لها فى الأسبوع؟».. لى آخر هذا الهذر الفارغ الذى يفسد على كل متعة.

ووقفت أمام الشباك ومددت يدى لى الفتاة بثمن التذكرة، وإذا بيدى على كفتى.. فأبيت أن ألتفت إلا بعد أن أخذ التذكرة، ويحل غيرى محلى أمام الشباك مخافة أن يكون هذا صديقا فيلازمنى، وماذا يبقى لى حينئذ من الوحدة التى أطلبها وأحدث

نفسى بحلاوتها. ومن يدري أى صديق هذا؟ فقد يكون ممن أحب وأنس بهم وأرتاح إليهم، وقد يتفق أن يكون من الثقلاء الذين يفرضون أنفسهم على الناس، فلا مهرب لمن يقعون عليه. وأحسست أنى نجوت فقد اخترت مقعدا بين مقاعد أخرى ليس واحد منها خاليا، فأنا على الأقل فى أمان من جيرة هذا الذى وضع كفه على كتفى. ووسعنى أن ألتفت إليه وأنا مطمئن لأرى أى أنسان هو.. فلم يخب ظنى، فقد كان ممن ينبغى أن يهرب المرء منهم ويسأل الله السلامة من صحبتهم، فسألنى: «وحدك؟ فكرهت أن أكذب واكتفيت بأن أشرب بيدي، وأنا أمضى عنه، إشارة قد يكون معناها أن معى غيرى أو أنى ناهب إلى مكان ما أو غير ذلك، مما يمكن أن يفهمه الإنسان من إشارة غامضة كهذه.

ونجوت بنفسى، وكان فى الوقت متسع.. فقلت لنفسى: إنى أخشى أن يلحق بى فلأبعد. فرحت أتمشى على الرصيف فى شارع فؤاد — وهو يغص بالناس فى مثل هذه الساعة — فجعلت أنظر إلى الرائحين والغادين أو لعل لأصح أن أقول الرائحات والغاديات وهن مقبلات ومدبرات فى ثيابهن المحبوكة التفصيل. التى تبدى منهن أكثر مما تستر. نعم تستر الجسم، ولكنها تعرض على عينك صورة للقوام هى أبرع من صورة البدن العارى. فقد يكون الثدى مسترخيا فيرفعه ويبرزه الرباط، وقد يكون الخصر أكثر امتلاء مما يجب.. فيرده حسن التفصيل أهيف ويبرز من تحته الردفين. ولم أزل أتمشى حتى أن أن أعود، وإذا فتاة أعرف وجهها ولا أجهل أين بيتها، فإنه قريب من بيتى.. وكثيرا ما رأيتها فى شرفتها أو داخله أو خارجه من البيت أو نازلة من الترام. وأحسبها تعرفنى كما أعرفها، فقد لفتت وجهها وأطالت النظر إلى — فى عيني — فبيننا معرفة يسهل جدا أن تصبح وثيقة فى أوجز وقت، إذا أمكن أن يفتح أحدنا فمه بكلمة. ولكن من هو الذى ينبغى أن يبدأ؟ أما أنا فإنه من العسير على — بل من المستحيل كما تبينت ذلك بالتجربة المرة — أن أبدأ إنسانا لا أعرفه بكلام، رجلا كان أو امرأة. وقد خطر لى وهى تنظر إلى — لا بل تحديق فى وجهى — أن فى وسعى على الأقل أن أبتسم. ولم لا؟ إن الابتسامة تحية ضريفة، فإذا قابلتها بمثلها انتهى الأمر، واستطعت أن أنتقل أو أترقى إلى الكلام. وإذا أغضت عنها كأنها لم ترها، ففى مقدورى أن أعزى نفسى بأنها خجلت أو أنها خشيت ألا تكون هى المقصودة بها. وإذا قابلتها بالعبوس أو غير ذلك من مظاهر الامتعاض والنفور، ففى إمكانى أن أزعم لنفسى مغالطا أنى لم أكن أعنيها حين تبسمت، وأن أهز كتفى استخفافا بها كأنما أريد

أن أقول إنها ليست المرأة الوحيدة في هذه الدنيا، وإنها ليست أجمل الفتيات، وإنها حرة.. ولها إذا شاءت أن ترفض نعمة الاتصال بى.

دار كل هذا بخاطرى، وأنا أنظر إليها وهى تنظر إلى، وكان ينبغى أن أتبسم.. فما فى ذلك بأس، ولكننى لفرط شعورى بنفسى خشيت أن أبدو كالأبله، ووددت فى هذه اللحظة لو أن معى مرآة فأنظر فيها إلى وجهى، وأرى كيف يكون حين أبتسم لفتاة لا أعرفها. ولكنى أرجو أن تفتنها الابتسامة وتغريها بمثلها — على سبيل التجربة — وأين المرأة؟ ومتى كان الرجال يحملون المرايا معهم كالنساء؟ وهب مع الرجل مرآة، فهل يستطيع أن يخرجها ويتأمل وجهه فيها ويروح يبتسم وحده وهو يفعل ذلك كالمجنون!

وزهدت الفتاة وغابت عن عيني، وأنا أحدث نفسى بهذه السخافات.. وضاعت الفرصة وأزف الوقت، فعدت إلى السينما وأنا أقول لنفسى: «ألم يكن فى وسعى أن أدنو منها وأقول لها مثلاً إننا جاران من قديم أو كلاماً آخر كهذا ... كلاماً أبرع من هذا وألطف وأوقع فى النفس فإن كونها على طريقى إلى البيت لا يستوجب أن تعرفنى وأعرفها؟»

وزهدت أنشئ أحاديث وأتخيل حواراً بينى وبينها من أظرف وأرق ما يمكن أن يخطر على البال، وكنت وأنا أتخيل ذلك أحس أن وجهى ترتسم عليه المعانى التى تدور فى نفسى.. فخبجت وخفت أن يرى الناس ذلك منى فيتعجبوا ويشكوا فى عقلى — أعنى فى صحته — وكنت قد بلغت المدخل، فدفعت «التذكرة» إلى العامل فتقدمنى ووقف عند صف، وأشار إلى موضع الكرسي وقال: «السادس» فسألته على سبيل التثبيت: «الثالث؟» قال: «لا. لا. لا.. السادس..» فاستأذنت الجالسين ودخلت بظهرى — أعنى أن ظهرى كان إليهم وأنا أخطو أمامهم متحرزا — فلم أر وجوههم ثم جلست وبدأت أتلفت، فما راعنى إلا أن الفتاة جالسة إلى جانبي..

ولا أدرى لماذا فزعت.. وقد كان المعقول أن يسرنى هذا لأنه يتيح لى فرصة جديدة، فقد تلتقى يدي بيدها أو تقع رجلى على رجلها فأعترى بأدب وأعرب لها عن الأسف فيفتح باب الكلام الموصل. أو قد تضحكننا «شيرلى» بنكاتهما أو بحسن أدائها فالتفت إلى جارتى فأراها تضحك مثلى، ويمنعها السرور فى هذه اللحظة السعيدة أن تعبس أو تقابلنى بالجفوة. ولكنى فزعت كما قلت ولم أشعر بسرور. وإنما كان فزعى لأنى توقعته أن أعجز عن اغتنام هذه الفرصة الطويلة — وهى إذا ضاعت لا يمكن أن تعود

— فأروح أوسع نفسى بعد ذلك تأنيبا وتقريرا وذما وهجاء. وأدرت عيني في المكان لأرى هل فيه من يعرفنى.. أو على الأصح من أعرفه أنا؟ فإن من عوامل التشجيع أن يشعر المرء أنه غير معروف، وخجل المرء ممن يعرف أقوى من خجله ممن لا يعرف في مثل هذه المواقف.. على أنى لست على يقين من هذا، فقد يكون وجود الإخوان دافعا إلى الجرأة، والإنسان لا يسره أن يعرف أصدقاؤه أنه جبان.

ولم أر وجهها أعرفه، فأخرجت سيجارة وأشعلتها، ورحت أذخن. وخطر لى وأنا أفعل هذا أنه يحسن أن أستأذنها.. فلعلها لا تحتلم الدخان، وهذا أدب لا ضير منه، ثم أنه مألوف. ولكن الوسواس لم تترك لى راحة. فقد قلت لنفسى إنى أستطيع أن أستاذن أى فتاة أخرى فلا تستغرب ولا تستريب، أما هذه فإنها خليقة أن تتوهم أنى أتحكك بها وأحتال للكلام معها. ثم عدت فقلت لنفسى إنى أريد أن أكلمها، وما أظن بها إلا أنها تعرف ذلك. نظرتى إليها تشى بهذه الرغبة. ولماذا لا أكلمها؟ أى بأس هناك فى ذلك؟ ولماذا أقدر أن يسوءها كلامى؟ ومن يدرينى أنها لا ترغب فى كلامى؟ ولكن ماذا بالله يدعوها إلى الرغبة فى قزم دميم الخلقه مثلى؟ سخافة... كلا، لست دميمة إلى هذا الحد المنفر، ثم إن رأى المرأة فى الجمال غير رأى الرجل.. أوهوهو.. لقد وصلت إلى الكلام فى الجمال. أما إنى والله.. لسخيف..

وضحكت.. فالتفتت إلى مستغربة، فليس من المألوف أن يضحك العاقل وحده ومن غير أن يكون هناك ما يوجب الضحك. فلها العذر إذا كانت قد استغربت.. ووجمت أنا، وخيل إلى أنها تنحت قليلا. ومن المحقق على كل حال أنها لمست طرف المعطف وكان متدليا، فجعلته على فخذاها. فسخطت على نفسى وصببت وجهى فى قالب صارم من الجذ، وجعلت عيني إلى الستار لا أحولها عنه.

وبدأت الرواية ووضعت كوعى على المسند — عفوا — وكانت كفها عليها أيضا.. فلمسها كمي، فجدبت يدي وتمتمت بألفاظ أعتذر لم أسمعها أنا، فكيف بها؟ ولم يسعنى إلا أن أضع يدي على ساقى. ولم أعد أرى أو أسمع شيئا من الرواية. وكانت نفسى تقول لى بصوت غليظ فيما أحس: «إنك بليد.. هذا أنت.. وحمار أيضا.. أين جرأتك؟ لماذا تجفل من هذه الفتاة الوديعه التى تتوقع منك أن تكلمها التى وطنت نفسها على ذلك واستراحت إليه؟ هل بلغ من سخافتك وجبنك أن تتوقع أن تبدأك هى بالكلام؟ اجترئى يا شيخ، لقد كان أجدادك الأولون يخطفون النساء خطفا ولا يبألون شيئا، وكان النساء يسرهن ذلك. وقد ذهب الخطف بالقوة، ولكنه بقى — وسيظل

باقيا — أن المرأة تنتظر من الرجل أن يهاجمها، بالكلام — على الأقل — ثم بعد ذلك بالقبل والضمات والعناق».

فقلت لها: «استحى يا نفس.. إننا فى سينما.. وهذا الكلام.. هذا التحريض على الأعمال الفاضحة لا يليق.. إننى رجل متمدين ولست وحشا كما كان آبائى».

فسخرت منى نفسى، وضحكت.. نعم ضحكت الملعونة ضحك السخر والزراية.. فكدت أجن، ولكنها لم تعباً بذلك وذهبت تقول: «أين المدنية؟ سبحان الله العظيم! وهل المدنية تمنع أنك إنسان وأن شعورك بالمرأة هو نفس شعور جدك الأعلى الذى كان يسكن الكهوف والغيران؟ أو تخشى أن تغضبها بالتطفل عليها؟ فاعلم أن المرأة إنما يغضبها أن ترى الرجل بليدا جباناً.. هذه يدها على مسند الكرسي فضع يدك عليها. نعم لا تخف.. وماذا تخاف؟ إنها لن تأكلك، بل ستترك كفها تحت كفك وتنعم بملامستك لها ... أذن ساقك من ساقها.. انقل إليها بعض الحرارة التى فى جوفك. قرب فمك من خدها.. يا له من خد أسيل.. هل رأيت أحلى منه؟ دع أنفاسك تصافح هذا الخد. قد انتهى الفصل الذى لم تر منه شيئاً وأضيئت الأنوار، فادع هذا البائع واشتر منه قطعتين من الشكولاتة المتلوجة وقدم لها واحدة وتبسم تبسم ياشيخ هل أنت قطعة من جليد القطب الشمالى».

ولكنى استحييت أن أفعل ما تشير به هذه النفس.. فظلت تقرعنى طول الفصل الثانى وتفسد على قصة «شيرلى».

وانتهت الرواية، فنهض الناس ونهضت.. وأولتنى الفتاة وجهها، فأفسحت لها لتخرج قبلى، فقالت «مرسى» فابتسمت ابتسامة عوجاء وتحركت شفتاى، ثم فتح الله على فقلت لسخافتى: «تفضلى» فابتسمت وقالت مرة أخرى: «مرسى» والخطوة الأولى هى الصعبة، كل شىء يسهل بعدها.. فلا غرابة إذا كنت وجدت لسانى الذى كأنما كانت به عقلة، فقلت لها: «أظن أننا جاران» قالت وهى تضحك: «أظن ذلك».

قلت: «إذا كان طريقك إلى البيت، فإن معى سيارة صغيرة تحملنى.. فإذا خربت حملتها أنا».

قالت: «أعرفها.. لا تطعن عليها.. رأيته فيها كثيراً».

قلت: «سنجد السيارة ترقص» قالت: «ولماذا ترقص؟» قلت: «طرباً.. ألسنتى تتنين عليها؟ ليتنى أنا السيارة».

وفتحت لها بابها وقلت لنفسى وأنا أدور إلى الباب الآخر: «أرأيت؟ إن أساليب المتوحشين لا تصلح لهذا الزمان.. إنك نفس قديمة.. عتيقة».

في الطريق

فقهت اللعينة وقالت: «لولا درسى! على كل حال العبرة بالخواتيم».

الفصل السادس

البحث عن الذهب

وجدت صديقى ينتظرنى — كما وعد — فدخلنا معا وجلسنا متقابلين إلى مائة صغيرة، وبدأنا بأيدينا ففركناها.. فقد كان البرد شديدا، وكان كلانا قد خلع المعطف والطربوش، وكانت الحجرة دافئة ولكنه لم يكن قد مضى من الوقت ما يكفى لانتقال الدفء إلى أبداننا. ثم أكب صاحبى على البيان الذى فيه ألوان الطعام، وجعل يسردها لى لأتخير ما يطيب لى منها. وفرغنا من ذلك بعد طول التردد، وانصرف العامل بدفتره الذى دون فيه ما طلبنا، فقال صديقى وهو يميل على المائدة: «والآن ما العمل؟»

قلت: «هذا هو السؤال الأبدى.. وما أظن بنا إلا أننا سنظل نسأل عن ذلك طول العمر — طال أم قصر — المسألة مسألة حظ يا صاحبى».

فقال: «كلا.. لابد أن هناك وسائل لاكتساب المال بسرعة.. كثيرون يفعلون ذلك. وهذا دليل على أن الوسائل موجودة، ولكننا نحن — لسبب ما — لا نهتدى إليها».

قلت: «فليكن الأمر كما تصوره، فلست أرى أن هذا يجدينا شيئا».

قال: «ولكن لابد أن تكون هناك وسيلة».

قلت: «إذا كان ينفعل أو يريحك الإيقان من ذلك.. فأيقن وأرح نفسك».

فقال وهو يهز رأسه: «نحن اثنان.. كلانا محتاج إلى مبلغ حسن من المال.. والحاجة ملحة والسرعة لا مفر منها. لا سبيل إلى الاقتراض، لأن الذين يقرضون يطلبون ضمانا.. شيئا يطمئنون به على مالهم.. سخافة.. ولماذا ينبغى أن نرد شيئا؟ ألسنا أحق بالمال من هؤلاء الذين لا يعرفون كيف ينفقونه ويروحون يكترونه ويدفنونه فى خزانات أو فى قدور يدسونها تحت الأرض؟»

فضحكت، وقلت: «هذه بلشفية».

قال: «لا تصدق.. أه لو كنت غنيا، إذن لصارت الدنيا أرغد وأهنا».

قلت وأنا أبتسم: «ماذا كنت تصنع»؟

قال: «أصنع؟ أتسأل؟ كنت أضع المال في صرر وأرمى بها لمن أتوسم فيهم أنهم أهل لأن يكون في يدهم مال» — وأطرق شيئاً ثم رفع رأسه وقال: «هل تعرف أنى زرت اليوم أختي؟ إنها غنية كما تعرف.. وكيف لا تكون غنية وهى لا تنفق شيئاً؟ فلما دخلت عليها وفتحت فمى لأتكلم، رفعت يدها وقالت: «ولا مليم» فغضبت وصحت بها ونهرتها عن هذا السلوك. أكّدت لها مائة مرة إنى محتاج إلى قليل من المال، فوقفت وأكّدت لى أنى سأكون محتاجا إلى هذا المال حين أخرج من بيتها.. سلوك يطير العقل.. فهل تسمى هذه أختا؟ أنى أتصور أختا ظريفة لطيفة سخية كريمة تعطينى وهى تعتذر وتملاً يدي وهى مغضية. هكذا تكون الأخت».

فقلت: «لماذا لا تفكر في طريقة لكسب المال»؟

فقال بلهجة الاستنكار: «أفكر..؟ وما الفائدة من التفكير؟ لا فائدة ما دامت الدنيا مقلوبة. آه لو كان لى سلطان في هذه البلاد، إذن لعقدت امتحانا كل ثلاثة شهور للأغنياء.. يجلس أعضاء اللجنة ويقف أمامهم الغنى، فيقول له أحدهم: «كم تملك يا مولانا؟» فيقول: «ألف فدان ونحو مائتى ألف جنيه في المصرف، وعمارتين — كل منهما ذات سبع طبقات في شارع الملكة نازلى». فيقول أحد الأعضاء: «وماذا تصنع بكل هذه الثروة؟» فيقول: «أوه لا أصنع شيئاً.. كل ما زاد على حاجاتي الضرورية جدا أضيفه إلى المدخر» فتقول اللجنة: «شئ جميل.. أهذا رأيك فيما ينبغى أن يصنع المرء بالمال؟.. لا بأس.. اسألوا أحمد — أى العبد الخاضع المطيع — ماذا يكفيه»، فأقول ردا على السؤال: «أوه يكفينى القليل.. خمسون ألفا. كفاية.. أعنى مؤقتا» فتقول اللجنة: «أحمد هذا رجل يحسن إنفاق المال.. أعطوه ما يطلب» فأقبض المبلغ وأشكرهم وأفرك يدي وأقول: «إذا سمحتم لى يا حضرات الأعضاء الموقرين، أستأذنكم فى لفت نظركم إلى رجل يعرف كيف يعطى.. بارع جدا فى الإنفاق» فيسأل أحدهم: «من هذا؟ قل بسرعة» فأقول: «إنه المازنى» فيقول: «آه صحيح.. كيف نسيناه.. هاتوه حالا.. علينا به. اقبضوا عليه فى حيثما تجدونه» فيقبض عليك الشرطة ويجرونك مصفدا إلى اللجنة، فيضحك الأعضاء ويقولون: «خذ.. خذ.. خذ أيضا» فتخرج معى مسرورا.. وتروح تنفق باليمين وبالشمال حتى يحين موعد الامتحان التالى. ما قولك؟

فقلت وأنا أضحك: «شئ عظيم جدا.. ولكن إلى أن يتيسر أن تلى أمور الناس، ماذا

تصنع»؟

فقال: «آه هذه هي المسألة.. ما رأيك أنت؟»
قلت: «يمكننا أن نكسب الورقة الأولى الرابحة من يانصيب المواسة أو اليانصيب
الإيرلندي».
قال: «هذا ممكن.. ولكن ذلك يتطلب أن ننتظر بضعة شهور والعجلة من
الشیطان».
قلت: «صدقت.. يمكن أن نخترع شيئاً ونحتكر بيعه — وصنعه بالطبع —
فنغتنى».
قال: «صحيح.. فكرة لا بأس بها.. سأدون هذا في مذكرتي.. تنفع في المستقبل..
وعلى ذكر ذلك، ماذا نخترع؟»
قلت: «باب الاختراع واسع.. واسع جداً: مثلاً نخترع طريقة تجعل السيارات
تستغنى عن البنزين وتكتفى بالماء — أو حتى بالهواء — أو نخترع بديلاً من النقود
فإن النقود هي أصل البلاء في هذه الدنيا.. أو نخترع..»
فقال: «يكفى.. يكفى.. ولكن هذا كله يحتاج إلى زمن.. والمطلوب هو الاهتمام إلى
وسيلة تكفل إعداد المال اللازم في أربع وعشرين ساعة.. أنا أقول لك!»
فقلت وأنا أضطجع وأرسل الدخان من فمى خيطا ملتويا، بعد أن فرغنا من
الطعام: «يظهر أن الضرورة تفتق الحيلة حقيقة».
فقال: «معلوم ... اسمع، أترى هذا الرجل القاعد هناك في الركن الأيمن؟ أترى
كيف يأكل؟ أترى كرشه المدورة كالكرة ووجهه المنتفخ، وكيف يفتح عينا ويغمض
أخرى، وينظر حوله قبل أن يدس اللقمة في فمه كأنما هو يخشى أن يراه أحد؟ الحق
أقول لك أنى أكره وجهه ولا أرتاح إلى النظر إليه».
قلت: «يا أخى لا تنظر إليه.. دعه وحول عينك عنه».
قال: «ولكنى لا أستطيع.. إنه وجه سوء، لا يمكن أن يكون هذا الرجل من أهل
الخير.. إنه ممن لا يؤتمنون على القُصَّر والأيتام والأرامل.. هذا الرجل لابد أن يكون
منطويا على أسرار يكره أن تتداع.. لأن وجهه ناطق بأنه شرير. فلو قمت إليه الآن
وهمست في أذنه أنى أعرف سره الذى يجاهد لإخفائه، ألا تظن أنه يفزع ويضطرب
ويشترى سكوتى بأى ثمن؟»
فقلت: «أها! أهذه طريقتك؟ أتريد أن تبتز المال من الناس بهذه الوسائل؟»
قال: «المصيبة أنى لا أستطيع.. تنقصنى الشجاعة، ولكنى واثق أنى أنجح إذا
استطعت أن أصنع هذا.. ومع ذلك لكل إنسان سره القبيح.. ولو أن واحدا جاء إلى

في الطريق

ووقف على رأسى الآن وحدق في وجهى، ثم هز رأسه هزة العارف بكل ما هناك، ثم قال: إنى أعرف سرك يا أحمد، لما وسعنى إلا أن أضطرب.. على كل حال يظهر أنه لا فائدة.. لا أمل في مال كثير نحصل عليه بالسرعة اللازمة».

قلت: «صدقت لا أمل».

قال: «خسارة.. سأظل أتحسر لأنى لم أجد الشجاعة الكافية للوقوف على رأس هذا المجرم — هو مجرم ولا شك — وإبلاغه أنى أعرف باطنه كما أعرف ظاهره البادى لنا ... خسارة، نهايته.. نقوم»؟. قلت: «تفضل».

ودفع إلى الخادم ثمن الطعام وخرجنا.

وقلت لصاحبى وأنا أودعه: «على فكرة.. من قبيل الاحتياط للمستقبل ما هو

الجواب الصحيح أمام اللجنة»؟

قال: «آه.. أنفق ما في الجيب يأتك ما في الغيب».

قلت: «أهو ذاك؟ أما ما في الجيب فلست أحتاج في أمر إنفاقه إلى التكلفة.. وأما ما

في الغيب فهل تعرف متى يأتى»؟

فأشار لى بيده.. ومضى عنى وهو يضحك.

الفصل السابع

تفيدة

نشأت في بيت لم أكن أجد فيه من يكلمنى، لا لقلّة في أهله ولا لبكم يعقد ألسنتهم.. بل لأن مشاغلهم كانت تصرفهم عنى. فهذه جدتى، لأبى، كانت لا تفارق السجادة — أو الفروة على الأصح — وفي يدها السبحة التى لا أذكر أن الخيط الذى ينظم حباتها انقطع، وشفّتها لا تكفان عن الحركة والتمتمة بما لا أعرف من الأدعية والصلوات على النبى. وما أكثر — وأطول — ما كنت أقعد أمامها محدقا في هاتين الشفتين الدائبتين دؤوب الليل والنهار. وكانت ربما التفتت إلى فنتبسم وتدنينى منها وتمسح لى رأسى، ثم تبسط يديها بالدعاء إلى الله بصوت يبريه الضعف وتبحة الحسرة ويهدجه الألم والأسف لما صرنا إليه بعد وفاة أبى، ثم تربت على كتفى وتميل على وجهى الصغير بغمها الأدرد وتقبلنى، فتخرج شفّتها صوتا كهذا «مق».

وتلك أمى لا تزال مصروفة عنا بشئون البيت من طبخ وغسل وكنس ونفض، ومن حمام تسقيه وتطعمه، ودجاجات لا تنفك تجس حويصلاتها أو تصبعا لترى أفيها أم ليس فيها بيض أو تنتف ريشها. وكثيرا ما كنت أقف أنظر إليها وهى تتناول فراخ الحمام وتزقزقها، أى تمج في مناقيرها الماء والحب.. ولا آخر لعمل السيدة في البيت. ولم يكن لنا في ذلك الوقت خادمة، وكانت أمى تنهض بالأعباء كلها اقتصادا في النفقة.. فكانت هى تطبخ الطعام، وتكنس الغرف، وترتب الأثاث، وتخييط لنا الثياب، وتصنع كل شيء إلا أن تخرج لتشتري الأشياء التى نحتاج إليها لطعامنا. فقد كان رجل من أتباع أقاربنا الذين يقيمون في أجنحة أخرى من هذا البيت الكبير، يقوم لنا بذلك. وكانت عمّة أبى معنا، ولكنها كانت عجوزا ناهزت المائة.. وكانت تجلس وساقاها ممدودتان أمامها ورأسها مستند إلى وسادة، ولسانها لا يمل الدوران، وكان كلامها هذيانا فكنت أضحك منها أحيانا ثم أمل ذلك فأتركها لهزرها الذى لا ينقطع.

وكنت إذا شعرت بالشوق إلى مكاملة أحد، أنحدر إلى فناء البيت.. وكانت فيه غرف كثيرة، يقيم فيها أتباع الشيخ قريينا ويحيون الليل بقراءة الأوراد. وكانت هناك أيضا مية ومصل، فكنت إذا رأيت الشيخ مقبلا أندس بين المصلين وأروح أقف وأركع وأسجد كما أراهم يفعلون. ولكن هؤلاء كانوا يروننى صبيا صغيرا، فينظرون إلى ويبتسمون — لأن أفواههم مشغولة بالتمتمة — ولكن لا يكلموننى. غير أنه كان هناك في أكبر غرفة في الفناء، رجل ليس من الأتباع ولا هو يعنيه أمرهم أو يشاركهم فيما يصنعون. ولا أدرى إلى هذه الساعة كيف سكن هذه الغرفة.. فما كان يعطى الشيخ شيئا، وكان الشيخ يستنكف أن يؤجر بيته أو بعضه. وكان هذا الرجل يصنع أزرار الطرابيش، فكان يطيب لى أن أجلس إليه لأحظه وأحدثه أو أستمع إلى حديثه وقصصه وكان يحادثنى كأنى رجل كبير لا طفل صغير، وكان يبرم خيوط الحرير المصبوغة ويفتلها ويعقد أطرافها ويجمع كل بضعة خيوط معا ثم يثنىها ويربطها ويصمغها ويدقها على قالب من القوالب التى تتخذ لكى الطرابيش. وكانت لهذه الخيوط رائحة لا أزال أذكرها، وإنى لأجدها الآن فى أنفى وأنا أكتب ذلك. وقد علمنى صناعته، فكان يدع لى الخيوط فأفنتها وأرتبها وأعد أطرافها وأفعل مثل ما أراه يفعل بالمدق على القالب. ثم يعود إلى فينظر فيما صنعت ويصلح لى أخطائى، أو يثنى على حذقى. وكان يكل إلى ذلك كلما قام لإعداد طعامه أو خرج لشرائه. وفى وسعى أن أقول بلا مبالغة إنى قلما تعشيت إلا معه، فكنت أصعد فأجىء بطعامى وأضيفه إلى ما عنده، فنأكل معا. ولكنى لم أكن أصنع هذا إلا إذا كان عندنا طعام يلىق أن يقدم إلى غريب.. أما إذا كان فولاً أو عدسا أو ما هو من هذا القبيل، فقد كنت أخرج فأشترى زيتونات وشيئا من الجبن «والحلاوة الطحينية» وأعود بها إليه، فيؤنبنى على فعلتى وينهانى عن العود إلى ذلك، فأصارحه بأن طعامنا الليلة فول أو عدس ... وإنى لا أحبه. فكان يحدث أن يقول لى إنه يحب هذا الطعام، ويرجو منى أن أصعد وأجيبه بشيء منه، فأستغرب.. ولكنى أطيع. فلا عجب إذا كنت قد أحببته وألفته. ولم يكن أغرب من هذه الصداقة بين رجل جاوز الأربعين وطفل فى التاسعة من عمره. وقد ألفتى كما ألفتة، وتعلق بى كما تعلقت به.. فكان ينادينى إذا أبطأت عليه، فأستبطنى النزول على الدرج وأركب الدرايزين لأن التزحلق عليه أسرع..

وكانت له بنت أخت تزوره من حين إلى حين.. رأيتها أول مرة فى ليلة شتوية كثيرة المطر شديدة البرد، وكنت ألعب فى الحارة.. فلما أخذ المطر ينهمر فجأة ذهب أعدو

إلى البيت. ولحت، وأنا أجرى، ضوءاً في غرفة صديقي.. فاشتبهت أن أخبره أن السماء تمطر وأن الريح تعصف. ودخلت الغرفة ثم وقفت على العتبة، فما رأيت المصباح المألوف وإنما رأيت ناراً موقدة، وكانت ألسنة اللهب عالية.. فرأيت، أول ما رأيت، كفا بدت لي كأنها — ولسان النار من ورائها — مرجان شفاف. وطالعتني محيا فتاة صغيرة على هذا الضوء المضطرب، فرأيت شعراً أسود يتوهج هنا وهاهنا، وضميرتين في طرفيهما خيوط من الصوف نسج عليها الشعر واستراحتا على جانبي الصدر، وأنفا في عرينه نتوء قليل، وفي مارنه لين، وفي أرنبته انثنا إلى فوق، وعينين ضيقتين مائلتين بعض الميل. وكانت الحدقتان تلمعان كأنما تطلان من شقين، وفي نظرتهما من وراء الأهداب الوظفاء معانى الرضى التام والسكون العميق والاعتباط الذى لا سبيل إلى العبارة عنه. وكانت هذه المعانى على الفم أيضاً، وكانت الشفتان رقيقتين وفي العليا منهما نثلة بيضاء، وهنة دقيقة نابذة في وسطها، وكانت عليها ابتسامة أبلغ في العبارة عن السرور من الضحك المجلجل، وكان خط الشفتين موازياً لميل العينين، وقد خُيِّلَ إلىَّ وأنا أنظر إلى هذه الابتسامة المرتسمة على الشفتين المتلامستين كأنما هي معلقة على ما تغضن على جانبي الفم، وكانت صحيفة الوجه عريضة عند الوجنتين ولكنها تنتهى بذقن دقيق، وفي الديباجة حسن، وفي الخدين رى وأسالة وبضاضة. أما العنق فطويل مستدير، وأما الذراعان — وكانا معتمدين على الركبتين — فمستدقان.

وقفت أهدق في هذا الوجه الذى أضاعته لي النار المضطربة الخفاقة اللمعان، وخيل إلى وأنا أنظر أنى لم أر قط أجمل ولا أبرع من هذا الحسن، وراعنى على الخصوص ما على الوجه من آيات السرور الباطن.. فألفيتنى أتساءل: ماذا ترى يسرها وهى قاعدة وحدها تتدفقاً؟ ومن أين جاءت ياترى هذه السعادة التى تومض بها عيناها وتشى بها هاتان الشفتان الصامتتان؟ وأحسست أن أنفاسى أسرع وأن الدموع تجول في عيني، فقد كانت الفتاة جميلة وكانت الروعة قد غمرت صدرى، بل ملأ قلبى الخوف كأنما أشهد الحياة نفسها لا إنساناً فانياً مثلى. وارتفع لسان النار فجأة وخفق ضوءها على محياها المبتسم، فخيّل إلى أن الدم يجري كالمجنون تحت جلدها الرقيق. وكانت هى ساكنة لا تتحرك، ولا تزايلها ابتسامتها الهادئة المرتسمة على عينيها الضيقتين المائلتين وفمها المطبق الشفتين. نعم.. كانت الحياة نفسها تنظر إلى من عينيها.. وبعينيها.

رأيتها بعد ذلك مرة أو مرتين في نحو عام، وعلمت من صديقى — خالها — أنها يتيمة وأنها تقيم مع عمها وتزور خالها أحياناً، وأكثر ما تكون الزيارة في الصباح

حين أكون أنا في المدرسة.. ولكنها لا تبقى معه إلا ساعة أو بعض ساعة. وقد حاولت أن أكلمها، ولكنى كنت أستحيى أن أطيل الوقوف معها أو الجلوس إليها، وكانت هي تحرق في وجهي ولا تطرف حين تكلمني، ولا أذكر ما كانت تقول وإنما أذكر كيف كانت لهجتها هادئة وحالها بادي الوثاقة.. كما ينبغي أن تكون الحياة.

وكنت أسألها أحيانا — وأنا لا أجد كلاما أقوله لها غير ذلك: «هل تلعبين الحبل»؟ ولا أصغى إلى جوابها، بل أروح أفكر في جمالها وأعجب له.. وأسأل نفسي مستغربا ماذا وراء هذه العين يا ترى؟.. لماذا أراها سعيدة دائما بلا سبب أعرفه؟ وأشتهى أن أسألها عن ذلك، ولكنى آنس من نفسي جبنا فأسكت.

ومضت الأيام وتعاقت السنون وكبرتُ وعرفتُ الأدب والقراءة، فصار كل ما أقرأه عن الحب في شعر الشعراء وفي وصف الروائيين، يدور حول ذكرياتي القليلة منها، وابتسامتها الساكنة ووجهها الجميل وسعادتها الهادئة. وكان زملائي في المدارس يذكرون مغامراتهم ويتحدثون بها ويباهون، وكنت أسمع وأسكت وأتعزى بأن هذا الذي يلهجون به ليس من الحب في قليل أو كثير، وأقول لنفسي إنني أعرف ما لا يعرفون، وأعرف ما أعرف بالتجربة. ومع ذلك لم يخل هذا الصدر من أيامي مما يسمونه المغامرات، ولكنها لم تكن كثيرة أو باعثة على الرضى.. بل كانت على النقيض سببا في السخط على نفسي واحتقارها، فأليت لأنصرفن عن هذا العبث. وأقبلت على الدرس والتحصيل واشتغلت بالشئون العامة، فصرت أحضر جمعيات الخطابة بل ألّفت مع إخوان لي جمعية للخطابة. وعنيت بقراءة الصحف فكنت على صِغرى أقرأ كل يوم ثلاث جرائد سياسية، وكنا جميعا من أنصار «مصطفى كامل» وعشاقه في ذلك الزمان.

ثم جاءت الحرب العظمى، فشغلنا بأنبائها وبالاختلاف على نتائجها المحتملة وبالخوف على أنفسنا من الجوايسيس والاعتقالات التي كنا لا نأمنها ولا نستطيع أن نعرف الطريق إلى اتقائها.. ولكن يوما من أيام تلك الحرب أذكره ولا أنساه. وكان لي صديق داره قريبة من داري، ولم يكن معه أحد في بيته وكان السهر محرما بعد الساعة التاسعة، فكنت أقضى عنده السهرة في الأغلب، ولا سيما في الصيف، فأراني يوما مسدسا ورضاصات، فجعلنا نتدرب على إطلاقها ونرمى بها باب الحمام، ولم نكن نخشى أن نسمعنا أحد لأن البيت كان بعيدا عن العمار. ثم افترقنا، واتفق أن زارني بعد ذلك ونسى عندي مسدسه.. ولا أدري كيف كان يجترئ على حمله معه؟ فوضعت المسدس في درج المكتب ونسيته فيه، وتكدست فوقه الأوراق على مر الأيام. فحدث يوما

أن جاءنى صديق وثيق الصلة بالسلطة العسكرية، وأخبرنى أن بيتى سيفتش الليلة.. فشكرته، ولم أعر الأمر اكتراثا.. لأنه ليس فى بيتى ما أخشى على نفسى منه. فلما كان العشاء، جاء ضابط إنجليزى ومعه من المصريين ضباط وجنود، فدخلوا المكتب أول ما دخلوا. ورأى الإنجليزى الكتب الكثيرة على رفوفها، فأقبل عليها يتأملها.. فألفاها كلها كتب أدب، فجعل يقلبها وينظر إلى ثم سألتنى عن عملى، فقلت: «مدرس» فاطمأن واعتقد مما رأى أنى رجل مأمون الجانب، وأرسل المصريين يفتشون بقية البيت، ووقف هو معى فى غرفة المكتب، ثم دنا من المكتب وجعل يقلب ما عليه من الأوراق المنتشرة بغير احتفال، ثم فتح درجا وألقى عليه نظرة ثم رده وشد الدرج الثانى.. ولم تكن للأدرج مفاتيح، فجمد الدم فى عروقى، فقد تذكرت المسدس فجأة، ولم أستطع من فرط الجزع أن أدعو الله أن ينقذنى. وكان الإعدام عقوبة من يحمل سلاحا كهذا بلا ترخيص — أو هكذا أعلنوا — ولكن الله سلم.. فرد الرجل الدرج وكان زملاؤه قد عادوا مخيا وانصرف وهو يبتسم، ولعله كان يعتقد أن تكليفه تفتيش هذا البيت سخافة مطبقة.

وما كادوا يذهبون حتى أسرعرت إلى المسدس، فقذفت به فى بستان مجاور لبيتنا، وتشهدت.. ولم أطق البقاء فى البيت بعد ذلك من فرط الاضطراب، فخرجت أتمشى على غير هدى وإذا بى فى بعض الطريق — طريق حدائق القبة — التقى بفتاتى القديمة. عرفتھا على الرغم من طول الزمن.. وعرفتنى هى كذلك ولم تنكرنى، فصحت بها كالأبله: «تفيدة.. أنت..؟»

فابتسمت لى ابتسامتها القديمة الهادئة ولم تزد، فقلت لها: «من أين، وإلى أين؟» قالت: «إلى البيت» فمشيت معها إليه. وكان شقة فى عمارة عند «المحمدى» فدعتنى إلى الدخول فلم أتردد.. فإننا صديقان قديمان. ولم أر فى بيتها غيرها فلم أستغرب فإنها يتيمة، ولكنى لم أعرف من أين جاءت بهذا الأثاث الحسن وإن كان قليلا وعلى قدر الحاجة، واتفقت معها على يوم نخرج فيه للتنزه فى القناطر أو حديقة الحيوانات، فهزت رأسها أن نعم.. فتركتها ولم أسألها عن حالها وكيف تعيش.

والتقينا فى الموعد المضروب.. وكان النساء يتقنعن فى ذلك الوقت ولا يخرجن إلا فى الندرة القليلة بوجوههن سافرة، فركبنا عربة يجرها جوادان هزيلان، ومضينا إلى حديقة الحيوانات، وجلسنا على دكة منعزلة.. وقضينا أكثر الوقت صامتين، ثم فتحت فمى فحدثتها عن الزمن الماضى وحبى الصببانى لها، وكيف طال عمر الحب وامتد

إلى الحاضر، فلم تزد على أن تبسمت — كعادتها — وقالت: «لا أدري لماذا أرى الناس يجنون بي».

فأحسست أن لوحا كبيرا من الثلج يوضع على قلبي.. الناس يجنون بها.. الناس ... إذن هناك مجنون، أو مجانين بها غيرى ودار رأسى، وذهبت أسأل نفسى عنها كيف تعيش. ولم يخطر لى هذا من قبل، ولكنه خطر الآن نعم كيف تعيش هذه التى يجن بها الناس؟ وأين وكيف ترى هؤلاء المجانين كلهم؟ لابد أنهم كثر ... فمن أين يجيئون.. إنى أنا صديق صباها، فلا عجب إذا كنت أعرفها.. ولكن غيرى.. غيرى.

وقطع على هذه الخواطر المزجة سودانى فى ثياب الردنجات. وكان كهلا، ولكنه يمشى معتدل القامة كالرمح.. فدنا منها وحيها باسمها وسألها عن حالها وعينه تومض، فردت عليه برزانة وسكون ومن غير أن تفارقها ابتسامتها المطبوعة. ولم يطل الوقوف، فمضى عنا وقد عرفت منها أنه ضابط فى الجيش وأنه الآن فيما يسمى الاستيداع، وأن بيته فى العباسية — قرب «المحمدي» فلم أقل شيئا ولكنى قلقت — أو على الأصح زدت قلقا وصرت أناجى نفسى بأن لعل هذه طريقة حياتها.

وتعددت المقابلات بيننا والخروج إلى الحداثق العامة، وكنت أعود بها إلى بيتها فى الليل، فتدعونى إلى مقام قليل، فألبى ونذهب نتحدث كأننا رجلان لا رجل وامرأة. فرأيت منها — شيئا فشيئا وعلى مر الأيام — ما أقنعنى أنها ليست الفتاة التى أحببتها فى صغرى، وأنها لا أكثر ولا أقل من امرأة كغيرها من النساء. ولا أدرى الآن وأنا أكتب هذه السطور أى شىء كنت أحسبها قبل أن أتبين أنها ليست سوى امرأة، ولكن الذى أدريه أنى ظلت أحبها على الرغم من ذلك وأنى جعلت أحاول أن أقنع نفسى بأنها كما كنت أتصورها — على الأقل فى حقيقتها الكامنة، ولكن حبى القديم لها تغير.. فلم يعد فيه تعلق بخيال، بل صار حبا لامرأة معينة. وليس فى هذا ما يدعو إلى العجب، فإن الرجل يحب المرأة لأنها امرأة ولأن فيها من بواعث الإغراء ما يكفى لإثارة الرغبة فيها والتعلق بها، ولكن هذا شىء لم أكن قد تعلمته فى تلك الأيام، فرزقنى الله فى شخص «تفيدة» معلما لا يفتد ولا يتردد ولا يترفق بالمثل العليا وصور الكمال وغير ذلك من الأفلاطونيات السخيفة. وكان أول ما تعلمته — أو من أول ذاك — أن من الممكن أن يحب الرجل حبا عميقا طاغيا امرأة لا يحترمها ولا يرى لها مزية ولا ينطوى لها على إكبار أو مودة أو صداقة، ولا يستطيع أن يتفاهم معها ويشركها فى نفسه وخواطره وآماله ومخاوفه وعواطفه.. امرأة لا يرى فيها إلا أنثى منحطة.. بل امرأة يشعر بالشقاء

وهو إلى جانبها وبالمثل والضجر من قربها وحديثها. نعم تعلمت ذلك.. وكان هذا لما تعلمته شيئاً فشيئاً يبدو لي مدهشاً، ويخيل إلى أن الحال فيه مقلوب والآية معكوسة، ولكنى الآن أضحك من نفسى وأسائلها: ولم لا يعيش الرجل بالله امرأة كهذه؟ وأين ترانى كنت أعيش يومئذ؟ فلم أر أن كثيرين من الرجال يعشقون نساء ليست لهن أية مزية.. نساء هن فى الحقيقة كوم عظيم من صنوف الانحطاط.. ونساء يحببن رجالا ساقطين منحطين لا يساوى الواحد منهم ملء أذنه نخالة ولكنى كنت فى ذلك الوقت أعتقد أن الحب شيء سام جداً، وأنه سماوى لا ينبغى أن يخالطه إلا الإعجاب والعبادة. وكانت كل لحظة أقضيها مع تفيدة، تزيدنى إيقاناً بأنها عاجزة عن السمو بنفسها إلى المرتبة التى وضعتها فيها فى حادثتى. وكان يزعجنى وينغص عيشى ويسود الدنيا فى عينى هذا التباين بين الواقع والصورة القديمة التى احتفظت لها بها فى نفسى.. وتغير حبى لها كما قلت واشتهيتها وصبوت إليها، ولكن هذا التحول لم يعفنى من التنغيص والعذاب. وقد كنت أخجل مما صرت أحسه لها، وأعنف نفسى على ذلك وأزجرها عنه. وكانت هى ترى ضبى لنفسى ورياضتها على العفة، وتعلقى بخيالاتى وسخافاتى وأوهامى، فتمتعض وتظهر لى التأفف والتبرم ولا تكتمنى الضجر الذى يثيره حديثى، ولها العذر. وقد كنت أرتفع بالكلام عن طبقتها.. وأتركها على الأرض، وأذهب أحلق فى أجواء لا تستطيع أن تذهب ورائى فيها. وكنت أنشدتها ما أقوله فيها من الشعر، فيسرهما أنها وجدت شاعرا يحبها كل هذا الحب ويتغنى باسمها، وأن يقرأ الناس ما يقوله فيها وما يصف به وجهه لها. ولعلها كانت ترى فى هذا إعلاناً.. ولكنها لم تكن تفهم ما أنظم أو تقدره، وكثيراً ما كانت تمط شفيتها ساخرة. وربما قالت لى: «ألا تستطيع أن تقول كلاماً حسناً؟ فأهز رأسى وأقول لنفسى إبنى وقعت وقعة سوداء، وإبنى يجب أن أصد عنها فإنها لا تصلح لى ولا أصلح لها لأنها لا تفهمنى.. ولا أنا أيضاً مع الأسف، أستطيع أفهم هذه الطبيعة المادية التى يكون فيها الجمال ستارا لكل ما هو منحط.. وكانت تدعونى كل ليلة إلى دخول بيتها حين نعود إليه، وكنت ألبى فى بعض الأحيان.. فأقعد معها كالصنم من شدة الكبح، فلا تلبث أن تتنأب فأقوم وأنصرف فلا تعنى بأن ترافقنى إلى الباب.. فيسوءنى ذلك، ولكنى أراجع نفسى وأقول: إنه ليس بيننا كلفة فإننا صديقان قديمان. وقالت لى ذات ليلة، وقد دوننا من البيت: «لا تغضب إذا لم أدعك إلى الدخول» فسألتها بوقاحة: «هل هناك غيرى؟» فلم يسؤها ذلك ولم يظهر عليها الامتعاض منه، وقالت بابتسامتها الهادئة: «يخيل إلى أنك لا تحب

الوجود معى في البيت.. إنك شاعر، تحب الرياض والبساتين والماء والسماء والنجوم.. أليس كذلك؟ فضحكت وإن كنت لم يفتنى ما في كلامها من التهكم والزراية، وحدثت نفسى أن هذه دعوة صريحة لا يليق أن أغضى عنها مخافة أن يؤدى الإغضاء إلى القطيعة والجفوة.. وكانت هذه مغالطة منى لنفسى، فقد كنت أنا أريد ذلك ولكنى كنت أصرف عنه نفسى وأفطمها بجهد، فقلت لها: «بل سأدخل الليلة — إذا سمحت بالطبع — وسترين أنى أحب بيتك كما أحبك».

قالت: «صحيح»؟

وأحسست من نبرة صوتها إنها ارتاحت إلى كلامى، وإنها استغربته في الوقت نفسه.. ودخلنا، وأغلقت الباب وراءها كعادتها.. فلم أمهلها بل طوقتها بذراعى في الدهليز وقبالتها على خدها، فأدارت وجهها ومنحتنى فمها..

وكنت أسخط على نفسى بعد كل ليلة وأرميها — نفسى — بالانحطاط، ولكنى ألفت ذلك — فصار الأمر عادة كالتدخين وغيره مما يعتاده المرء ويتأفف منه ويود لو كف عنه، ويمضى فيه مع ذلك ولا يكلف نفسه جهد المقاومة وعناءها. وبقينا هكذا زمنا غير قصير، وعرفت أن لها أصدقاء غير قليلين.. فقد كنا نلقاهم في الطريق، فيومئون إليها بالسلام فتبتسم لهم، ولكنهم كانوا لا يدنون منها ولا يكلمونها كما فعل الضابط السودانى في حديقة الحيوان. ولم أكن أعبأ بذلك، فقد كنت أرى أنى منفرد بها وإن كنت لا أعلم ماذا تصنع في غيابى؟ فما كان يسعنى أن أظل معها كل ساعة. وكنت أروض نفسى على الاطمئنان والثقة لحاجتى إليهما، لا لأنى واجد ما يدعو إلى الثقة والاطمئنان..

ولم يكن هذا المنطق يقنعنى أو يريحنى، ولكنه كان المنطق الذى اضطرت إليه.. على أن الأمر لم يطل، فقد جاء يوم اعتذرت لى فيه بأنها مسافرة.. فاستغربت، فما أعرف لها من تسافر إليه، ولكنى سكت ولم أقل شيئا. ورأيتها بعد أيام، فسألتها عن رحلتها ورجوت أن تكون كما أشتهى لها.. فقالت بضجر متكلف لم يخف على: «أوه أبدا.. كانت رحلة مملة.. إنك تعرف هؤلاء الفلاحين وكيف يعيشون.. ليس في حياتهم أى تسلية».

ومضت أيام، فعادت تعتذر من التخلف عن لقائى لأنها مدعوة في بيت صاحبة لها. فلم أجادل، وتركتها، وتكرر بعد ذلك الاعتذار، وتوالى انقطاعها عنى. وكنت أحيانا أقسم أن أمهلها وأبقى أياما لا أسأل عنها، لأعرف أعادت أم هى لا تزال مع هؤلاء

الذين ظهروا فجأة في حياتها، ولم أسمع بهم مرة واحدة قبل ذلك كل هذه الشهور. وأحيانا كنت أضعف فأذهب إلى بيتها، فتفتح لى وتلقانى كأنها كانت معى قبل ساعة، ولا تسألنى لماذا غبت ولا ماذا كنت أصنع وكيف كنت أقضى الوقت.. لا.. لا شىء من هذا على الإطلاق، فأشعر بالغصة ولكنى أكنم الألم..

وكنا قد دخلنا فى الشتاء، وكنت أعرف أنها لا تحب أن تكون فى غير بيتها بعد العشاء على الأكثر.. فذهبت إلى قهوة قريبة من مدخل الحارة، كى أرى ما يكون. وانحدرت الشمس وأنا لا أرى شيئاً.. نعم رأيت ناسا كثيرين راكبين أو ماشين وباعة متجولين ومركبات الخ الخ، ولكنى لم أرها تدخل أو تخرج. وكانت نفسى لا تفتأ تنازعنى أن أنهض منصرفا، وكنت أحدثها بأن من السخافة والحماقة أن أتعب نفسى بهذه الجلسة المضمية لأعرف ما أعرف. وهل فى الأمر سر؟ أليست قد ملتنى ونبت بى وجفنتى واعتاضت منى سواى كائنا من كان هذا السوى؟ وما حاجتى إلى علم ما أعلم؟ ولماذا أحقر نفسى وأمرغ وجهى فى التراب وأضعه عند قدمى امرأة سوء كهذه؟ وأهم بالنهوض ولكنى أحس أنى قد سمرت إلى الكرسى أو لصقت به.. ويتجسد وهمى ويضحكنى أمرى أحيانا ثم تغلبنى الكآبة والحزن — على نفسى وعليها — ثم أرانى غضبت وثرث وهاجت نقمتى على هذه المستهتره التى لا تبالى ولا تدرك. ثم أراجع نفسى فأسألها: «ماذا تريد منى أن تبالى.. أمن العدل أن أطالبها — أو أتوقع منها — أن تحفل ما لا تدرك؟» وأستسخر من نفسى أن أروح أنتظر من هذه العامية — على الرغم من أنها تعلمت شيئا — أن ترتفع بنفسها إلى حيث ارتفعت أنا. ثم أراجع فأقول: إن المسألة ليست مسألة تعليم أو ثقافة، وإن كان التعليم يهذب.

وانقضى النهار فى هذه الهواجس أو الخواطر، وأقبل الليل ومعه البرد.. فاحتجت أن أقوم وأن أتمشى لأشعر بالدفء، فرحت أتمشى فى الحارة وعينى على بيتها وأنا فى حماية الظلام. فسمعت بعد قليل صوت باب يفتح ويغلق فدنوت على أطراف أصابعى فاذا هو بابها، وإذا الخارج منه هو الضابط السودانى. وكاد يختفى فى الظلام، ولكن الباب فتح مرة أخرى وخرج منه صوت كهذا: «هسسس» فوقف الرجل وتلفت ثم كر راجعا ووقف أمام الباب. وكنت على مسافة مترين منه، فأدرت ظهرى إليه ولويت عنقى لأكون أقدر على السماع، فسمعتها تقول له: «الساعة الثالثة تماما.. فىنى أخشى أن يجىء ذلك الثقيل للسؤال عنى».

فمشيت.. ولم أقف لأسمع رده.

الفصل الثامن

الهارب

دخل «سعيد الميداني» على مدير دار الكتب — حين أذن له — وهو يحيى وينشر الجريدة التي كانت مطوية تحت إبطه، وقال وهو يقدمها له: «هل قرأت هذا يا بك؟ إن الحملة واضحة التلفيق، ولهذا جئت وفي مرجوى أن أظفر منك ببيان للرد عليها». فتناولها منه المدير وألقاها على طرف المكتب، ولم يكتم ضجره وهو يقول: «تفضل.. تفضل.. إن كل ما يعنى رواد الدار هو أن يجدوا ما يطلبون — كل ما يطلبون — فيها وأن يهتدوا إليه بسرعة وسهولة وبغير عناء أو تضییع وقت. ومتى كان هذا حاصلًا فلست أبالي ما تكتب الصحف أو يقول غيرها. وهذا حسبي وحسبك بيانًا، فإذا اقتنعت به فذاك.. وإلا فأمرى إلى الله، فما أستطيع أن أضيع وقتي في الكلام الفارغ».

وكان أمامه وهو يقول هذا كتاب ضخم وضع بين صفحتين منه قلما أحمر غليظًا. وكان ينظر إلى إحدى الصفحتين ويشير بأصبعه إلى سطور فيها كأنما يتلو منها ما ينطق به. بل لقد خيل إلى سعيد أن الأمر كذلك، ولكنه هز رأسه كأنما يريد أن يطرد هذا الخاطر، فقد استأذن من غير أن يبين الغرض من المقابلة. وكان سعيد من أحدث خريجي كلية الآداب بالجامعة المصرية، ومن أنشطهم وأشدهم إقبالًا على التحصيل والاطلاع ونزوعًا إلى الاستقلال والعمل الحر. وخال فيه صاحب جريدة «الأحوال» الخير من لمحاته، وأنس الرشد من أعماله.. فألحقه بمساعديه الكثيرين، وما لبث أن صار يعتمد عليه في تعقب الأخبار وتقصي الحقائق.

ورأى المدير أن سعيدًا ينظر إلى الكتاب الذي بين يديه، فمسح جبينه العريض بأنامله ثم قال: «على فكرة.. هل عندكم في «الأحوال» ملفات خاصة بترجمة المشهورين؟ ثم كأنما تذكر أمرًا، فقال: «متى أسست جريدة الأحوال»؟

فقال سعيد: «بعد الحرب العظمى.. سنة ١٩١٩م — أو ١٩٢٠م».
وقال المدير: «إذن لا فائدة..».

فقال سعيد: «هل تسمح لي أن أسأل ما هي الحكاية لعل أستطيع أن أساعد».
فقال المدير: «الحقيقة أنها مسألة غريبة.. كنت أمس أقرأ كتابا لعبد القادر التميمي، وهو كاتب مصرى وشاعر أيضا.. وإن كان شعره قد ضاع بإهماله — أو على الأصح — لأنه هو أبى أن ينشره لأنه كان يستضعفه ولا يرى رأى الناس فيه. وقد كان مشهورا منذ أربعين سنة، ثم اختفى فجأة ولايدرى أحد أهو حى فيرجى أم ميت فيبكي.. وقد رجعت اليوم إلى المستدرك — وأشار بيده إلى الكتاب الذى بين يديه — وهو كما تعلم الجزء الرابع من كتاب الأعلام للزركلى، فوجدت فيه نبذة عن الرجل فيها تاريخ ميلاده وأسماء كتبه إلى آخر ذلك، وليس فيها تاريخ لوفاته. والمفهوم من هذا بدهاة، أنه كان حيا حينما صدر الجزء الرابع من الأعلام — أعنى المستدرك. ولعل صاحب الأعلام لم يقف على تاريخ لوفاته إذا كان قد مات، ولكنه كان حينئذ خليقا أن يذكر تاريخا تقريبا لوفاته على عادته. لهذا أرجح أن الرجل كان حيا وقت صدور الكتاب. ولكن المسألة تبقى مع ذلك بلا حل ... فهل هو لا يزال حيا؟ أم تراه مات؟ وأين؟ هذه هي المسألة. ولست أعتقد أن فى وسعك أن تساعدنى، ولكن أدر المسألة فى خاطرك عسى أن تهتدى إلى شىء فتخبرنى؟ إذا سمحت ولك الشكر».

ونفض واقفا إيذانا بانتهاء المقابلة.. ولكن سعيدا كان مطرقا، وكان يفرك جبينه بأصابعه، فلم ير المدير يقف.. فعاد ذاك إلى مقعده على مهل وقد جال بذهنه أن لعل هذا الشاب يعرف شيئا أن يصغى إليه، وتنبه سعيد ورفع رأسه وقال وعينه على السقف: «عبد القادر التميمي؟ أى نعم.. أذكر هذا الاسم، وإن كنت لم أقرأ له شيئا. قرأت عنه ولكن لم أقرأ له، وسمعت من أستاذنا فى الجامعة أن الناس فى عصره كانوا فى حيرة من أمره، وكان أكثرهم لا يعرف له جدا من هزل.. وكان يتهمكم بكل شىء.. كل شىء حتى نفسه. وكان أسلوبه جديدا فى بابة فأخذ الناس على غرة وكثر مقلدوه، ولكنهم أخفقوا فأقصروا».

وهنا تلمل المدير، فما كانت به حاجة إلى من يصف له الرجل.. وإنما كانت حاجته إلى من يدلّه عليه أو على مكان قبره.

ومضى سعيد فى كلامه غير عابئ بضجر المدير، فقال: «نعم.. وأذكر أن أستاذنا قال: إنه رحل من مصر وخلف أسرته بها، وترك لها كل ما جمع من مال. وكان ابنه

قد كبر وصار ذا عمل يكسب منه رزقه، ولم يرجع الأب بعد ذلك.. ولكن من المحقق أنه لم يمِت وإن كانت أخباره قد انقطعت.. نعم أذكر هذا».

فقال المدير: «وأثق أنت من ذلك»؟

قال سعيد: «كل الثقة.. ولكن أين هو؟ لا يدرى أحد».

قال المدير: «ولكنه إذا كان لا يزال حيا — لابد أن يكون الآن قد جاوز الثمانين.. انتظر.. ولد.. ولد.. نعم.. سنة ١٨٥٠، فهو الآن في السادسة والثمانين؟ يا الله! أتظن؟ أنى لا أكاد أصدق، لقد كان معروفا عنه أنه مسرف في إنفاق حياته.. لا يبالي أعاش أم مات.. فكيف يمكن..؟»

فقال سعيد: «مثل هؤلاء الذين لا يبالون أعاشوا أم ماتوا هم الذين يعمرّون».

فقال المدير وهو شاردا: «ربما.. ربما.. ولكن ٨٦ سنة.. هذا عمر.. هذا..».

فنهض سعيد ومد يده إلى المدير، وقال: «سأعنى بالبحث.. وإذا وفقت إلى شيء فسأخبرك».

فمد المدير إليه يده، وهو يقول كالمحدث نفسه: «٨٦ سنة.. أما لو كان حيا؟ ولكن

كيف يمكن؟ كيف يمكن»؟

مضى شهران على هذا الحديث لم يسمع في خلالهما كلمة من سعيد، ولم يكف هو أثناءهما عن البحث والتقصي — عبثا — فأقصر يائسا وصرف نفسه أسفا عن عبد القادر التميمي. وكان جميل بك — أو إذا شئت اسمه كاملا، جميل بك أحمد القناوى — رجلا مخلصا عطوفا رقيق القلب، وقد شق عليه جدا أن يحدث في القرن العشرين أن يختفى أديب مشهور وأن تنقطع أخباره نحواً من أربعين سنة، فتنساه الدنيا التي يسرها ويملوها حبورا وجذلا، ولا تعود تعرف عنه حتى أبسط ما ينبغي أن يعرف: «أهو حى أم تراه ميت»؟ وكان جميل بك يرى أن هذه فاجعة إنسانية لأنه لم يشك في أن اختفاء هذا الأديب وانقطاع أخباره سببهما يأس عميق أخذ بالكاتب، وهو مع ذلك الذى يرفه بكتابته عن الناس وينعش نفوسهم ويهذبها بفكاهته ويفيض على حياتهم البشر والسرور كما تفعل الشمس، ولم يسعه الا أن يعجب لاختفاء رجل مشهور في عالم لا يكاد يختفى فيه شيء في هذا العصر، ورجح عنده لهذا أن الرجل لابد أن يكون قد لقي حتفه في أول مراحل هجرته — إذا صح أن تسمى هجرة — ولا يبعد أن يكون قد تنكر واتقى ألا يحمل معه ما يدل على حقيقته. وأخلق به حينئذ أن يكون قد دفن

حيثما اتفق بالاسم الجديد الذى تنكر به، وهز جميل بك كتفيه ومط شفتيه، ثم زفر زفرة طويلة وقال: «إيه لا حول ولا قوة الا بالله» وشرع يشعل سيجارة وإذا بالتليفون يدق إلى جانبه، فتناول السماعة متثاقلا وقال: «نعم» ولكن ما عتم أن أعتدل في جلسته، وصاح: «أيه ماذا تقول؟»

ولكن الذى خاطبه اكتفى بما قال، فوضع جميل بك السماعة، وقام يتمشى بسرعة ويشعل سيجارة ويضعها في الطبق وينساها ويروح يشعل غيرها حتى اجتمع في الطبق أربع سجاير بعضها أقصر من بعض وهو زاهل عنها جميعا. وأنه ليهم بإشعال الخامسة، وإذا بالخادم — فقد كان في بيته — ينبئه أن «سعيد أفندى الميدانى» قد حضر، فيقول له بلهفة: «أدخله.. أدخله» ويسبقه هو إلى الباب.

ويدخل سعيد أفندى ويده في يد جميل بك، وهو يقول: «نعم وجدته.. في غرفة في ربع قديم في أعتق أحياء هذه المدينة.. أو هو من أعتقها...».

فيقول جميل بك: «وكيف وجدته؟»

فيقول سعيد أفندى: «أوه.. هذه حكاية طويلة. وليس المهم كيف وجدته، بل المهم أنى وجدته. ويمكننى أن أقول لك إنى استعنت بابنه، وقد كان اعتقاده أنه مات لا محالة، ولكنى زعزعت له هذا الاعتقاد بعنف بل بقسوة.. هل تعلم أن ابنه أحيل على المعاش منذ سنتين، وإن له حفيدة تزوجت وولدت بنتا».

فيقول جميل بك: «ليس عجيبا أن يعتقد ابنه أن أباه مات وشبع موتا، ولكن كيف وجدته؟».

فيقول سعيد مرة أخرى: «لقد قلت لك أن هذه الحكاية طويلة».

فيقول جميل بك: «إنما أعنى كيف حاله».

فيقول سعيد: «حاله.. وماذا تنتظر أن يكون حال رجل قارب التسعين وأقعده شيخوخته العالية عن العمل.. فقر وضعف وعمش ... حال لا يعلم بها إلا الله».

— ولكن كيف يعيش؟

— كان يستعين به طابعو الكتب القديمة لضبطها وهم يجهلون شخصيته لأنه يسمى نفسه عبد القادر ناجى.. أليس اسما غريبا؟ إن اختياره له يشى بثقته بالله وبحسن المأل على كل حال.. لقد أدهشنى منه أنه لا يزال يبتسم للعالم ويؤمن بحسن حظه في الحياة على الرغم مما هو فيه من الفاقة الشديدة.. ولكن من يدري؟ لعله قد خرف فهو لا يقدر سوء ما هو فيه. فسأله جميل بك: «ألا يعرف أن ابنه موجود؟»

فقال سعيد: «يعرف، ولكنه أبى أن يذهب إليه حين عاد من رحلاته لأنه استكبر أن يجعل نفسه حميلة عليه، وخشى أن يأنف ابنه من الانتساب إليه إذا وقف على حالته الزرية».

– وهل قابل ابنه؟

– بالطبع ... وقال له حين رآه: من يصدق أنك ابني؟ إنى أبدو أصغر منك.. على كل حال، يمكنك دائما أن تنسى أنى ما زلت على قيد الحياة.. فما أشك في أن عثورك على حيا صدمة لك بعد أن وطنت نفسك على موتى. وأحسب أن بعثى الآن قد خيب أملك في.. كذلك قال لابنه.. مدهش.. إن ذهنه لا يزال حافظا لقوته.. قال لابنه في جملة ما قال: إنى لما كبرت كنت أقول: لو عاش أبى لما عاشرتة، لأنى أستنكف أن أكون فرعا وأحب أن أشعر أنى أنا أصل مستقل بنفسه عما عداه وعما غذاه ونماه. ولكن ذهنه يشرذ أحيانا فيخلط في كلامه، لأنه يكر راجعا إلى ذكرياته الطويلة في حياته الحافلة، من غير أن يشعر بالانتقال أو الرجعة.. فتحس أنك تهت وضلت طريقك، وقد ظنه يهذى ولكنه ليس هذيانا بل كر الذهن إلى الوراء فجأة بغير انذار. ولما قلت له أنك تبحث عنه، ضحك وقال هل يريد أن يغلفنى ويضعنى على رف.. وقال عن كتبه لما عرض ذكرها: إن خيرها ما لم يكتبه.. ولا تزال أسنانه باقيا بعضها، وقد قال لى إن متانتها وسلامتها من الآفات هما السبب في بقاءه حيا إلى الآن.. ولما قلت له إن من واجبه أن يملئ مذكراته على بعضهم، صاح بى: «أعوذ بالله يا شيخ.. حرام عليك.. اتق الله فى يابنى».

فسأل جميل بك: «وماذا كان يعمل كل هذه السنين الطويلة»؟

– أوه كل شىء.. قال لى أنه لم يعيش لنفسه ساعة واحدة أيام كان يشتغل بالأدب، وأن كل ما كان يرى نفسه تشتهييه كان يرى أنه محروم منه. وكان مما يثقل عليه جدا أنه لا يرى نفسه يفعل إلا ما يكره فهو لا يحب المجالس التى يكثر فيها الناس ولا يرتاح إلى أحاديثها ولا يغتبط بالزوار ويحب أن يشعر أن بيته حصن منيع لا يقتحم، ويود ألا يجلس إلا الذين يصطفيهم من الإخوان ويأنس بهم ويطمئن إليهم، ولكنه كان يجد – لسبب خارج عن إرادته بل ضد إرادته – أنه يعيش كما يعيش الناس، ويفعل ما يستثقل، ويحرم ما يحب، وقد كبر فى ظنه أنه سيظل حياته هكذا. ولم يستطع أن يروض نفسه على السكون إلى هذه الحياة أو أن يوطنها على احتمال هذا التقيد الذى لا يعرف ماذا يفرضه عليه، وشق عليه أن يظل هكذا.. يعرف أنه حر ولا ينعم مع

ذلك بحريته، فكره هذه الحرية الظاهرية، ومل السخط على نفسه.. وود لو أنه مقيد حقيقة بإرادة غيره ليتسنى له على الأقل أن ينحى باللائمة على هذه الإرادة الخارجية ويجعلها غرضاً لذمه وطعنه. ولهذا فر من مصر والتحق بشركة أجنبية للملاحة، وركب على بواخرها البحار.. وأقام في الموانئ مندوباً لها، ثم ترك ذلك وعمل وكيلًا تجاريًا يجوب المدن ويذرع الأرض داعياً مرغباً، ثم انقلب مدرسا للغة العربية في بلاد الأفغان حتى أقعدته الشيخوخة ولم تقعه في الحقيقة، ولكن الناس كانوا يرون أن سنه علت فهم يزهدون فيه من أجل ذلك ويؤثرون من هم أدنى منه سناً، وكان قد جمع مالا في رحلاته الكثيرة فصار ينفق من رأس ماله حتى قارب النفاذ فعاد إلى مصر فدخلها ومعه نحو تسعين جنيهاً. قال لى — وهو يضحك: إنه حدث نفسه أنه ينبغي أن يموت بعد أن تنفد، فما له رزق سواها. ولكنه كان يخرج ويتردد على المكاتب التجارية، فأنس به أصحابها وأدركوا أنه عالم وأن في وسعهم أن يستغلوه، فكان يضبط لهم الكتب القديمة التي يعيدون طبعها، وساعده ذلك على إطالة عمره، فقد أغناه عن الإنفاق من رأس ماله أو ما بقى منه. ومعنى ذلك عنده أن عمره طال لأنه يحسب عمره بما لديه من المال، فعلى حسب كثرته أو قلته يكون ما بقى له في الدنيا من السنين.. فهل رأيت أعجب من هذا؟

فأطرق جميل بك شيئاً، ثم رفع رأسه وقال: «لا شك أن الأمر عجيب ولكن ابنه ... ألم يأخذه بعد أن اهتدى إليه؟»

فقال سعيد: «أوه.. إن الرجل شاذ كما تعرف وقد أبى كل الإباء أن يذهب إلى بيت ابنه، لأن هذا خليق أن يحدث في رأيه اضطراباً لا داعى له في حياة ابنه. وقد أطلال النظر إلى البذلة الأنيقة التي يلبسها ابنه، ثم ألقى نظرة على الجلباب البسيطة الذى يرتديه هو وأشار بيده المعروفة إلى الثوبين، وقال: «دعنى لشأنى، فإنه غير شأنك» ولم يزد بعد على الابتسام كلما ألح عليه ابنه في القيام معه..»

فقال جميل بك: «والآن ألا نستطيع أن نصنع شيئاً لهذا الرجل الذى كشفنا عنه؟ إن رجال الآثار يملأون الدنيا ضوضاء كلما وقعوا على حجر قديم، أفلا ينبغي أن ننبه الناس إلى حقيقة هذا الرجل الذى لا يزال حياً وإن كان محسوباً في أهل القرون الخالية؟»

فقال سعيد: «بالطبع نستطيع.. يمكن مثلاً أن نقيم احتفالاً كبيراً في أكبر الفنادق ندعو إليه رجال الأدب والعلم والصحافة وطائفة من كبار الرجال ونقدم إليهم صاحبنا.. غرابة الموضوع نفسه كفيلة وحدها بنجاح الحفل.»

فهز جميل بك رأسه، وقال: «لا شك.. ولكن صاحبنا لا يبالي هذا ولا فائدة له منه على كل حال، وأنا أخشى إذا دعونا إلى الاكتتاب أن لا نفوز بشيء يستحق الذكر.. فنكون قد أهنا الرجل بلا داع.. ثم من يدري.. فقد يأبى هذا وذاك..».

فقال سعيد، وهو ينهض: «أقول لك.. دع هذا لى. والله الموفق».

لم يكن الأستاذ عبد القادر التميمي يبرح بيته، وكان يجلس طول النهار على سريره الضيق تحت النافذة ويطل منها ولا يكاد يحول عينه عنها. ولم يكن يرى شيئاً في الحقيقة الا أشكال المباني القريبة، وذاك لضعف بصره.. ولكنه لم يكن ينظر ليرى شيئاً، ولا كان يعنى بأن يرى أو أن تأخذ عينه المناظر، وإنما كان يحدق كالذاهل. وكانت أسارير وجهه المتجدد تنبسط أو تعمق الأخاديد التي حفرها الزمن، فيخيل إلى الناظر إليه أن هذا وقع ما يشاهده. ولكن الحقيقة كانت خلاف ذلك وعلى نقيضه، فما كان يبصر شيئاً وإنما كان يدير عينه في قلبه أى في ماضيه، فيبدو عليه السرور أو الألم أو غير ذلك، كما يبدو على وجه من يشاهد قصة معروضة في دار السينما. وكان سعيد يزوره كل يوم مرة — وأحياناً مرتين — في اليوم ويصغى إليه — أكثر الوقت، وهو يهضب ويسح بذكرياته التي لا آخر لها وقال له مرة: «ما رأيك يا أستاذ.. أن خبر عودتك قد شاع وذاع بين الأدباء ورجال الصحف وكلهم متلهف على رؤيتك».

فقال بإيجاز: «فليتلفوا». فقال سعيد: «ولكنهم لابد أن يصلوا إليك في النهاية.. كما وصلت أنا.. ولا سبيل إلى صدهم». فتجهم الرجل وقال: «ولكن يجب أن يُمنعوا.. إن المكان لا يليق.. ما العمل.. أشر..» قال: «اسمع منى وأطعنى.. خير ما يمكن أن نصنع هو أن يروك كلهم دفعة واحدة». قال: «ولكن كيف يتسنى ذلك؟ هذا مستحيل». قال: «كلا.. الضرورة تفتق الحيلة.. وقد رأى المعجبون بك أن خير ما يصنع هو أن يقيموا حفلة يدعون إليها الأدباء والعلماء ورجال الصحف ورجال الدولة أيضاً.. فنفرغ من الأمر كله في ساعة». قال: «ساعة؟ يا حفيظ.. قال: «هذا أهون من أن تظل كل يوم ساعة معرضاً لحضورهم إلى هنا وإزعاجك.. فكر..». قال: «صدقت.. ولكن حفلة؟ حفلة. إن هذا صعب».

قال: «لماذا.. أين الصعوبة؟ ما عليك إلا أن تحضر وتجلس معهم ساعة أو بعض ساعة ثم ننصرف جميعاً، وكفى الله المؤمنين القتال».

فأطرق الرجل قليلاً ثم قال: «ولكنى لا أريد أن أختصر حياتى.. إنى أستطيع أن أعيش.. دعنى أنظر..».

فعالجه سعيد حتى صرفه عن التفكير فيما تكلفه الحفلة من النفقات للثياب، فقد كان هذا هو الذى يفكر فيه ويستثقله خوفا على عمره.

ولكن المشكل لم يُحلَّ مع ذلك، فقد كان ابنه على بك — فقد صار بيكا — عبد القادر التميمي، فى حيرة شديدة من أمره من جراء عناد أبيه، فإنه — أى على بك — رجل ذو مركز ومقام فى المجتمع، وقد زوج ابنته منذ عهد قريب لرجل له مركز ومقام فى المجتمع أيضا، وليس يليق أن يكون أبوه — أى أبو على بك — هذا الرجل الرث الهيئة الزرى اللباس الرقيق الحال الساكن فى غرفة حقيرة فى رُبْع عتيق أو جديد إذا أمكن أن يكون هناك ربع جديد — وقد استطاع أن يرجئ لقاء بنيه ونسيبه لهذا الأب الذى جاء من حيث لم يكن يحتسب، فقد زعم لهم أن العثور عليه أو الاهتداء إليه أحدث له رجّة عصبية يحسن معها اتقاء إزعاجه إلى حين. ولكن الصحف بدأت تكتب وتفويض، ولا سبيل إلى كبح الصحف أو صرفها عن الموضوع.. فما كل يوم يختفى أديب كانت له شهرة واسعة، ثم يظهر بعد أربعين سنة. وقد حرص جميل بك وسعيد أفندى على إخفاء مسكن الرجل، ولكن الصحف لا يسعها أن تصبر على ذلك.. ومن حقها أن تعرف أين يسكن أو يقيم وإلا كانت معذورة إذا هى استرايت فى الأمر كله. أضف إلى ذلك أن حفلة ستقام ويشهدها مئات من الخلق. وقد كانت فكرة الحفلة هى التى أعانت جميل بك على إقناع الصحف بالصبر والانتظار، وجعلت الموضوع شيقا وخليقا أن يجد القراء فيه مثل لذة الأساطير. ولكن هذا لا يمكن أن يدوم ولا مفر آخر الأمر من كشف الحقيقة كلها، فما العمل؟

لهذا لجأ إلى سعيد وجميل بك ورجا منهما أن ينقذاه ويحولوا دون الفضيحة التى يجزع منها ولا يعرف له قدرة على احتمالها، فاتفق الثلاثة أن يحملوا الرجل — ظهر يوم الحفلة — بعد أن يلبسوه بذلة إلى بيت ابنه، ومن هناك يذهبون به إلى الحفلة فى المساء.

وجاء يوم الاحتفال، فذهب إليه سعيد بعد الظهر ومعه ثياب أراد أن يلبسه إياها.. فأبى واستكبر وغضب أيضا، وقال إنه ليست به حاجة إلى ثياب ولا إلى أحد من الناس، وإنه لا يريد أن يحضر هذه الحفلة أو يرى وجه إنسان، وإنه ما يعيب ثيابه على كل حال؟ أليس قد قابل بها الناس فى مصر وفلسطين والشام والحجاز والأفغان والعراق وإيران.. فاذا كانت لا تكفى هؤلاء المعجبين به والذين يريدون أن يحتفوا ببعثه، فإنه

يحسن بسعيد أن يحمل إليهم ما جاء به من الثياب على مشجب، ويقول لهم إن هذا ما يطلبون وهو كل ما يستحقون أن يروا.

ولم يقل هذه الألفاظ بعينها ولا ما يقرب منها، بل فاه بما هو أعنف. وكان صوته متهدجا وكلامه متقطعاً، وكانت لحيته الطويلة الكتّة تضطرب وأسنانه الباقية تصطك، فلم يجد سعيد بُدّاً من السكوت والكف عن الإلحاح عليه بعد أن وضحت له قلة جدواه، وسأل الله في سره الستر والسلامة في هذه الليلة.

وخرجا من الغرفة.. سعيد في ثيابه الإفرنجية التي يلبسها الأفندية من أمثاله، والأستاذ التيمى في جلباب فضفاض وجبة قديمة وحذاء أصفر صارت الرقع فيه أكثر من الأصل فكأنه مركوب أبى القاسم، وطربوش مصرى سوى أنه طرى وعليه لغة كانت في الأصل مزركشة فأصبحت ألوانها حائلة باهتة.

وكان سعيد قد جاء في مركبة وتركها تنتظر في الطريق أمام الباب، فأحاط بها غلمان الحارة.. هذا ينط على السلم وذاك يعبث بالغطاء ويطويه وينشره ويكرر ذلك مرات، والسائق يصيح بهم أن يكفوا ويلعن الساعة التي دخل فيها هذه الحارة، ويقرقع بسوطه ليزجرهم ويخيفهم فينفضون متضاحكين ثم يعودون إلى غيهم حتى كاد عقل السائق يطير. فلما ركب الرجلان راح الغلمان يجرون وراء المركبة ويتعلقون بها من خلفها ويصيحون، والسائق يلوح لهم بالسوط ويضرب به ظهر الغطاء حتى خرج إلى الطريق العام.

ولا نطيل.. ولا نحاول أن نصف لقاء الرجل بأحفاده، فقد خاب أمل الأسرة كلها حين رآه أعضاؤها وأخذت عيونهم الفاحصة قدم الثياب ورثاتها. وكان ابنه أعظمهم خيبة أمل وأشدهم قلقاً واضطراباً، ولا سيما حين عرف إصرار أبيه على هذه الثياب الوضيعة المخجلة حتى لقد أشفق عليه سعيد أفندى أن يفلج، فراح يحاور الأستاذ التيمى ويداوره مرة أخرى عسى أن يهديه الله.. ولكن الرجل كان جبلاً لا يتزعزع، ولما قال: «أنا كما أنا.. فمن كان يقبلنى على علاتى فأهلاً به، وإلا فإنى أرجع إلى غرفتى.. فما طلبت أن أجيء ولا أردت أن يعرف ابنى أو سواه أنى على قيد الحياة»، عندئذ أمسك سعيد أفندى وأقصر.

وكانت الحفلة في فندق من أكبر فنادق المدينة وفي أوسع قاعاتها، وقد دُعِيَ إليها — أو على الأصح اشترك فيها — نحو مائتين من رجال الأدب والعلم والصحافة والحكم والوجاهة. وكان أكثرهم قد بكر وجاء قبل الموعد.. وجاء غير المدعويين — أو المشتركين

— كثيرون، وقفوا بحيث يرون الداخلين، واحتشد جمهور غفير على الرصيف ليروا هذا الأديب الذي بُعث بعد أربعين سنة، والذي دأبت الصحف عدة أيام متوالية على الكتابة عنه. واستعد المصورون لاستقباله وتصويره في القاعة الكبرى بالآتهم ومصابيحهم القوية.

ثم أقبل أحد الشبان يعدو، وقال: «جاء الأستاذ»، فساد السكون وانقطع حتى الهمس وتعلقت الأنفاس واشترأبت الأعناق، واتجهت العيون إلى الباب لرؤية هذا الذي كأنما قام من القبر. ودخل الأستاذ في الثياب التي أبى سواها، وقد أخذ بذراعيه جميل بك وسعيد أفندي، وأقبل ابنه وراءهم. ولكن الناس لم يعيروا الابن أدنى التفات وإنما كانت عيونهم على هذا الرجل الهرم ذي الثياب العتيقة واللحية البيضاء والجبين المقطب والعين الثابتة اللماعة وإن كانت لا ترى إلا قليلا. وكان قد ثقل عليه ما رأى من ابنه، فألى ليرجعن إلى غرفته. وعرض جميل بك المدعويين على الأستاذ بأسمائهم، فصافحوه واحدا بعد واحد حتى كاد ينخلع ذراعه وإن كانوا جميعا قد ترفقوا به وحرصوا على الاكتفاء بلمس راحته. ولم يبد عليهم ما خشيه ابنه من الاشمئزاز أو الاستخفاف، حين تقع عيونهم على ما هو فيه من الهلاهيل.

وأديرت ألوان الطعام، فكان الأستاذ يسأل عما يعرض عليه، ما اسمه؟ وكيف يصنع؟ ولا يتناول إلا بقدر. وكان المدعوون في أول الأمر يحدجونه بعيونهم، ولكنهم ما لبثوا أن انصرفوا إلى الطعام والحديث. ولكل شيء آخر — انتهى الأكل وبدأت الخطب والقصائد والأستاذ مطرق كأنه يصغى، وكان يهز رأسه من حين إلى حين كمن سره شيء — أو ما يسمع.

وانتهى هذا أيضا على طوله، فهمس جميل بك في أذن الأستاذ: «ألا تحب أن تتفضل بكلمة ترد بها عليهم؟»

فقال الأستاذ مستغربا: «أنا؟.. أقول كلمة؟.. أرد على ماذا؟ الحقيقة أنى لم أكن مصغيا.. لم أكن مصغيا.. لم يكن بالي إليهم».

فدعر جميل بك — فما كان يتوقع هذا — وقال: «ولكن يا أستاذ. لابد من كلمة.. لا نستطيع أن نقول لهم إنك لم تكن مصغيا إلى كلامهم.. أرجو يا أستاذ.. كلمة شكر قصيرة.. القليل منك كثير».

فهز الأستاذ كتفيه، وقال: «إن هذا غريب! لقد كنت أفكر في ليلة قضيتها في كهف..».

فقال جميل بك مقاطعاً: «فيما بعد الحفلة نسمع ماكنت تفكر فيه.. لابد أنه كان شيئاً غريباً.. ولكن الآن.. أرجو يا أستاذ».

فالتفت إليه، وقال: «ماذا قلت إنهم كانوا يقولون؟ إنى لم أكن مصغياً».

فقال جميل بك: «كانوا يثنون عليك ويمدحونك ويذكرون كتبك العديدة ويصفون ما فيها.. كلام كثير يصعب أن ألخصه لك الآن. أنا أيضاً قلت كلمة ولكنك لم تسمع مع الأسف.. نهايته.. لابد من الرد، فاصنع معروفاً».

وكان سعيد — حلال العضلات — قد أدرك وهو في مكانه أن في الأمر شيئاً، فحف إلى جميل.. فلما عرف المسألة انحنى على الأستاذ، وهمس في أذنه: «إن هؤلاء الناس خليقون أن يتوهموا أننا ضحكنا عليهم أو أننا مخدوعون، وأنت لست الأستاذ التيمى وإنما أنت رجل غيره ينتحل اسمه، فقم قل كلمة وإلا...» ولم يتمها فقد نهض الأستاذ معبسا، ورفع رأسه كأنما يحاول أن يقيم ما قوسه الزمن، وكانت لحيته تضطرب، وشفته تختلج، وكفاه لا تثبتان على المائدة التي وقف معتمدا عليها، وظل هكذا نحو دقيقة كان من الواضح في أثنائها أنه يعالج نفسه ليردها إلى السكون، ويحاول أن يضبط أعصابه ويفيء بها إلى الاتزان ثم فتح فمه، وقال بصوت خافت: «أيها السادة» وسكت شيئاً وثبت حملاقه فكأنه تمثال نصب في مكانه، ثم ابتسم فجأة وبدأ يتكلم بلا توقف. ولم يشكرهم كما رجا منه جميل بك، بل قال لهم في صراحة سرت فريقا وساءت آخرين، إنه وجد بالتجربة الطويلة أن من العسير أن يهرب المرء في هذه الدنيا من الناس — ومن الأدب والأدباء وعشاق الأدب على الخصوص — المخلصين والمتكلمين والذين يظلون يوحون إلى نفوسهم أنهم يحبون الأدب حتى يؤمنوا بذلك. كلا، لا سبيل إلى الهرب.. وطالب الفرار لابد له من الجرى الطويل والذهاب إلى أبعد مما كانت الحاجة تدعو إليه قبل نصف قرن. وهو يتكلم عن خبرة فيجب أن يصدقوه، بل إن وجوده الليلة بينهم دليل مادي على تعذر الهرب في هذا الزمان الذى امتد به العمر إليه. وكيف يهرب الإنسان؟ إلى أى مكان يذهب وكل مكان فيه ناس؟ وقد صار الناس أكثر والاتصال بينهم أسرع وأسهل.. ومن أى مكان يهرب؟ إن الهرب الصحيح مستحيل.. وقد يستطيع المرء أن يعيش في الصين، ولكنه لا يستطيع أن ينكر أو ينسى أن القاهرة والإسكندرية ودمشق والقدس موجودة. والهرب من الزمان أصعب. نعم، يتوهم المرء أنه يعيش لا في الحاضر بل في المستقبل وللمستقبل، ويروح يعزى نفسه عما هو كائن بما يزعم أنه سيكون، ويذهب يعمل ليقلب الدنيا ويجعلها كما ينبغى أن

تكون، «إني أؤكد لكم أنى أعرف هذا. فقد فعلته — أعنى توهمته — وعشت في سكرة طويلة ونشوة مستمرة وحلم دائم بما سيكون».

وقال لهم إن هذا كله عبث في عبث، وأكد لهم أنه لا مسوغ على الإطلاق لأن يفترض الإنسان أن للجنس الإنساني مستقبلا.. هذا أولا. وثانيا أن ما نسعى له ونلح في طلبه أو تمنيه، قد يكون مستحيل التحقيق. وهب أن تحقيقه ميسور، فقد يتبين أنه ليس مما يسيغه أو يرتاح إليه أو يرضى به الجنس الإنساني. وسألهم هل هم يعتقدون أن الإنسان ينشد السعادة؟ ولو كانت السعادة الدائمة الخالدة التي لا تزول ولا تتغير ممكنة، ألا يستفزعها الإنسان ويفرق من تحقيقها؟ على أن التفكير في المستقبل والسعى له لا يمنعان أن الحاضر موجود وأنه مؤثر بوجوده.. وهناك مهرب آخر إذ يتعلق المرء بالمثل العليا وصور الكمال، ولكن اللجوء إلى الخيال لا ينفي الحقائق المحيطة بالإنسان. وانتهى إلى أن المهرب الوحيد الصحيح لا يكون في الحياة وهذا لا يعد مهربا، لأن المرء لا يشعر به ولا ينعم بإدراكه أنه استطاع الهرب.. ولو كان هذا مهربا حقيقيا للجا إليه! وابتسم وقال إنه يرجو أن لا يلجئوه إلى هذا الذى ليس مهربا..

واستطرد بطريقة ما إلى كتبه وما يلقي التكريم من أجله، فقال إنه واثق أن أكثر الموجودين لم يسمعوا باسمه، ولم يكونوا يعلمون أن له كتبا، وأن الذين قرأوها فهموا منها غير ما أراد، وقد يكون هذا عيبه هو كما قد يكون عيبهم هم، ولكنه الواقع على كل حال. والمجتمع لا ينتظم أمره إلا بالمجاملة وهى شىء حسن فى ذاته، ولكنه هو فرغ من ذلك كله وأخرجته سنه من المجتمع وأعفته من ضروراته. وهو ليس من هذا الزمن، فيحسن أن يرتد ويتراجع إلى ما أخرجوه منه لأنه ليس إلا قطعة متخلفة من زمن سابق، ولا شك أنهم أدركوا غلطتهم حين خرجوا به إلى زمانهم.

وظل يهضب على هذا النحو الذى لم يكن منتظرا ولا كان فى حساب أحد. وطال الأمر فمل الناس وأحس هو الهمس.. فلم يترفق بالذين ضجروا كأنما أراد أن ينتقم لنفسه أو أن يبغضها إليهم فيتركوه بعد ذلك فى سلام. ولم يطق البعض المقام أو طوله، فتنسلل خارجا وتبعه غيره وغيره حتى لم يبق إلا ما دون النصف.

ولكل شىء آخر.. عاد الأستاذ إلى غرفته لا إلى بيت ابنه واستلقى على فراشه بثيابه، فقد أضناه الكلام والوقوف أكثر من ساعة ونصف ساعة.

وفى الصباح جمع ثيابه وأشياءه، وانتقل إلى ريع آخر.

وجاء سعيد بصحف الصباح وفيها وصف الحفلة التى ظلت أياما تدعو لها وتروج، وفى صدر أكثرها خطبته التى عنى سعيد بتدوينها.

الهارب

فلم يجد الأستاذ، وأعياه أن يعرف أين ذهب.. فأسرع إلى ابنه علي بك يخبره ويسأله ما العمل، فقال علي بك وهو يرسل الدخان في الهواء: «أظن أن الواجب أن نحترم إرادته ونعفيه من الإثقال عليه».

فمضى عنه سعيد وهو يهز رأسه ويفكر في علي بك، أكثر مما يفكر فيمن عاد فاختقى.

الفصل التاسع

النسيان

– إنك قاس..

– أنا؟ يا خبر أسود! وهل في هذه الدنيا الطويلة العريضة من هو أرق منى قلبا؟
– ولكنه أبى.. أنا أتألم.
– أعرف أنه أبوك.. وأعرف أيضا أنه نادر، وأنه منقطع القرين.. أيكفى هذا الثناء
أم تريدين الزيادة؟ يكفى؟ حسن.. ولكن زهوله يضحك الثكلى، فماذا أصنع؟.. ما
حيلتى؟

فأقلت الفتاة بلهجة مبطنة بالعتاب: «ولكن هل من الضروري أن تقلده؟ إن هذا
هو الذى يسوءني منك».

فقلت: «فكرى يا فتاتى.. قولى لى كيف يمكن أن أقص عليك الحكاية وأصف لك
ما حدث بغير ذلك.. إنى لا أريد تقليده، ولكن الصدق فى الرواية والفن فى عرضها
يتطلبان ذلك.. بل يجيء منى التقليد عفوا وعلى غير عمد» فاقتنعت أو هى لم تقتنع،
ولكنى كنت قبل أن يدور هذا الحوار، قد شرعت أقص عليها حادثة جديدة من حوادثه
التي لا آخر لها.. فلما احتجت إلى تقليده فى بعض مواقفها ضحكت، ثم انقلبت تعاتب
وتستهجن التقليد وتعيب المحاكاة. وهذا بعض ما يحيرنى من المرأة، فقد كان ضحكها
وعتابها فى وقت معا، وكانت تضحك وتشير إلى بيدها منكرة ماترى وتسمع منى.

وقد عرفتها من أبيها، وبفضل زهوله العجيب. وكانت تخرج معه لتقيه عواقب
ما يقع منه. فكأنها وهى ترافقه وتروح وتجىء معه، ذاكرته الزاهبة. واتفق يوما أن
نسيها – نعم نسيها – وخرج وحده، واهتدى – لا يدرى أحد كيف؟ – إلى ناد لم
أكن أعرف أن مثله موجود فى بلادنا، فإن حياة الأندية طارئة وعهدنا بها حديث جدا.
وكنت قد دعيت فى تلك الليلة إلى زيارة هذا النادى، وقضاء بعض الوقت فيه.. وكان

الذي دعاني يرجو أن أنضم إليه ويحثنى على ذلك ويزينه لى، وأنا أتأبى وأبين له أن حياة الأندية في مصر جافة ثقيلة، وأنها قلما تكون إلا حياة مقامرة أو ما أشبه ذلك، فيضحك منى وينفى ذلك ويقول: «تعال انظر بعينك ثم احكم» فذهبت وكان أول من لقينا هذا الشيخ ولم أكن أحتاج إلى من يعرفنى به، فإنه صديق قديم.. فأقبلت عليه وجلست معه فصفق، فلما جاء الخادم نظر إليه مستغربا ثم إلى أنا مستفهما. فقال الخادم، وكان يعرف زهوله: «هل تريد شيئا يا بك؟»

فقال البك: «أ.. أ.. أريد.. أريد.. ماذا أريد؟»

فكتمت الضحك، وقال الخادم: «لقد دعوتنى يا سيدى فهل أجيء لك بقدرح من الويسكى؟» فنسينى وقال: «أ.. أ.. نعم.. نعم.. نعم.. نعم نعم نعم..».

وذهب الخادم وعدنا إلى الحديث الذى لا يكون معه إلا محاورات ولغا من هنا وهاهنا، بسبب هذا الذهول الذى أصيب به. فقال بعد كلمات: «ولكنى أهملك.. إن هذا لا يليق.. اعذرنى.. لقد نسيت أن أدعو الخادم».

وصفق مرة أخرى، فلما جاء الخادم لم أقل شيئا انتظارا لما يكون منه، فقال له: «أ.. يا خليل.. هل طلبت منك شيئا؟»

فقال الخادم: «نعم.. قدحا من الويسكى».

فسأله: «هل جئت به؟ أعنى..».

قال: «لا يابك.. سأجىء به حالا».

ومضى عنا فصفقت أنا وطلبت ما طاب لى، فمال على الخادم وهمس في أذنى: «إذا سمحت لى يابك فإن اسمى عبده، ولكن البك ينسانى ويطلق على كل يوم اسما جديدا».

وسألنى الشيخ المسكين بعد أن ذهب الخادم: «ماذا يريد هذا الرجل؟ قلت: «لا شىء.. كان يقول إن اسمه عبده لا خليل». قال: «من هو؟»

قلت: «الخادم». قال: «ماله؟». قلت: «اسمه عبده». قال: «عبده؟». قلت: «نعم».

قال: «من عبده هذا؟». قلت: «الخادم».

وأحسست أنه سيعود فيسألنى: «ماله؟» وكان الويسكى قد أقبل به الرجل فقلت له: «آه.. هذه كأسك.. ومعها كأسى أيضا».

فنظر إلى كأنه لا يفهم ما أقول وسكت أنا، فما أدرى ماذا يدور في نفسه. وطال الأمر، فشعرت بالضيق.. فليس مما يخف محمله على النفس أن ترى غيرك يحدق في وجهك ولا يطرف. فنظرت إليه مستغربا، ولكنه كان كأنه لا يرانى وخيل إلى أنى في

طريق نظرتة، فتزحزحت عن مكاني إلى الورا قليلا وبقي هو ثابت الحملقة لا يشعر بي ولا بحركتي، فحولت وجهي إلى حيث ينظر فلم أر شيئا — أعنى أنى لم أر ما يستوجب هذا التحديق كله — فتركته لشأنه حتى يثوب إلى ويمل طول النظر. وبعد هنيهة، قال — وكأنه يحدث نفسه: «لم أر في حياتي إنسانا يأكل هكذا».

فدهشت وقلت: «إيه؟ كيف؟»

فأهمل سؤالي — أو لعله لم يسمعه — وسألني هو: «هل تقضم اللقمة وتبلعها بلا مضغ؟»

فزادت دهشتي، وقلت: «كلا بالطبع.. من قال لك أنى أصنع ذلك؟»

قال: «خفت أن تكون ممن يفعلون ذلك.. ليس أضر على المعدة منه..».

فسكت، فقد استطرنا إلى حديث لم يكن لى فى حساب، فعاد يقول: «كلا.. لا تفعل.. احذر..».

فقلت، وقد مللت: «ما الذى يُجرى ببالك هذا السؤال؟» قال: «إيه؟.. أى سؤال؟»

قلت: «المضغ والبلع، ولا أدري ماذا أيضا». قال: «ألا تمضغ طعامك؟» قلت: «بالطبع أمضغه.. لماذا تسأل؟»

قال: «خفت ألا تكون تمضغه.. لقد كان الطبيب يوصينى أن أمضغ اللقمة اثنتين وثلاثين مرة أو ثلاثا وثلاثين لا أدري.. الزيادة احتياط ينفع ولا يضر.. هل تفعل ذلك؟» فقلت لنفسي: إن النسيان فى ذاته وبمجردة ثقيل وبلاء عظيم، ولكنه يكون أعظم وأثقل إذا ألح على المصاب به خاطر واحد يحوم حوله العقل ولا يقع ولا يستقر، فأردت أن أصرفه عن ذلك، فسألته هل له فى كأس ثانية من الويسكى، وحدثت نفسى وأنا أسأله إن رؤيته مخمورا لا يكاد يعى ما يقول أفضل وأشبه بما ينبغى، وأقل استدعاء للعجب والاستغراب من تخليطه وهو مفيق صاح. ولكنه رد على سؤالي بسؤال أذهلنى، فقد قال مستغربا: «وهل شربت ويسكى؟» ووجه العجب فى كلامه أنه لم يشعر بالتأثير المألوف للخمر، فكأنه لا يسكر لأنه ينسى أنه شرب شيئا. ويظهر أن نسيانه هذا يعفيه من تأثير الخمر وينجيه من إسكارها، وصار السؤال الذى يحيرنى هو: «إذا كانت الخمر لا تؤثر فى نفسه أو جسمه أو عقله، فلماذا يشربها؟»

وبدا لى أن خير ما أصنع هو أن أعود به إلى بيته، فاقترحت ذلك فوافق ونهضنا. وحملته فى السيارة إلى هناك.. ولم يكن ينسى أين يسكن، ولكن الموقع كان يغيب عنه أحيانا وتخونه ذاكرته فيقف حائرا لا يدري ماذا يصنع حتى يتذكر أو يلقي من يعرف البيت فيسأله ويدله عليه أو يمضى به إليه.

وكانت بنته في النافذة تنتظر أوبته وهى قلقة خائفة عليه.. فأسرعت إلى الباب فتفتحه، وكانت ذكية فلم تعاتبه. وما جدوى عتاب من لا يتذكر شيئا؟ ودخل غرفته ونسينى مع فتاته.

وقالت لى: «ماذا حدث؟.. لا تدعنى معلقة.. طمئنى» قلت: «كل خير..» وشرعت أصف لها ما وقع منه وأقلده وهو ينظر إلى الرجل الأكلو المبطن الذى يعظم اللقم ويبلعها بلا مضغ، وقلت لها بعد ذلك: «إنى أحسد أباك فما أشك فى أنه قد نسى كل ما يجب أن ينساه المرء من متاعب الحياة ومنغصاتها لو كان إلى هذا سبيل غير الذهول». قالت: «إنى أخشى أن ينسى اسمه فلا يعود يعرف من هو، ألا تكون هذه مصيبة؟» قلت: «يا فتاتى إنه ليس أحق ولا أقل عقلا ممن يحمل هم المصيبة قبل نزولها.. دعى هذا إلى أوانه وعسى ألا يجىء. ومع ذلك هل أنت واثقة أنه يعرف اسمه؟ من يدرى؟ أمن أجل أنا لا نسأله عنه يكون عارفا؟» قالت: «لا تفزعنى». قلت: «إنما أردت أن أبين لك أن ما تخافين، لو وقع لما كان شرا فى الحقيقة أو أدهى مما هو حاصل الآن، فلا تزعجى نفسك بلا موجب. وعسى ألا يكون إلا كل خير.. والآن فلنتكلم عن شيء آخر.. شيء أحلى من أبيض وإن كان يكفيه من الحلاوة أنه كان له هذا الفضل العظيم على الدنيا التى تجملينها يا فتاتى».

فقلت وهى تضحك: «إنك لا تعرف إلا موضوعين حين تكون معى ... أنا وأبى». قلت: «وأنا.. أليس لى حساب عندك؟ ألا أصلح أن أكون موضوعا ثالثا معكما؟». قالت: «بالطبع.. ولكنك لست شيئا ثالثا.. موضوعك هو موضوعنا، فهما بيبقيان اثنين ليس إلا».

قلت بابتسامة أردت أن يكون لها معناها: «صحيح؟ بالذمة؟» قالت: «يا خبيث ليس هذا ما أعنى». قلت: «هذا الذى لا تعنيه، ما هو؟» قالت: «طيب اسكت بقى». قلت: «سكتنا يا ستى» ومددت يدي إلى كفها الرخص وأطبقت عليه أصابعى الخشنة، فتركتنى هنيهة ثم سحبت كفها فنظرت إليها فقالت: «أو لا تسكت؟» فلم أتكلم وأشرت إلى فمى المطبق فضحكت، فهزرت رأسى موافقا وأنا أبتسم، فعادت إلى الضحك، فعدت إلى إشارات الاستحسان والرضى. وتكرر هذا مرات، فصاحت بى: «ألا تنطق؟.. أين لسانك؟». فقلت وأنا أنظر إلى السماء — أعنى إلى السقف فقد كان يحجب السماء: «حرت والله معك.. أسكت طوعا لأمرك فلا يرضيك الصمت. وأتكم امتثالا لمشيئتك فلا يروك الكلام فماذا أصنع بالله؟.. كوني منصفة».

فضحكت، فقلت: «عندى اقتراح». قالت: «ما هو»؟ قلت: «هناك ما هو أبلغ من كل كلام وأحسن من الصمت أيضا وإن كان مما يحوج إليه ولا يتيسر الكلام معه».

فزوت ما بين عينيها، وقالت: «ما هذا»؟

قلت: «هل أفهم من تقطيعك أنك غير موافقة سلفا»؟ قالت: «لست مقطبة، ولكنى أفكر». قلت: «لماذا تتعين هذا الرأس الصغير بالتفكير؟ دعيه مرتاحا وتعالى تعمل بالاقتراح أولا، ثم نفكر بعد ذلك في جماله وما أفدناه من السرور به». قالت: «ولكن ما هو؟ ألا تقول لى أولا». قلت: «هو ذا» وملت عليها فلتمت فمها ورفعت عيني، فإذا أبوها واقف في مدخل الباب، فتنحنت ونهضت وقلت: «لقد كان بيننا رهان.. هي تقول إنك نسيته، وأنا أقول إنك لم تنس.. فهل نسيت»؟

فشغله الأمر الجديد عما سبقه، وأنساه ما رآه، وبدا عليه أنه لا يعرف أو على الأصح لا يذكر، هل نسينى أو لم ينسنى. وشعرت الفتاة أن الجو صفا وأن الأزمة انفرجت، فنهضت إليه وعانقته وقالت: «بالطبع نسيت.. أعترف بالحق».

فعدت ذاكرته تحاوره، وسألها: «الحق؟.. أى حق»؟ قالت: «إنك نسيت». قال: «نسيت.. نسيت ماذا»؟ فقلت لنفسى: إنك رأيتنى أقبل فتاتك يا مسكين.

ولقيت الفتاة بعد ذلك مرة، فقالت لى: «هل تعرف أنه يخيل إليه أنه رأى أقبل رجلا أو أن رجلا يقبلنى، ولكن هذا يطوف برأسه كالحلم.. بل هو فيما يعتقد حلم».

فسألته: قلت: «ماذا قلت له»؟ قالت: «قبلته فقط وماذا تريد أن تقول له»؟ «وأنا..

أليس لى شىء؟ أزعمينى كأبيك أو عمك وقبلىنى.. أم يجب أن أرسل لحيته أولا»؟ فصاحت بى: «احذر».

قلت: «أذن هاتيه.. حلوة طويلة».

الفصل العاشر

فتاة الحارة

كنا غلامين صغيرين وجارين صديقين، وكنت أنا أسن منه قليلا.. ولكن الفرق كان فرق شهور لا تُقدّم ولا تؤخر، لا فرق سنوات تباعد بين الناس. وكان الوقت صيفا والمدارس مغلقة، فلا عمل أكثر الوقت إلا اللعب في الشارع. وكان يفصل بيتنا بيت صغير لأرملة وبنتيها، وإحدهما في مثل سننا والأخرى أكبر بسنوات وأضخم جسما، وكنت أسمىها فيما بينى وبين صديقى «السقاء» لأن ثدييها كانا — فيما يبدو لى — كالقربتين. ولم أكن أرتاح إليها، ولكن أختها الصغيرة كانت أثيرة عندى وحببية إلىّ ... فكنت لهذا أصانعها، ولكن صدرى كان يضيق بها أحيانا فأغضبها وأمرى إلى الله. وكنت إذا زجرنى أهلى عن اللعب في الشارع، وملوا ترقيع الثياب التى ألبسها فى الصباح نظيفة سليمة فلا يجىء العصر إلا وهى ممزقة وعليها طوائف شتى من الأوحال والأقذار.. أقول كنت إذا نُهيت عن الشارع، أصدع إلى السطح وأتدلى منه إلى سطح الفتاة وأصفر لجارى فيوافينا، ونحدر جميعا إلى غرفة من غرف البيت أو إلى فنائه — وكان رحيبا — فنلعب ما حلا لنا اللعب حتى إذا أمسى الليل تفرقنا إلى بيوتنا. واتفق يوما أن كانت الفتاة معى فى ساحة الدار، وكنت قد تخلفت بعد زهاب صديقى وصعود الأخت الضخمة — أو «السقاء» كما كنت أسمىها — وكان باب البيت مواربا، فطوقتها — أعنى البنت الصغيرة لا السقاء — بذراعى وقبلتها، وكانت فيما أحس تلين لى فى العناق، ولكنها عبست فجأة وتفلتت منى ودفعت ذراعى عنها بعنف، وذهبت تعدو إلى السلم.. فتعلقت بأذيالها، ولكنها شدت الثوب أو على الأصح ضربته بيدها، فطار من يدى وصعدت بسرعة، وتركتنى واقفا أنظر وأتعجب.

وفي صباح اليوم التالي، قالت لى أمى فجأة ونحن على الطعام: «هل أنت بنت؟» فصحت مستغربا منكرا: «بنت؟» فقالت: «نعم، لماذا تلاعب البنات ولا تلاعب الأولاد من أمثالك؟»

فأطرقت استحياء وقد أدركت أنها تأخذ على شيئا وتستهن مصاحبتي لهذه الفتاة، ولم يخطر على بالى أن فى الأمر أكثر من هذا. وحان الظهر وجاء معه رجل تركى الأصل عتيق من أصدقاء أخى الأكبر — وكان يلزمه من الظهر إلى نصف الليل — وكان شعره أبيض ووجهه مغضنا، كما تبدو المدينة للمشرف عليها من قمة جبل شامخ، فصاح بى وأنا خارج: «تعال يا سيدى ... تعال». فوقفت مستغربا لهجته، وقلت: «نعم». فقال: «جارتك هذه، يظهر أنها تعجبك».

فغضبت وتألّت ولكنى تجلّدت، فقد كان إذا اعتبرنا السن يعدّ جدّا أعلى لى، وقلت: «نعم».

فضحك وتفل وفتل شاربيه الكثيفين، ثم قال: «لقد رأيتك البارحة تحضنها». فصحت به: «إيه؟ فأشار إلى بيده المتجددة المعروقة: «لا تغضب.. كلنا كنا صغارا.. ولكن يا ابنى..».

فلم أدعه يتمها وانصرفت عنه، وأنا أغلى من الغيظ والنقمة على هذا الطفيلي الوقح الذى لا شك أنه روى لأخى ما رأى منى، فلم يسع أخى إلا أن ينبه أمى.. فقد كان غير شفيق، وكان يؤثر أن يدع أمر تربيّتى لأمى.

وخرجت إلى الشارع أنفخ ولا أكلّم أحدا حتى ولا صديقى الأثير، وكان يرى ما عرانى فيلح على أن أفضى إليه بالأمر فلا أجد لسانى قادرا على الدوران. وانقطعت عن الفتاة أياما كان صديقى فى خلالها حائرا بينى وبين صاحبته، يعز عليه ألا يكون إلى جانبى وهو يرانى مهموما مكروبا لا أتسلى ولا أقول بشجوى وألمى، ويكون معى فيمل صمتى الذى لا أخرج عنه، وتصبو نفسه إلى مجالسة السقاء وأخيرا نفذ صبره، فقال لى يوما: «اسمع.. تعال معى إلى فوق».

وكان يعنى «بفوق» منزل الجارة، فنظرت إليه مستغربا كأنما كان عليه أن يعرف كل ما كتمت عنه فقال: «تعال.. قم.. قم».

فانحلّت العقدة وانطلق لسانى، وقلت له: «ماذا يعجبك فى هذه الفتاة؟ فتلعثم وأخذ يتنحج، ولم يزد على أن سأل: «إيه؟ قلت: «أو ماذا يعجبها فيك؟»

فرمانى بنظرة عتب ثم ابتسم ولم يقل شيئاً، وخيل إلى أنه لو كان له شاربان لفتلهما، ثم قال ببساطة: «الحقيقة أنى أحبها و و و وهى أيضا تحبنى». فوثبت إلى قدمى من فرط الدهشة، وتناولت كتفيه فهزتهما وصحت: «ماذا تقول؟.. أعد هذا». قال: «ماذا جرى لك؟ ألم تسمع؟ أحبها وتحبنى.. شىء بسيط جدا». ونحى يدي عن كتفيه.

وثابت إلى نفسى، فأطرقت قليلاً ثم سألته: «كيف حدث هذا؟ فقال: «لا أدرى كيف حدث؟ ولكنى أول من أمس سلمت عليها وجلست بجانبها ثم ملت عليها فقبلتها». فسألته وأنا فى دهشة: «قبلتها؟.. هل تعنى أنك قبلتها؟ فضحك وقال: «بالطبع أعنى أنى قبلتها.. ماذا تظننى أعنى غير ذلك؟ فسألته: «ولم يسؤها ذلك؟ لم تغضب ولم تذهب عنك ساخطة؟ فقال مستغرباً: «تغضب؟ لماذا تغضب؟ أما أنك لغريب». فقلت وأنا مطرق: «غريب!» فقال: «غريب؟ ما هو الغريب؟ قلت: «أعنى أنى أعرف واحداً قبل فتاة فسخطت عليه وولت منه هاربة». فقال ببساطة: «لابد أن يكون له وجه قرد».. وضحك.

وتركته وعدت إلى البيت، فكان أول ما صنعت أن نظرت فى المرأة وتأملت وجهى كما يبدو فى صقالها، ثم درت حول نفسى وعينى على جانبى وجهى ثم تنهدت وأقصرت.

وكان للفتاة — فتاتى أنا لا السقاء — قطة صغيرة عزيزة عليها، فاتفق أن مر كلب ضال، وكانت هى — أعنى القطة لا الفتاة — واقفة على العتبة، فدنا منها الكلب وهى غافلة، ولعلها كانت مغفية، فأحست أنفاسه وهو يشمها، ففتحت عينها وهى تتنأب وانتفضت مذعورة.. وثبت وثبة، قطعت بها عرض الشارع، ولم يكف هذا لإطمئنانها، فدخلت من باب ألفته مفتوحاً، وكان فى ساحة البيت شجرة «جميز» فانطلقت تتسلقها، ولم تزل تصعد فيها حتى صارت على أعلى فرع فيها. وكانت الفتاة قد بصرت بالقطة وهى تعدو مذعورة، وتدخل البيت المقابل لبيتها.. فأنحدرت مسرعة ودخلت وراءها ونظرت فلم تجد شيئاً، فارتدت إلى الباب وقد أغرورقت عيناها بالدموع. وأقبل صديقى فى هذه اللحظة فسألها عما بها، فقالت له إن الكلب أفرع القطة فهربت لا تدرى إلى أين وهى تخشى أن يأخذها الجيران.

فركل صديقى الكلب — أعنى أن صديقى ركل الكلب، والمعنى واضح فى الحقيقة ولكنى أوتر هذا الايضاح اتقاء لكل غلط — ودخل مع الفتاة البيت ووقفاً وأرهفاً

أذانهما، فسمعا مواء خافتا فتلفتا، ثم عرفا أن القطة على الشجرة فجعلا ينظران من هنا ومن ههنا ويميلان رأسيهما إلى اليمين والشمال حتى رأياها، وجعلت الفتاة تدعوها بأصوات مختلفة أن تنزل والقطة تأبى أن تطمئن وتخشى إغراء الأصوات المهيبه بها أن تنزل، فتصعد حتى بلغت القمة فدعت الفتاة صديقي أن يتسلق الشجرة ليجيئها بالقطة، فhez رأسه وقال لها: «حرام عليك.. هل تريدين أن أقع فأموت؟» فتوسلت إليه فلم يلن، وقال إن القطة لا تلبث متى هدأ روعها أن تنحدر من تلقاء نفسها. وكان هذا صحيحا فما يمكن أن تظل القطة على الشجرة طول عمرها، ولكن قلب الفتاة أبى أن يطمئن فخرجت باكية ورأيتهأ أنا فانطلقت أعدو إليها، وقد أحسست أن قلبي يتفطر، وسألتهأ ماذا يبكيها.. فقصت على الحكاية، وقالت إن صاحبي لا يريد أن يتسلق الشجرة خوفا على عمره، فقرضت أسناني وقلت: «أنا أفعل» ففرحت وأبرقت أسارير وجهها، وقالت: «صحيح»؟ قلت: «بالطبع صحيح.. وهل تظنين أنى مثله أخاف على عمري.. ومم أخاف»؟

وخلعت حذائي ورميت الطربوش وشرعت أتسلق الشجرة المخوفة حتى صرت بين أغصانها الغلاظ المتشابكة، وذهبت أزحف على الغصون السميقة التي يحمل الواحد منها جملا لا غلاما خفيفا مثلى حتى بعدت عن الأرض جدا، وحتى أنها كانت تكلمنى فلا أسمع وأصيح بها أن ترفع صوتها وأحتاج أن أنحنى وأفرق الأوراق لأرى أين هى. ولم أزل أصد حتى دنوت من القطة، ولكنها كانت مع ذلك لا تزال بعيدة، وشاء الحظ أن تخاف القطة فلفت حول الشجرة وأصبحت على فرع فى الناحية الأخرى، وكانت الفروع هناك أمتن وأسمك. فدرت كما دارت ومددت يدى فقبضت عليها ودسستها فى جيبى، وكان الهبوط أخطر من الصعود وأشق.. ولكن الله سلم.

وتناولت القطة منى بعد أن أخرجتها من جيبى، وكدت أخنقها وأنا أحاول إخراجها — فقد كان لا بد أن أقبض على عنقها لأتقى أسنانها وأظافرها — وأهوت عليها تقبلها وتضمها إلى صدرها وتمسح لها شعرها، كأنها طفل رضيع لا قطة لعينة كانت منذ دقيقة على قمة جميزة ضخمة تحاورنى وتعرض عنقى للدق وأنا مازلت فى مقتبل العمر. وكنت أنا أنظر إليها راضيا قرير العين فرفعت عينها إلىّ، والقطة مضمومة إلى صدرها، وقالت إنها مدينة لى بالشكر ففركت كفى مسرورا ومرتبكا، فما كنت أنتظر شكرا ولا شبهه وإذا بها تصرخ فذعرت، فقالت: «يداك» فنظرت فيهما فألفيتهما مخدوشتين فأخفيتهما وراء ظهرى، وقلت إن هذا من لحاء الشجرة وسيزول

فتاة الحارة

ولا شك، فقالت: «لا.. تعال» فقلت: «إلى أين»؟ قالت: «معي.. أغسلهما لك في البيت.. مسكين..».

فنظرت إليهما مرة أخرى، وقلت: «فكرة..». ودخلنا البيت معا.. ونسينا صديقي في بيت الجار.. تحت الشجرة. ووصلت القطة المستنقذة ما كان قد انقطع.

الفصل الحادي عشر

في رأس السنة

دهش الثلاثة ووقفوا حيث هم — أذانهم مرهفة، وأحداقهم ثابتة، وأنفاسهم معلقة. وكانت الليلة ليلة العام الجديد — أو رأسه — وقد تهيأ حامد للخروج، ولبس ثياب السهرة وأدار الراديو وراح يتمشى في الغرفة، ريثما تجيء جارته فتنقر له على النافذة المفتوحة.. فيمضى بها إلى العشاء والرقص والمرح. وكانت الإذاعة في تلك اللحظة رواية متخيرة، ولكن حامدا لم يكن باله إليها وإنما أراد أن يغرق ضجات الطريق المتقطعة في ضجة أخرى أكبر لأنها أدنى — لا تنقطع ولا تفتت فيألفها ويتسنى له أن يفكر، بعد أن تسكن أعصابه إلى وقعها المتصل، في أمره مع جارته أو فيما ينبغي أن يصنع ليحمل أباه العتيق الطراز على الرضى بما تقتضيه حياة العصر الجديد. ولم تكن به حاجة إلى أبيه، ولكنه لم يكن يريد أن يفسد بينهما الحال أو أن يضيف إلى عبء السنين التي يحملها عبء الشعور بخيبة الأمل — إذا وسعه ألا يفعل. وكان أبوه في تلك اللحظة قد دخل بالمفتاح الذي أعطاه إياه حامد ليروح ويجيء كما يشاء. ولم يشعر به حامد لأن خواطره كانت تستغرقه ولأن الراديو كان أعلى من أن يسمح بالالتفات إلى باب يفتح أو يغلق، ثم لأن الرجل لم يكد يرد الباب حتى وقف مذهولا، فقد سمع ضحكات نساء ولغط رجال، وكان ريفيا ساذجا فيه ورع وتقوى يعرف الراديو ويصغى بخشوع إلى ما يذاع من كتاب الله، وقد يتفق له أن يسمع بعض المقطوعات الموسيقية.. ولكنه لم يشهد في حياته رواية تمثل، ولم يخرج عن عاداته في التبكير في النوم إلا في الفلنات القليلة. فإذا كان قد وقف الآن مستغربا منكرا، فلا شك أنه كان معذورا. ولم يكن يفهم شيئا من الأصوات التي تأدى إليه أو يفطن إلى دلالة الكلام. وكان المذيع يصف حركة الروليت بعد أن توضع النقود، وتذهب العجلة تدور وتخفت الأصوات انتظارا لوقوف الكرة عند الرقم السعيد.. ولكن الرجل لم يكن يعرف أن هذا مذيع يصف للسامعين

ما لا يرون، بل كان يظنه أحد رفقاء حامد ابنه في سهرة جمع فيها طوائف شتى من الرجال والنساء.. نعم والنساء فما في هذا شك، أليست هذه امرأة تقول: «أسرع يا ميمي.. أسرع.. بين الـ ٧ والـ ٨...».

وهذا صوت رجل يصيح: «لالالا.. هذا من حق لولو.. نعم فقد رأيت ما حدث.. البيك نقل الورق عن موضعه بكفه، وهو لا يدري».

وها هي الفتاة تعود إلى الكلام مرة أخرى، وتقول: «مرسى يا حبيبي.. ميل مرسى».. فيقول الرجل الأول، هو بعينه بالتأكيد فإن الصوت واحد: «العفو.. لقد رأيت كل شيء، وإذا كنت تسمحين بأن أقدم إليك نصيحة رجل مجرب.. فنصيحتي أن تكفى عن اللعب، فإن مثل هذه الغلطة في العادة تكون إيذانا بانتهاء حظ اللاعب».

لعب ... نصيحة ... حظ ... نساء ورجال ... ما معنى كل هذا يا ترى؟ في هذا وقف الرجل المسكين يفكر. وكان يفكر في شيء آخر هو هل يدخل فيعرف الحقيقة كائنة ما كانت أو يخرج ويدع ابنه لشأنه؟ ولكن كيف يستطيع أن يخرج ويدع ابنه.. وكيف يدخل ومعه نساء غريبات؟

ولم يكن هذا الأب الساذج هو الحائر الوحيد في تلك اللحظة، فقد كان هناك رجل آخر من طراز غير طرازه وجد باب المطبخ مواربا.. فتسلل منه ودخل على أطراف أصابعه وفي مرجوه أن يخفف عن صاحب البيت — وعن نفسه أيضا — ولم يكذب يبلغ باب الدهليز حتى صافح سمعه هذا اللغظ الكثير المنبعث من غرفة الاستقبال، ولم يكن كالأخر ساذجا فلم يلبث أن فطن إلى أن ههنا أناسا يقامرون، فسمرتة الدهشة والحيرة، فقد كان يظن البيت خاليا فإذا هو عامر بل غاص بالخلق. وكان سبب حيرته أن وجود هؤلاء اللاعبين جميعا يجعل فرصة الغنم في ليلته هذه أكبر، والورق أخف محملا وأخفى أمرا، وحامله أقل تعرضا للاعتقال، ولكن كثرة الموجودين تجعل تعرضه للوقوع في المحذور أشد فماذا يصنع؟ يأخذ بالأسلم فيعود من حيث جاء، أم يذعن للإغراء فيبقى؟ ولا سيما والأرجح أن القوم يشربون وبعد قليل يسكرون.. على أن الأمر خرج من يديه، فقد جاء اللبان في هذه اللحظة ووقف بباب المطبخ كعادته، ورفع صوته بكلمة واحدة ولكنها طويلة ممطوطة «لبن» فريح الرجل ووثب ودار حول نفسه، فقال اللبان: «اللين.. عايزين لبن الليلة»؟

فمشى إليه الرجل كالمضروب على أم رأسه، فعاد اللبان يسأله: «عايزين لبن والا إيه؟.. ما ترد».

في رأس السنة

فأفاق الرجل وأشار إليه، وقال: «هس.. هس».
فاستغرب اللبان وقال: «هس إيه.. عايزين لبن.. أنت مين قبله؟»
فألهم أن يقول: «أنا الخادم الجديد».
فقال اللبان: «طيب ما تقول كده من الصبح! عايز كام؟»
- واحدة.

فناوله سلطانية ووقف ينتظر وصاحبنا ينظر إلى الدهليز، ثم قال اللبان: «ماتجيب
امال خلينى أروح لحالى».
قال المسكين: «أجيب.. إيه؟»
- حق السلطانية.

فألهم مرة أخرى أن يقول: «الصبح.. عندنا ضيوف.. ما أقدرش أنادى سيدى
دلوقت».

فمشى اللبان ومسح الرجل عرقه ووقف يستعيد انتظام أنفاسه، وقد دار برأسه
أن خير ما يصنع هو أن يخرج وراء اللبان وأمره الله في هذه الليلة المنحوسة، ولكن
القدر أبى إلا أن يعد له مفاجأة أخرى أدهى وأمرّ.
ذلك أن الفتاة كانت قد وصلت ونقرت على حافة النافذة، فحف إليها حامد وانثنى
على النافذة يقبلها، ثم اعتدل وهم بأن يقول لها إنه سيخرج لها حالا وإذا بها تستوقفه
وتسأله: «من عندك؟» وتشير إلى الدهليز، فقد رأت بابه يختفى فيه شبح، فعجب حامد
لسؤالها ونفى لها أن أحدا عنده، ثم نظر إلى حيث كانت تنظر محدقة فخيل إليه
أنه يسمع أصواتا، فقال: «انتظري» وخرج.. ولكنها لم تنتظر، فقد كانت فتاة عملية،
وكانت تحب حامدا وتقرأ الروايات البوليسية، فجمح بها خيالها وجسم لها الأمر،
وأوهما أن خطرا عظيما قد أحدق بفتاها.. فذهبت تعدو إلى أقرب شرطى وجرته من
ذراعها جرا، فقد كانت خطوته بطيئة وهى تريد أن تطير.
وفى أثناء ذلك كان حامد قد خرج، فألفى أباه واقفا وراء باب الشقة، فقال حين
رآه: «يا شيخ ظنناك لصا».

فسأله أبوه: «من عندك؟» فخطر لحامد أن هذا هو الليلة سؤال الناس كلهم،
فضحك وقال: «لا أحد.. لماذا لا تدخل؟ لماذا تقف هكذا؟»
وتذكر أن الفتاة واقفة عند النافذة، ولم يدر كيف يفسر لأبيه وجودها. نعم،
يستطيع أن يقول إنها جارته - وهذا صحيح - وأنها مرت به فوقفا يتبادلان التحية،

ولكن أباه رجل محافظ ثم إنه يريد أن يعرّف أباه بها أحسن تعريف. على أن تفكيره في هذا لم يطل، فقد سمع حركة في المطبخ فمشى إليه مستغربا وضغط زر الكهرباء.. فإذا صاحبنا الذي تركناه هناك حائرا بين البقاء والهرب يمد يده إلى سلطانية اللبن، وقد خطر له أن خير ما يصنع هو أن يأكلها قبل الخروج، فلا يكون قد خرج من المولد بلا حمص كما يقول المثل.

وبقيت يد الرجل ممتدة لا هي تصل إلى السلطانية ولا هي تنتهي إلى صاحبها، فقال حامد: «ماذا تصنع هنا؟ فتلعثم قليلا، ثم قال: «جوعان!»

قال حامد: «أهو ذاك؟ ومن أين دخلت؟»

قال: «رأيت اللبان داخلا، فلما خرج.. وقفت أنادى فلم يرد أحد فدخلت».

فمال حامد إلى تصديقه وكان مستعجلا، فقد ترك الفتاة عند النافذة فقال: «طيب

كل واخرج.. خدها كُلها على السلم».

ودفعه وأغلق الباب وراءه وهم بأن يعود، فسمع وقع أرجل.. ولكنه لم يعبأ بذلك، وكر راجعا إلى الغرفة، فإذا أبوه واقف ينظر إلى الراديو ويضحك فلم يفهم ومضى إلى النافذة وأطل، فلم ير أحدا، فالتفت إلى أبيه يريد أن يسأله، ثم أثر العدول. وسمع دقا على باب المطبخ وصوتا ناعما يناديه، فذهب يعدو وفتح الباب وإذا به يرى شرطيا ضخما مفتول الشاربين وفتاته، والرجل بينهما وفي يده السلطانية فارغة. فارتد حامد خطوات وقال: «ما هذا؟»

قالت صفيّة: «لقد صح ظنى.. الحمد لله».

فقال حامد ببلاهة: «تفضلوا..» وأفسح لهم الطريق ثم أردف: «ولكن لماذا

الشرطى؟»

فقالت صفيّة وهي تدخل: «لماذا؟ أو تسأل؟ ألا تعلم لماذا؟ للص يا روى» فكاد يضع يده على فمها، ولكن أباه كان قد خرج فلم تبق أى فائدة.

وقال حامد: «بابا.. هذه صفيّة.. جارتنا.. بنت أحمد بك.. لا ليس هذا لصا.. أنا

أعطيتها السلطانية ليأكلها».

فقال الشرطى: «إذا كان الأمر كذلك فلا داعى لوجودى. سعيدة».

وخرج وهو ينظر إلى صفيّة نظرة محنق. وقالت صفيّة: «شرفت يا عمى».

فتمتم الرجل وهو مطرق، وقال حامد: «أ.. أ.. نحن.. أعنى صفيّة وأنا.. اء..

خطيبان.. اتفقنا على الزواج.. بعد موافقتك طبعاً».

في رأس السنة

فدنت منه صفيية ومالت على كتفه وهمست في أذنه: «قل إنك موافق...».
فقال الرجل: «أنا متوضى ... ابعدى قليلا...».
فضحكت، وقالت: «إذا لم توافق فإنى أنقض لك الوضوء...».
ففزع الرجل ونهض قائما، وقال: «لالالا احذرى.. الدنيا برد وأنا راجل كبير
ضعيف، وأريد أن أصلى العشاء».
فقال: «قل أولا أنك موافق.. وإلا.. هه».
فلوح الرجل بذراعه، وقال: «أنا مالى ... مفلوقين في بعض ... فين السجادة يا
حامد؟»

الفصل الثاني عشر

الذى يضحك أخيرا يضحك كثيرا

لما جاءنى رسول أختى برقعة منها يدعونا فيها — أمى وأنا — إلى قضاء العيد معها، لأن زوجها سافر إلى الإسكندرية.. أدركت أن فى الأمر شيئا، وأن خلافا لابد أن يكون قد شجر بينهما، ولكن دقة إحساسها بالواجب حملتها على البقاء فى بيتها بدلا من أن تجيء هى إلينا.

ولم تفت أمى دلالة هذه الدعوة، فقد سألتنى: «أتظن أن شيئا حدث؟» فقلت: «لابد» فقالت: «أترى أن نسألها؟» فهزرت رأسى، فليس أكفل بفساد الأمر بين زوجين — فى رأىى — من الدخول بينهما.

وكان وجه أختى وحده كافيا للارتفاع بالظن إلى مرتبة اليقين. نعم، كانت تبتمس ولكن ابتسامها كان متكلفا، وكلامها أكثر مما ألفنا منها، وحركاتها أسرع، وكان لونها ممتقعا حتى لقد احتاجت إلى الأحمر لخديها وشفتيها. وكان الجو باردا، فاحتجنا إلى ما نُدْفئ به.. فجاءتنا بموقد صار الفحم فيه جمرا لأنها تكره مدفأة الكهرباء أو البترول لشدة تجفيف الكهرباء للجوّ، ولأن البترول له رائحة لا تطيقها.

وسألتها وأنا أتبسم: «وأين اللعين زوجك؟»

وكان لابد أن أسألها عنه، وإلا كان اجتناب ذكره واشيا بالفطنة إلى ما عسى أن يكون قد وقع بينهما. وما دامت هى لم تقل شيئا فقد يربكها أن تعلم أننا نعلم.

فقالت ببساطة: «أوه.. أظنه ملنا.. سافر ليبحث مع شريكه أمر هذه الشركة الجديدة التى يريد أن يؤلفها.. إنك تعرفه.. لا يعترف بعيد، ولا يطيق أن يقعد بلا عمل».

فسرني أنها تكذب لتستر حماقته.. وكنت أعرف أن هذه كذبة لأنه أخبرني بما تم، فالأمر مفروغ منه ولا حاجة به إلى سفر جديد، ولكنها لم تكن تدرى أنى أعرف هذا وإلا للجأت إلى كذبة أخرى.

وقضينا النهار على خير ما نستطيع، وإذا بنا بعد العصر نتلقى هذه البرقية: «اصطدمت السيارة وتحطمت، وإصابتي خفيفة. فهل تستطيعين أن تحضري؟.. سيكون أخي بانتظارك بسيدي جابر» خليل.

فدعرنا جميعا فقد كان من الواضح أن الحادثة أكبر مما زعم.. ولم تستطع أختي أن تضبط نفسها، فبكت وهمت أمى أن تزجرها عن البكاء، فقلت لها: «دعيها فما خلق الدمع للناس عبثا». فقامت ترتب لها أشياءها في الحقيبة، وتضع معها ما قد يحتاج إليه زوجها مخافة أن تكون حقيبته قد فقدت في الحادثة، أو تركت مع السيارة المحطمة.

وقلت لأمى: «انذهبي معها، وسألحق بكما غدا.. فإني مضطر إلى البقاء الليلة، وأبرقوا إلى في الصباح بعد أن تروه ليطمئن قلبي».

وودعتهما في المحطة وعدت إلى البيت — بيت أختي — حزينا كاسف البال موجع القلب، وجلست في البيت أفكر في هذا الحظ السيئ وأسخط على خليل، وأقول لنفسي هل كان لابد أن يصنع هذا الأحمق ما صنع، وأن يعلن إلى زوجته الجفوة ليلة العيد، ويروح يكسر عظامه أيضا ويرج زوجته هذه الرجة الشنيعة؟ ولكنه لقي فوق جزائه. مسكين. ومن يدري ماذا جرى له؟ ولعله الآن مشرف على الهلاك، وإنها لقسوة أن ألومه. ثم أنه كان مثال الزوج الصالح، ولم تكن سيرته معها قط إلا سيرة المحب الذى لا يعنيه من الدنيا سوى زوجته، فماذا يا ترى جرى حتى كانت هذه الجفوة المشئومة؟ وإنى لجالس أدخن سيجارة في إثر أخرى، وبى ما يعلم الله من الحزن.. وإذا بخليل داخل كالقنبلة! فانتفضت واقفا وحدقت في وجهه مذهولا وفمى مفتوح كالأبله، فلما رآنى كذلك وقف هو أيضا، وسألنى أول ما سأل: «أين فريدة؟».

فأحسست أنى سأسقط على الأرض، فانحطت على أقرب كرسي ورفعت يدي إلى رأسى، فأقبل على يهزنى بعنف ويقول بصوت عال جدا: «أين فريدة؟ قل.. انطق، ماذا جرى؟»

فحاولت أن أتكلم، ولكن لسانى وقف في حلقي، فأشرت إلى البرقية المشئومة، فتناولها مستغربا ولم يكد يقرأها حتى صرخ: «إيه؟»

الذى يضحك أخيرا يضحك كثيرا

فوجدت لساني، وقلت: «ماذا تظن؟ من أرسل هذه البرقية؟ قال: «لا أدري.. ماذا نصنع الآن؟.. فكر.. فكر.. فقد ضاع عقلي.. فريدة.. من يدري في أيدي مَنْ من الأشرار ستقع الآن؟»

فقلت: «وأى أيضا معها.. رهينتان لا واحدة يا صاحبي».

فقال: «رهينتان؟ هل تعنى أنك تعتقد؟»

قلت: «بالطبع.. أى معنى لهذه البرقية غير ذلك؟ إنها شَرَك.. وليس المهم الآن حل اللغز بل السفر وراءهما لإنقاذهما.. لمنعهما من الوقوع في أيدي هؤلاء الأشرار كائنين من كانوا».

فقال: «صدقت.. قم بنا» قلت: «سيارتك لا تصلح لهذا.. ألا تستطيع أن تجد لنا سيارة قوية.. تستعيرها من أى صديق؟»

وفي هذه اللحظة أقبل أخى فتشهدت واستبشرت، فقد كانت له سيارة جديدة من طراز هدسون تستطيع أن تطير بنا، فدفعته إلى الباب وسبقته إلى السلم وأنا أناديه وأدعوه أن يسرع ورائي.

وكان أخى يكره السرعة فتوليت أنا القيادة، وجلس هو وكلبه معه وراءنا، وجلس خليل معى وكان لا بد من التمهّل حتى نخرج من المدينة وإلا عطلنا الشرطة، وكنت كالجالس على الجمر، ولكن ما حيلتى؟ واجتزنا شبرا بعد أن ضاع ربع ساعة ثمين، فسألت أخى: «هل الأنوار قوية؟» ولم تكن بى حاجة إلى السؤال فإنى أنا السائق وأمامى مفتاح النور وفي وسعى أن أجرب، ولكن السؤال جاء دليلا على مبلغ اضطرابي. ودليل آخر على هذا الاضطراب هو أننا لم نخبر أخى ما الحكاية، فراح يكلم كلبه ويقول: «روكسى إنه يسأل عن الأنوار هل هى قوية؟ كأنه لا يعلم، لا بأس. هل تظن أن من حقه أن ينتظر جوابا؟ نعم، الجواب تحصيل حاصل.. بالطبع.. الحق معك.. ثم إنه أرسل النور أمامه وهو يضيء إلى مسافة أميال.. أليس كذلك؟ ولكن إلى أين يمضى بنا يا روكسى؟ نعم؟ أتقول إن هذه هى الطريقة الأمريكية فى الاستيلاء على السيارات واغتصابها من أصحابها الشرعيين؟ إنها كذلك على التحقيق.. وإنى أراك مصيبا دائما فى ملاحظاتك يا روكسى أوه.. تسعون؟ روكسى.. إنه يخطف بنا الأرض فهل تظن أنهما ارتكبا جناية؟»

وهكذا وهكذا..

ولم أكن أستطيع أن أقول له شيئا لأن عيني على الطريق. وكان خليل يساعدى فينظر إلى عداد السرعة ويخبرنى بالرقم الذى نرتقى إليه وينظر فى الساعة كذلك،

فيطمئنتني أو يزعجني، وأخى ماض في هذره حتى بلغنا بنها. ولم أدخلها بل أثرت أن أخذ طريق سيارات النقل لأنه أقصر وإن كان غير ممهد — اجتنابا للبطء الذي نضطر إليه في شوارع المدينة. وبعد أن اجتزنا الكوبرى الجديد، ثم جسر السكة الحديدية — أو المزلقان كما يسمونه — أطلقت للسيارة العنان فجعل خليل ينظر ويقول: «مائة.. مائة وخمسة. وعشر. وعشرون.. وخمس وعشرون.. امض امض. لا شىء.. هذه دجاجة..».

فقال أخى: «أظنها ذهبت إلى جنتها — جنة الدجاج — قبل الأوان.. أترأه سباقا يا روكسى؟»

وبلغت السرعة مائة وثلاثين كيلو، فلولا أن السيارة كبيرة وممتينة وثابتة لانقلبت بنا وقتلتنا.. ولكن أخى خبير بالسيارات والذي لا يعرفه عنها لا يستحق أن يعرفه أحد. والحق أنها كانت سيارة أصيلة، بل هى السيارة وكفى. لكن بالى لم يكن في ذلك الوقت إلى شىء من هذا، بل إلى ما بقى من الوقت حتى يصل القطار إلى طنطا أو دمنهور وإلى مبلغ الأمل في إدراكه قبل أن يبلغ سيدى جابر.

وتأدى إلى صوت أخى يقول: «هل تعلم يا روكسى أن إسماعيل مهمل — يعينى — أموافق أنت؟ هذا ما كنت أنتظر.. ولكنه ينقصك أن تعلم لماذا.. أتريد أن أسر إليك يا روكسى بالسبب؟ اسمع إذن ولكن لا تخبره.. لقد أردت أن أستعير حقيبته الصغيرة. أقول لك الحق يا روكسى بينى وبينك يا روكسى.. استعرتها فعلا.. ولكنى وجدت أنه أهمل أن يضع فيها المفتاح ولهذا جئت إلى بيت الأخت لعلى أجده فأخذ المفتاح.. أعرف ما تريد أن تقول فإنك ذكى.. بالطبع لم يكن ينتظر أن يعطينى المفتاح.. ولكنى كنت سأخذه على كل حال.. أوه بطريقة من الطرق.. من غير أن يشعر بالطبع..».

وقد هممت مرات أن أصيح به، ولكنى كبحت نفسى فليس هذا وقت الاختلاف على الحقائق.. ولكنه غاضبنى مع ذلك أنه أخذها وهو يعلم أن فيها أشياءى، فقد كنت أعددتها لرحلة قصيرة، فلما جاء رسول أختى عدلت وكان ما كان.. ونويت أن أغتتم أول فرصة تسنح لاستردادها. بطريقة من الطرق.. كما يقول.. والبادى أظلم.

ولم أكن أطمع أن أدرك القطار فى طنطا، فلم أستعرب أن أعرف أنه تركها قبل وصولنا بعشر دقائق، واحتجنا إلى البنزين فضيعنا دقائق أخرى، ثم استأنفنا السير بأقصى سرعة لنعوض — سلفا — التأخير الذى لا بد منه فى كفر الزيات. واعترانى ما يشبه الحمى، فلم أعد أبالى كيف أقطع الطريق. وكنت ربما صادفت مركبة أو رجلا على حمار أو جمل فأمرق ولا أعنى نفسى باليمين والشمال. ولم يكن الطريق بعد كفر

الزيات على خير ما يمكن أن يكون، ولكنى لم أكن أحفل بذلك ولم أترفق بالسيارة. وكان أخى يرى هذه السرعة الجنونية — فقد بلغنا أربعين بعد المائة وأصررنا عليها — فيقول لكلبه: «انظر يا روكسى.. إن الخبيث ينتقم منى — أعنى منا، فإنك شريكى فى كل شىء — لأنى أستعرت حقييته.. من أجلها يريد أن يفجئنى فى السيارة.. أى والله يا روكسى. فتعال نبك على ما كلفتنا من مال يضيع الآن فى هذه السكة المنحوسة.. ثلاثمائة وخمسون جنيها خرجت عنها من حر مالى.. وماذا يعنيه هو.. يأخذها بلا استئذان، وينحبنى عن مجلسى فيها، يردنى إلى الورا.. هل هذا يليق يا روكسى؟

ولولا أن خليلا صاح فى هذه اللحظة: «القطار، القطار، سنسبقه يا إسماعيل ... سنسبقه بالتأكيد ... الحمد لله» لمضى أخى فى هرائه. وكنا قد قاربنا دمنهور، فلما بلغنا مدخلها عاد أخى إلى الثرثرة، ولكنى لم أسمع شيئا لأن أذنى كانت تطن. ودنونا من المحطة، فوقفت وفتحت الباب، وقلت لخليل: «انزل.. بسرعة» فشرع يفتح الباب من ناحية وأخى يقول: «ألم أقل لك يا روكسى إنه سباق.. بين السيارة والقطار؟

ولم أسمع بعد ذلك شيئا لأنى ذهبت أعدو إلى الرصيف الذى يقف عنده القطار. ولم نكد نفعل حتى دخل، فركبت — بلا تذكرة، وماذا يهم؟ — وخليل ورائى. ومشينا خلال المركبات حتى وجدنا أمى وأختى، فانحطت بجانبهما بلا كلام.

ولو كان فى رأسى أو رأس خليل عقل لنزلنا بهما من القطار وعدنا بالسيارة على مهل، ولكننا لم نفكر فى شىء حتى كان القطار فى طريقه إلى سيدى جابر، فأدركنا أننا تعرضنا لغرامة فادحة لم يكن لها داع. وكان فى الوسع اتقاؤها لو عيننا أن نخبر المفتش أو أحدا من رجال القطار أننا راكبون من هنا، وسندفع الأجر فى القطار.. على أن الثقة بأننا أنجينا الفريستين هونت علينا الخسارة.

وقلت لأختى: «هذا زوجك.. البرقية مزيفة، فما رأى الآن؟». ولكنها لم تكن فى حال تسمح لها بإبداء رأى. وأى رأى هناك يمكن أن يشير به أحد.. لقد ضاعت الفرصة الذهبية فى دمنهور، ولو كنا أخبرنا أخى على الأقل لاستطاع أن يهرق إلى بوليس سيدى جابر بالموضوع، ولكان لاستمرار السفر فى هذه الحالة معنى، أما الآن ...

وعلى أننا قلنا إن الفرصة لم تضع، وأن من الممكن إذا تركنا الاثنتين تسيران أمانا وحدهما وعيوننا عليهما أن نرى هذا الذى سيتقدم لهما نائبا عن أخى خليل، وقد نستطيع فى ذلك الوقت أن نجعل البوليس يقبض عليه.. على كل حال لم يبق إلا هذا..

ولكننا لم نجد في سيدى جابر غير الحمالين. ووقفنا بعيدا ووقفت الاثنتان تنتظران أن يتقدم إليهما أحد — رجل أو امرأة — حتى البوفيه لم يكن فيه أحد، فقلنا لعله ينتظر في الشارع فأومأنا إليهما أن تخرجا أمامنا، فلم يكن حظنا خارج المحطة أحسن منه داخلها. ولم تبق فائدة من التفرق فركبنا وهمنا بالمضى إلى الفندق. ولكن خاطرا خطر لى فجأة فنزلت وذهبت إلى مكتب التلغراف وبعثت ببرقية منه.

وفي اليوم التالي كنا في مصر..

ولكن هذا لم يكن كل شيء. وهنا يحسن أن أدع أخى يتكلم: «لعله يعنيكما — يريد أختى وأمى — أن تعرفا كيف كانت عودتى البارحة بعد أن تركنى هذان المخلوقان. لا فائدة من قولى انتظرت، فإن هذا القول لا يدل على شيء. فقد تركنى فجأة وذهب يعدو كأنى جرب.. حتى محرك السيارة لم يعن بأن يوقفه. ستقولون جميعا إنه كان معذورا فليكن فإن الجدل عبث، وستسمعون بأشياء أخرى أرجو أن يكون عذره فيها أوضح.. وكان معى روكسى كما لا أحتاج أن أقول، ولا أدرى ماذا كنت أصنع لو لم يكن هذا الرفيق معى. لعلى كنت أجن أو يحدث لى شيء من هذا القبيل. ما علينا، هل أقول إن الأمر طال على وأنا قاعد فى السيارة؟ كلا، وهل أقول إنى كنت ميتا من الجوع؟ كلا أيضا. وأختصر حكاية مؤلة، فأقول إنى نزلت من السيارة وسرت فى الاتجاه الذى رأيتهما يقصدان إليه، ولم يكن الأمر يحتاج إلى ذكاء.. فقد كان كلامهما دائرا كله على القطار ووجوب سبقه، وإن كان فيما عدا ذلك لا معنى له عندى. ولم أجدهما فى المحطة كما تعلمون، لأنهما شاء أن يركبا القطار من غير أن يبعثا لى بكلمة. وقد سمعتهما يقولان أنهما أديا أجر الركوب مضاعفا، وهذا حسن وأن كان قليلا.. ولكنه يبرد بعض الغلة. وقد وصفتهما لكل من فى المحطة، فظن واحد أنهما هاربان من سجن، واعتقد ثان أنهما مجنونان خطران. واقتنعت أنا بأن لا فائدة من البحث، وأن أبى — رحمه الله — أخطأ حين رمانى بهذا المخلوق وزعمه أخوا، وأن أمى أخطأت أيضا فى ربطنا بهذا المخلوق الثانى الذى أخفوا أمره عنى حتى خطف أختى، فصار واجبي الآن بعد أن عرفته أن أخفيه أنا عن الناس. ما علينا.. فلندع هذا التاريخ القديم.. أظنكم ستضحكون حين أقول أنى احتجت أن أكل وأن أطعم روكسى وقد يسركم أن تعلموا أنى أحب أن أنسى فترة هذا الأكل وأن أمحوها من تاريخ حياتى الحافل بالتضحيات فى سبيل من لا يستحقون شيئا.. ولكنى هكذا دائما.. كريم مفضل، وجزائى من الناس بل ممن يمرحون فى أبراد نعمتى الجحود والكفران. ما علينا أيضا.

الذى يضحك أخيرا يضحك كثيرا

وقلت لروكسى: تعال يا صاحبى، فإن هذا بلد لا يستحق أن يتشرف بوجودنا فيه، فلنرجع إلى بيتنا فى مصر.. وقد كنت أسلمت السيارة إليه وهى سليمة لا شىء بها، ويشهد شريكه فى المؤامرة أنها أنقذتهما، ولكنى حين أردت أن أدير محركها أبى أن يتحرك.. ولا أطيل. قضيت نصف ساعة فى هذا البرد حتى استطعت أن أقنعها بالحركة والعودة إلى دفة البيت.

وكانت السيارة كأنما ركبها قبلى ألف عفریت، ولكنى صبرت وقلت عوضى على الله، وهذا جزاء من يكون له أخ كهذا ونسيت كهذا.. وأظن أن الفجر بدأ يطلع حينما بلغنا شبرا، فتنهدت وتمهلث فى السير وإذا بشرطى يستوقفنى، فوفقت فدار حتى صار إلى جانبى، وقال وهو ينقر على الزجاج: «تفضل معى إلى الكركون».

فقلت: «الكركون»؟، قال: «نعم، تفضل انزل».

فقلت «ولكن لماذا؟ ماذا صنعت؟ إنى لم أكن مسرعا بل كنت أسير بسرعة خمسة أمتار فى اليوم والليلة».

فقال بلهجة جافية: «انزل ولا تحوجنى أن أجرك بالقوة».

فقلت لى نفسى إن المكابرة والجدال عبث، ولا شك أنى سأجد رجلا يفهم فى مركز البوليس. وذهبت معه، فقال: «اقعد هنا»، فقعدت حيث أشار، وهم بتركى فتعلقت به وقلت: «ألا تسمح من فضلك بأن تخبرنى لماذا جئت بى إلى هنا؟»

فنهرنى بعنف، فهويت إلى الكرسى وروكسى بين يدى لم أر أحدا مستعجلا سوى. وأخيرا جاء شرطى آخر، وجلس إلى مكتب وأخرج أوراقا وبدأ يستعد للكتابة، وسألنى عن اسمى وعنوانى ومولدى وعن السيارة ورقمها، ثم سألنى بخبث: «ماذا معك فيها؟» فابتسمت وقد خيل إلى أنه ظننى من مهربى المخدرات، وقلت ببساطة: «ليس معى سوى روكسى».

فقال: «إيه؟» قلت: «يعنى الكلب.. اسمه روكسى»، فقال متهكما: «يا حبيبى يخوى.. كمان عامل لى قمع ومعاك كلب.. تعملوها وتخليلوا والله».

فلم أدر ماذا أقول له.. وأعفانى من الكلام، فسألنى: «هل معك مفتاح السيارة؟» فناولته المفتاح، فنادى شرطيا وطلب منه أن يفتحها أمامى، وأن يجيء بما يجده فيها فلم يجد الا الحقيبة.. اضحكوا.. اضحكوا.. لا بأس.. سيجىء يوم أثأر فيه لى نفسى.. فلما جاءوه بالحقيقية، ابتسم ابتسامة عريضة جدا وتنهد مرتاحا، وقال لى: «لا شىء.. هه..؟ طيب».

فابتسمت أنا أيضا وقد صح عندي أنه يحسبني من المهريين وأيقنت بقرب الفرج. وشرع يسألني عن الحقيبة، فقلت له إنها لأخي وذكرت اسم الأخ المحترم، فأدهشني بأن سألني هل أنا أعترف بأن الحقيبة لإسماعيل أفندي زفت وقطران؟ فقلت بالطبع أنا معترف.. إنه أخي.

فقال: «أخوك..؟ أوافق أنت أنه أخوك»؟

فضحكت وقلت: «بالطبع واثق ... ولكن ما هي الحكاية»؟

فقال: «أين المفتاح»؟

قلت: «معه ... لم آخذه منه». وهممت بأن أقص عليه القصة، ولكني رأيت أنها مما لا يصدق فأقصرت، فقال: «هل تستطيع أن تثبت شخصيتك»؟

فقلت: «بالطبع.. ماذا تظن»؟.. ودفعت يدي في جيبى لأخرج له أوراق السيارة ورخصة القيادة وغير ذلك مما عسى أن يكون في جيبى، فما راعنى إلا أن الجيب خال ليس فيه قصاصة واحدة! وأظن وجهى فضحنى على الرغم من محاولتى أن أتماسك وأتجلد، فقد سألني بعد ذلك مباشرة عن السيارة ولمن هي؟ فأيقنت أنى وقعت، وقلت له: «اسمع.. إنك تطيل بلا داع.. لابد أن يكون قد حدث خطأ، ومن سوء الحظ أنى نسيت الأوراق كلها في البيت، فإذا سمحت فأرسل معى شاويشا أو عشرة إذا شئت إلى البيت لأحيئك بكل ما يزيل الشك ويريح ضميرك».

فلم يبال بهذا الاقتراح المعقول، وقال: «هل أنت مصر على دعواك أنك أخو إسماعيل»؟

فقلت: «الحقيقة أنى مستعد للتبرؤ منه ولكن إلى أن أفعل لا يسعنى أن أنكر أنه أخى». فقال: «إذا كنت أخاه، فلماذا يبعث ببرقية كهذه»؟ وناولنيها، فقرأت فيها الحكم على.

وللرجل العذر لأنه إذا كان إسماعيل هذا أخى، فلماذا يطلب من البوليس أن يحجز السيارة رقم كذا، وفيها حقيبة صفتها كيت وكيت. لا تعترض من فضلك.. لقد كانت عبارة البرقية يفهم منها أنك تريد حجز السيارة أيضا. ولا أكتمك أنى لم أجد جوابا لهذا السؤال، وأنى استحيت أن أقول إنه مزاح بارد.

وحررت ماذا أصنع، ولم يفتح الله على بحيلة تخرجنى من هذا المأزق الثقيل.. وكان النهار قد طلع ولكننا ما زلنا في البكور، ولا يليق أن أزعج الناس في مثل هذا الوقت، فعدت إلى اقتراحى أن يبعث معى من يشاء إلى البيت، فرفضه. فسألته عن المأمور من

الذى يضحك أخيرا يضحك كثيرا

هو؟ عسى أن يكون من معارفي.. فانتهرنى بغلظة، فتساهلت وسألته عن المعاون أو غيره، فلم يزد على أن قال: «بلاش دوشة»، فناشدته أن ينظر إلى ثيابي، وأن يفكر هل هذه ثياب مجرم ولص؟ فقال وهو يضحك: «إن بين اللصوص من هم أشد أناقة منك» فوضعت أصبعي في الشق، وأسلمت أمرى إلى الله.

وحُتم المحضر على هذا ... أى على أنى لص ولا شك وأن البوليس حاذق فطن ولا شك. ولست ألوم البوليس، فقد كانت كل القرائن ضدى. وأشهد له أنه كان رفيقا، فقد سمح لى بأن أشتري — أعنى أن يبعث من يشتري شيئا لطعامى وطعام روكسى. ولا أنكر أنى شربت قهوة أيضا، وإن كانت أشبه بمغلى الفول السودانى أو بماء الوحل الساخن. ولكن هذا لم يكن ذنب البوليس.

وأخيرا فى الساعة الثامنة دخل ضابط علينا، فنظرت إليه ببلادة.. فقد فترت ويئست ولم أعد أبالى ما يجرى لى، ولكنى لم أكد أرى وجهه حتى انتفضت واقفا، وصحت به «حمدى.. الحمد لله.. أين المحقق»؟

فاستغرب وسألنى عن الحكاية، فقصصتها عليه فضحك ملء شذقيه. مدهش أن يضحك الناس من هذه الفصول الباردة! والباقي لا يحتاج إلى كلام ... جئت إلى هنا ونمت ساعة أو اثنتين على هذا الكرسي بثيابى.. ولكنه ينقصك يا حضرة الأخ أن تفسر للبوليس مزاحك، فقد صار الأمر مزاحا مع البوليس لا معى».

فما استطعنا أن نتكلم ونغالب الضحك، قلت: «هون عليك.. فإنى أعرف ماذا أقول.. ولكنى أرجو أن يكون ما حدث درسا لك».

فقال وفى عينيه نظرة خبيثة: «وأنا أرجو أن يكون ما حدث لكم درسا كذلك».

فقال خليل: «ماذا تعنى»؟

فقال أذى: «أعنى أنكم لو لم تكونوا عميا لعرفتم أن البرقية ليست لكم.. للجار رقم ٢٢٢، وقد تشابه الرقمان على الساعى واتفق أن اسم الجار خليل أيضا، واتفق أنكم عمى لا تبصرون. ولولا ذلك لقرأتم الرقم واسم الجار الذى أرسلت إليه البرقية.. هذا ما أعنى.. فقوموا كفروا عن سيئاتكم يا جهلة».

الفصل الثالث عشر

عقاب اللص

لست أخشى اللصوص.. فما معى ولا فى بىتى ما أخشى علىه الضىاع وأتقى أن أُمْنَى فىه بخسارة. ولو أن لصا كرىما فىه مروءة دخل بىتى — أو حىث أقمى فما هو بىتى — وحمل ما فىه من متاع لحملة شكرى، ولبعثت بنسخة منه إلى الصحف.. فإن من اللؤم أن يقابل الإحسان بأقل من الشكر. فما أرى لى متاعا فى شىء مما حولى. وسبب آخر يجرونى على لقاء اللصوص وىنفى عنى الخوف منهم وىجعلنى لا أتهىبهم، وذلك أنى كما تعلم — أو كما لا تعلم — ضامر ضاو، ظاهر الضالّة بادی الضعف. وأوْجَز تعريف بنفسى يحضرنى الآن، وهو أنى امرؤ فارغ الثياب.. وأحسب أن هذا تعريف شامل محىط جامع مانع، فإن لم یکن كذلك فأمهلونى، حتى یلهمنى الله ما هو أوفى. وأرجع إلى اللصوص فأقول إن الذى یجعل لقاءهم خطرا فى ساعات العمل هو أنهم یریدون التخلص مما وقعوا فىه اتقاء السجن وما فىه، والمفاجأة فى هذه الحالات تذهلهم وتطیر صوابهم، فىحدث أن یضیفوا إلى جریمة السرقة جریمة أخرى هى الاعتداء على النفس.. أما إذا كان الذى یفاجئهم رجلا صغیر الجسم مأمونا مثلى، لا خوف من قدرته على منع السارق من الفرار والنجاة.. فإن العدوان لا یخطر لهم على بال. وحسبهم أن یشدوا هذا المتطفل بحبل ویلقوه فى زاویة أو ركن، ویمضوا فى عملهم كأنما لم یعطلهم معطل. ومن هنا اطمئنانى، وهو اطمئنان لم یزعزع الثقة به إلى الآن مززع.

وقد اتفق لى أن كنت مرة فى الأقصر وكان الوقت شتاء، والأقصر تطیب فى هذا الوقت.. فنزلت بالفندق ومضى یوم أو یومان — فقد نسیت لطول العهد — وإذا بصدیق من أغنیاء الأقصر یقع علىّ فى شرفة الفندق حىث یجلس أكثر النزلاء یشربون الشای قبیل المغرب. وأقول یقع على — وأنا أعنى ما أقول — فقد كان ظهرى إلیه وهو مقبل، ویظهر أن باله لم یکن إلى الأرض وهو سائر فاصطدمت رجله بساق الكرسى

الذى كنت جالسا عليه فكد يقع وارتمى فوقى — أعنى الصديق لا الكرسى — ثم شرع يعتذر وشرعت أنا أيضا أهز له رأسى إيذانا بقبول الاعتذار، فالتقت العيون وإذا به يكف عن الاعتذار ويصيح: «أوه.. أهو أنت؟»

كأنما هذا ينفى وجوب الاعتذار ويعفيه من تكاليفه ويجعلنى غير أهل له، فقلت له: «نعم، أنا أنا يا صاحبي» قال مستغربا: «وماذا جاء بك إلى هنا؟»

قلت: «قذفتنى موجة الحياة على هذا الساحل الذى لا أراه أرفق بى من اليم». قال: «أسف يا صاحبي..» فقلت مقاطعا: «لأن الحياة رمت بى على شاطئكم؟»

قال وهو يجلس: «لالالا.. إنما عنيت أنى أسف لأنى وقعت عليك».

قلت: «هذا أدهى.. أؤكد لك أنى لم أتعمد أن أكون فى طريقك».

فصاح بى: «يا أذى، لا.. ليس هذا ما أعنى.. ألا يمكن أن أقول شيئا لا تستطيع أن تؤوله على هذا النحو؟ إنما أعنى».

فترفت وقلت: «أعرف ما تعنى.. وأعرف أيضا أنك حمار.. والآن هات حديثا آخر».

وعرف أنى مقيم بالفندق، فدعانى إلى النزول ببيته فأبيت.. وشكرته فألح، فقلت له إنى هنا حر أفعل ما بدا لى ولا أتوخى إلا راحتى. وحرىتى أعز على من أن أقبل ضيافتك الكريمة، فأبى فأصررت، ثم مضى وفى ظنى أن الأمر انتهى.. وإذا بى أعلم حين هممت بالعود إلى غرفتى لحاجة لى، أن الصديق حمل حقيبتى ومضى بها إلى بيته وترك لى مركبته، وأنه لم تبق لى فى الفندق غرفة.

وأوجز فأقول: إنى لم يسعنى إلا أن أذهب إلى البيت على فرط استتقالى لذلك، فإذا البيت شىء مهول وإذا هو بيتان فى الحقيقة.. واحد للرجال وآخر بعيد عنه للنساء، وبينهما بستان واسع وحديقة زهر فيحاء، وفضاء رحيب.. ألفت أبناء صديقى يلعبون فيه — أو خيل إلى فى أول الأمر أنهم يلعبون — ولكنى لما دنوت منهم رأيت رجلا معروفا لم أرتح إلى وجهه ولم يعجبنى شارباه المفتولان وصلعته الناصعة، وكان قصيرا مثلى.. ولكنه أشد منى دمامة وأضيق عينا. وكان هذا الرجل يصيح بالغلمان وهو واقف لا يتحرك، فيحركون أيديهم أو أرجلهم وينثنون ويعتدلون ويستلقون على ظهورهم ويرفعون سيقانهم وأذرعهم، وكان صديقى واقفا يهز رأسه راضيا مرتاحا، فقلت له: «ما هذا الذى أرى؟ ومن هذا الرجل القبيح؟ ومن هؤلاء الصبية؟ هل نويت أن تقيم فى بيتك (سيرك)؟»

فقال وهو يضحك: «لالالا.. هؤلاء أبنائي».

فقلت مستغربا: «أبناؤك؟ ولماذا تترك هذا الرجل القبيح يمرغهم في التراب؟»
فقال وهو يجرنى: «لا تصح هكذا لئلا يسمع.. إنه معلم الرياضة في المدرسة..
يدرب الأولاد على الحركات الرياضية».

فقلت: «أولا يكفى تدريبيه لهم في المدرسة؟ مدهش.. أمن أجل أن الله رزقك مالا
تروح تبعثره في هذا الكلام الفارغ ليقال إنك متمدين؟»

قال: «لا، إنك لا تعرف.. إن الحكاية طويلة ولكنى أختصرها لك فأقول: إن أحد
السياح الأمريكيين كان هنا في الشتاء الماضى، فاتصلت به بطبيعة الحال — صديقى
تاجر عاديات — ورأى أبنائي فنصح لى — وهو طبيب — أن أعنى بحياة أبنائي
الرياضية، وأن أتخذ لهم معلما. هذه هى الحكاية.. وقد نسيت أن أقول إن أحدهم كان
مريضا».

قلت: «هذا ما قلت.. تقليد ليس إلا.. ما علينا.. أين الحقيقية؟ فلست أنوى أن أقيم
في مصحة».

ولكنى أقمت في المصحة وإن كنت قد استطعت أن أتقى هذا «التصحيح» الذى
يجرى على أبناء مضيقي..

والأقصر — إذا كنت مقيما في بيت لا في فندق — مملة، لأن الحياة كلها في الفنادق، وقد
حزمنى صاحبي وألقانى في بيته. فلم أكن أخرج إلا نهارا لأزور الآثار، فإذا جاء الليل
ذهبنا إلى شرفة الفندق ومكثنا قليلا، ثم عدنا إلى البيت لنتعشى حتى ولو كنت غير جائع
وإلا عد نفسه مقصرا في حقى، ولا أدرى لماذا.. ولكن هذا هو الاعتقاد الشائع. وضقت
ذراعا بهذا الكرم ولم أعد أطيعه، فغافلته مرة وانطلقت أعود إلى الفندق، ودخلت البار
وشربت حتى ارتويت ثم خرجت إلى الحديقة الراحية، وذهبت أتمشى فيها وأطوف
في أرجائها. وكانت الليلة مقمرة والهواء لا رطوبة فيه، فطال تجوإبى فلما نظرت في
الساعة إذا هى الحادية عشرة ولم يكن هذا ظنى، فبادرت إلى العودة إلى البيت وقد
سرنى أنى استطعت أن أروح وأجىء وحدى وكما أحب وفي حيث أريد والسلام، وإن
لم يكن هذا — بمجرد — خيرا مما فررت منه.. فما كان ثم أى حرج فى أن أشرب أو
أفعل ما أشاء وهو معى، ولكن الوحدة أشعرتنى حرية كنت افتقدتها معه إذ أراه إلى
جانبى، وكان هو يتوخى مرضاتى فى كل شىء كبر أم صغر. ولكنى لم أكن أرتاح إلى

هذا ولا كان يسرنى أن أرى رجلا يقيد نفسه بى، وكان يخيل إلى أنه في سريرته كاره غير راض، وأنه مثلى لا يريد أن يكون غير مرتبط أو مشدود إلى أحد. ولم يكن هذا كذلك في الحقيقة، فإن الرجل كريم عظيم الأريحية، ولكن هذا هو الذى قام في نفسى وكبر في وهمى.

وعدت إلى البيت وأنا أشعر أن الحياة تستحق أن يحيها المرء وأن الدنيا جميلة، وشعرت بشيء من الظمأ على كثرة ما شربت.. وكنت أعرف الطريق إلى حيث أطفئ ظمئى ففتحت بابا ودخلت إلى حيث الشراب، وهو مكان رحيب فيه خزانات شتى، فيها ما لم أحصه من الزجاجات المختلفة الألوان والحجوم، وفي الوسط مائدة مستطيلة مغطاة بالمخمل الأخضر وحولها الكراسى الوثيرة.. فأدرت مفتاح النور، وإذا بى أرى ذاك الرجل الدميم القصير الذى يقيم الأولاد ويقعدهم ويعذبهم بالانحناء والقفز والوثب والنط إلى آخر ما كرهت منه ومن منظره، فنذت عنى صيحة استغراب وإنكار، وماذا يجيء به إلى هنا في الليل - في منتصف الليل - وهو لا يبيت معنا بل يذهب إلى بيته؟

ولم يخالجنى شك في أنه لص شرير، على أنه خطر لى مع ذلك أن بيت الرجال أو الضيوف ليس فيه ما يسرق غير الأثاث وهو ضخم لا يسهل حمله أو نقله، ورجح عندى أن هذا المعلم الرياضى لص خمر وأنه جاء متسللا ليشرّب كأسين أو ثلاثا بلا ثمن ... وسواء أكان هذا أم ذاك هو الصواب، فقد شعرت أن من واجبى أن أنغص عليه ليلته.

وصحت به: «من أين دخلت أيها اللص الجاحد الناكر للجميل؟» وكنت أتكلم بعنف وفي يدي عصا ضخمة وفي عيني لمعة أظن الفضل فيها لما سقانى صاحب «البار» في الفندق، فرأيت الرجل يستخذى ويتضاءل ويتراجع إلى النافذة، فأطلقت عليه صيحة عالية: «قف» فوقف كالجندي، وكان الفضل في سرعة الوقفة واعتدالها وجمال منظرها لتربية الرجل الرياضية أو العسكرية لا لقوة الصيحة، ولكنه أطاع على كل حال.. فسررت وقلت له مرة أخرى: «قل من أين دخلت في الليل.. في منتصف الليل؟» فقال بذلة وضراعة: «من النافذة.. فقد وجدت الأبواب موصدة، والخدم نياما.. قلت: «آه.. ولكنى أنا لم أجد الباب موصدا».

وأيقنت أنه كاذب وأنه تعمد أن يدخل من حيث لا يراه أحد، وهم في هذه اللحظة أن يقول شيئا فأطلقتها عليه صيحة أخرى مدوية.. في أذنى أنا فما أظن أحدا سمعها أو سمع بها خارج الحجرة: «اخرس».

فخرس ووقف ساكنا لا يتحرك، فسرنى مرة أخرى أنه يطيع على هذا النحو، وقلت لنفسي إن للرياضة نفعا على ما يظهر. ولو لم يكن هذا الرجل رياضيا، لكان الأرجح أن يحاور ويجادل ويكابح ويناقش ويوجع لى رأسى، ويسلب الأمر كله ما أجد الآن فيه من المتعة.

وقلت له: «ألسنت أنت الرجل الذى يكلف هؤلاء الأولاد المساكين أن يتلوا ويتعوجوا وينطوا ويقفزوا؟»

قال: «نعم يا سيدى». قلت: «أرنا إذن بعض ما أتقنت يا صاحبي».
قال: «نعم».

قلت: «تلو.. تلوج.. انثن.. انحن.. افعل كل ما رأيتك تأمرهم أن يفعلوا.. تفضل».
فتردد برهة لا أدرى لماذا أو كيف، ثم كأنما بدا له أن خير ما يصنع هو أن يطيع وأمره لله.. فراح ينثنى ويعتدل، وأنا أقف أنظر إليه معجبا مسرورا، وكلما نظر إلى استزدته حتى خيل إلى أن ظهره سيقصم.. فدعوته أن يقف، وشرعت أفكر فى عذاب آخر أنزله به، ففكرت جبينى ثم تذكرت فقلت: «آه.. لقد كنت واثقا أنى سأذكر.. اصنع من جسمك عقدة كعقدة الحبل».

فلم يفهم، فقلت له مرة أخرى: «ألا تعرف العقدة؟ تلف الحبل وتصنع منه دائرة وتدخل طرفا منه فى هذه الدائرة ثم تشد الطرفين فتعقد العقدة. هكذا أريد منك الآن أن تصنع بنفسك. اصنع من خصرك دائرة وأدخل ساقك فيها.. أو لا أدرى كيف تصنع ذلك؟ المهم أن تصنع ذلك وأن أراه ... تفضل».

فرقد الرجل على الأرض، وراح يقوس ظهره كما لم أكن أتوقع أن يستطيع أن يفعل.. وأنا متكى على المائدة، وفى يدي سيجارة أشعلتها ورحت أدخن وأنظر معجبا مغتبطا. ورأيته يحاول أن يعقد العقدة التى أمرته بها، فلم يسعنى إلا أن أضحك.. فقد كان منظره يغرئ بذلك وهو يلتوى على الأرض، ولكنى لحماقتى ضحكت والدخان فى فمى، فكادت روحى تزهب ... وجعلت أسعل سعالا شديدا، فاغتمت الخائن الماكر هذه الفرصة ووثب إلى رجليه ثم إلى النافذة، ومنها إلى حيث لا أعرف.

وبينما كنت أوصد النافذة.. وأنا آسف على المتعة التى لم تطل، إذا بمضيفى يقول: «يا أخى أنت كنت فىن.. لقد حدثتنى نفسى أن أبلغ البوليس والله».

فقصصت عليه القصة وأنا أكاد أقع من الضحك، فقال: «يا شيخ حرام عليك.. هذا رجل مسكين».

فصحت به: «أما أنك لرجل مدهش.. إذا كنت تعتقد أن تكليفه هذه الحركات البهلوانية تعذيب له فإنها تكون أيضا تعذيبا لأولادك».

فقال: «لا، ولكنه كبير السن وأولادى صغار ... ثم إنه لا يكلفهم أن يلووا أجسامهم ويصنعوا منها عقدة كعقدة الحبل.. كيف خطرت لك هذه الفكرة الخبيثة؟
قلت: «لم يخطر لى شيء، وإنما كان هذا ما بدا لى أنه يكلف أولادك أن يصنعوه حين رأيتهم».

قال: «قم لتنام، وحسبك هذا طول العمر».
وقد صدق.. فما أزال أضحك إلى الآن كلما تذكرت تلك الليلة.

الفصل الرابع عشر

ثمن سيجارة

كم تظن السيجارة كان ثمنها في سنة ١٩٠٩م؟
لا أدري ممن القارئ.. أمن الأيفاع الذين يزدان بشبابهم الغض هذا القرن
العشرون، أم من المخضرمين الذين أدركوا — مثلى — القرن الماضى وهو وجود بأنفاسه،
وأبوا إلا أن يركبوا هذا الزمن بشبابهم الدائم الذى يأبى أن يدركه الهرم أو يرده
الشيب إلى تكلف الوقار؟ وإن كان — أعنى شبابهم المثلكىء — لا يمتاز لا بغضاضة،
ولا ببضاضة. وليكن القارئ من شاء — من المحدثين أو ممن هم أحدث منه وإن كانوا
أعلى سنا — فهذه فذلكة تاريخية يستطيع أن ينتفع بها إذا كان له من الذكاء حظ.
وهل أحرص منى على فائدة القراء؟

كنت فى تلك السنة — سنة ١٩٠٩م — قد تخرجت فى مدرسة المعلمين العليا، ومن
كان يشك فى ذلك فليسأل وزارة المعارف فلن تحاببنى. وكنا فى مقدمة الصيف، وكنت
متعبا مرهقا — لا أدري لماذا؟ فما أعرفنى عنيت بحفظ درس فى حياتى — فاستشرت
طبيبا أو على الأصح ألع أهلى أن أستشيريه، فقد صارت لحياتى قيمة بعد أن حملت
هذه «الدبلوم» وبلغت بها مبالغ الرجال الذين يكسبون رزقهم وينفقون على سواهم.
فلما فحصنى الطبيب، قال: «لا شىء.. يكفى أن ترتاح وتتنزه» قلت: «أين؟» وكان
ضيق الصدر فقال: «وهل أنا أعرف.. فى أى مكان غير البيت» فلم يحسن وقع جوابه
فى نفسى، فقلت له: «وهل كنت تحسب أن بيتى منتزه يا أذى.. أم خيل إليك أنى بنت
لا أعرف غير غرف البيت.. سبحان الله العظيم» وأنصرفت ساخطا.

وأوسعته نما فى الطريق إلى بيتى — مزقته ونثرت لحمه وجلده للكلاب.. حتى
الشعرات القليلة التى بقيت فى رأسه الأصلع انتزعتهما واحدة واحدة، وسرنى أنه كان

يتألم ويتلوى وأنا أشدها بأظافري وأقتلعها من جذورها — بخيالي — وكنت أقول له: «هذا جزاؤك يا وقح.. عسى أن يعلمك هذا أن التهكم على الناس غير جائز».

ويظهر أنى كنت أكلم نفسي في الطريق بصوت عال، فقد استوقفني قريب لى وقال لى: «مالك.. ماذا جرى؟»

قلت له مستغربا: «نعم.. ماذا جرى؟»

وتجهمت له فقال: «من الذى تشتمه وتسبه هذا السب القبيح؟»

فأفقت وارتد إلى عقلي.. وكان قريبي هذا له نصيب عندنا له بقية من مال قليل استودعناه إياه ليجريه مع ماله فى تجارتة، فقلت له: «يا أخى هذا الطبيب الذى أرسلتمونى إليه يقول لى: إنه لا دواء لى إلا أن أذهب إلى لبنان، وأنه لا أمل لى فى الشفاء بغير ذلك.. ولا أدرى ما أصنع، فقد ذهب أكثر نصيبى فى نفقات التعليم والباقى لا يكفى للسفر إلى الشام. ولست أحب أن أجور على نصيب أمى وأخى وإن كان من السهل رد ما أقترض بعد أن أقبض مرتبى من وظيفتى.. وعلى ذكر ذلك، أقول لك إنى عينت مدرسا فى المدرسة السعيدية الثانوية».

وكان الذى أخطر الشام على بالى فى هذه اللحظة، أن لى صديقا أصابه صداع ملح أعياء الأطباء شهورا.. فبعثوا به إلى لبنان فاستراح من آلامه، وكتب إلى من هناك يصف لى جمال البلاد ويدعونى إلى اللحاق به.

وكان لابد من موافقة أمى على الاستدانة من نصيبها أو نصيب أخى من هذه البقية الباقية من المال القليل، وكانت — رحمها الله — قوية ذكية، ولم أكن أجرو أن أكذب عليها.. ولو أنها كانت سألتنى لما وسعنى إلا أن أحدثها بما دار نفسى من أساليب الاحتيال عليها — لا خوفا منها، بل لأنها عودتنى أن أصدقها وألا يكون جزائى على الصدق إلا الخير. غير أنها لم تسألنى شيئا بل وافقت وقالت: «اقتراح حسن.. اذهب إلى ... خذ منه ما يكفيك».

ولو كنت ذكيا لأدركت أن فى الأمر سرا، وأن وراء هذه الموافقة السريعة التى لم أكن أتوقعها تديرا خفيا.. ولتذكرت أنها كانت تحببى حتى كانت لا تستطيع أن تفارقنى يوما واحدا فكيف بشهر أو شهرين؟ ولكن خفة الشباب صرفتنى عن النظر فى شىء من هذا، فصدقت وذهبت إلى الرجل فقال: «ليس معى الآن إلا خمسة جنيهات فخذها، ولولا أنى مريض لخرجت معك لأجيتك بكل ما تحتاج إليه.. ولكن بضعة أيام لا تقدم ولا تؤخر».

فخرجت مغتبطا فما كنت رأيت قط قبل ذلك اليوم خمسة جنيهاً — ذهباً — في كفى أصنع بها ما أشاء ولا أسأل عنها. وأنساني الفرح أن كوني لا أسأل عن هذه الجنيهاً ماذا صنعت بها هو التدبير الذى لجأت إليه أُمى اعتماداً على ما تعرف من تذبذرى وإسرافى اللذين أعياها علاجهما.

ومضت أيام ثلاثة نقصت الجنيهاً التى معى بعدها، فقد أبقيتها فى جيبي.. فطارت واحداً بعد واحد كأن لها أجنحة، فعدت إلى صاحبنا وقلت له أنى أريد بقية المبلغ اللازم لأنى أخشى الضياع على كل ما يعطينى.. فأبدى الاستغراب وسألنى عما بقى معى من الجنيهاً الخمسة، فقلت لم يبق إلا اثنان فقط.. فهز رأسه ولم يقل شيئاً وناولنى خمسة أخرى وقال: «إلى أن أشفى».

فكبرتُ فى عين نفسى، فقد كنت فرحت بخمسة وأحسست أنى رجل عظيم.. فكيف وقد صار معى سبعة لا خمسة فقط.. ولم أعد فى تلك الليلة إلى البيت إلا قبل الفجر متسللاً، فألفيت أُمى قاعدة تدخن وتنتظرنى، ولكنها لم تقل شيئاً واكتفت بالنظر والابتسام. ولو كنت ذكياً لاستغربت أن تبتسم لابنها الذى لا يكاد يقوى على الوقوف على قدميه — لا من السكر فما كنت سكيراً بل من التعب والإعياء والسهرة — وكانت هى تعرف أن الخمر لا تعينى فلم تكن تخشى شيئاً من هذه الناحية.

ولا أطيل على القارئ، فإنى أخشى أن أستطرد إلى غير ما أردت — والحديث ذو شجون كما يقولون — ويكفى أن يعلم أنى أضعت خمسة عشر جنيهاً فى خمسة عشر يوماً. وكان الذى عنده ما بقى من مالنا يتمثل للشفاء، وكنت أزوره لأعوده كل يوم فما يليق غير ذلك، فاتفق يوماً أن كنت عنده — معه فى غرفته — فجاءه الطبيب على عادته فى كل يوم فخرجت إلى الشرفة وجعلت أتمشى فيها — وكانت رحبية — إلى أن يفرغ الطبيب من فحصه، وكنت قد اشتريت «علبة» من الفضة للسجاير — فقد صار هذا البذخ فى وسعى — فأخرجتها من جيب البنطلون حيث رأيت أبناء الوارثين يضعونها، وأشعلت سيجارة وانطلقت أدخن وقال لى الطبيب: «هذه قسوة».

فاستغربت وسألته عن معنى كلامه، فقال إنه — أى الطبيب — حرم التدخين على نسيبنا هذا، وقد كانت رائحة الدخان تدخل الغرفة. وكان يرى المسكين تجحظ عيناه ويهتز رأسه على الوسادة، ولكنه لا يستطيع أن يقول شيئاً لأنه — أى الطبيب — واقف، وحذرنى من أن أعطيه دخاناً، وقال إن مريضه لاشك سيتعلق بى ويلحف

في رجائي أن أعطيه ولو سيجارة واحدة.. ولكن مصلحته تقتضى أن لا أرق له. ثم انصرف.

وعدت إلى صاحبنا وقد اختمرت في رأسى فكرة — أخذ عشرة جنيهاً دفعة واحدة، فإن أخذ الخمسات لا فائدة منه — وأسافر بها بلا تريث، وأطلب من هناك كل ما أحتاج إليه.. فما يعقل أن يضمنوا على بشيء في الغربة. ودنوت منه، وفركت كفى وقلت: «أظن أن لا فائدة لليوم من طلب شيء».

فوافق — وهو عابس — على أن لا فائدة.

فقلت: «حتى لو كان الطلب لا يعدو عشرة جنيهاً لا أكثر؟»

فزاد وجهه عبوساً وهز رأسه هزات متوالية بلا مناسبة فما كان ثم ما يقتضى هذا العنف وهو المحتاج إلى الراحة التامة. ثم إنى لم أعود منه إلا التلبية السريعة، فاقتنعت بأن رائحة الدخان — أو الطباقي كما علمنى المرحوم الشيخ حمزة فتح الله — هى المسئولة عن هذا السلوك الجديد الذى لا عهد لى به منه.

قال بلهجة الجزم: «أبداً» ولم يزد.

قلت: «لا حول ولا قوة إلا بالله».

ومددت يدي إلى جيبى، فأخرجت العلبة الفضية منه وفتحتها ببطء — وكانت مملأة بالسجاير — وخفضت يدي بها وأملتها وأنا أتناول منها — ليرى ما فيها من صفى السجاير، وأخرجت واحدة ورددت العلبة إلى مكانها، وأشعلت السيجارة.

وإذا بالنائم ينتفض ويقعد على السرير ويصيح بى بصوت كالرعد: «هات العلبة.. هات العلبة».

فصحت به وأنا لا أريم مكانى ولا أظهر اكترائاً لانتفاضه: «إيه؟»

فصاح وهو يلوح بكلتا يديه: «هاتها.. أقول لك هاتها. ألا تسمع؟»

فقلت وأنا أتظاهر بأنى لم أفهم مراده إلا الآن فقط: «آه تقصد السجاير..؟»

وأخرجت العلبة وفتحتها له وأنا فى مكانى — على نحو مترين منه — «هنا — فى هذا الجانب سجاير الفيل.. وفى هذا الجانب سجاير جناكيز».

فصاح: «هات.. هات.. هات».

قلت ببرود: «هى لك كلها إذا شئت».

فصاح: «أو لم أشأ.. لقد قلت لك هات مائة مرة فهل أنت أصم.. هات.. أقول لك

هات».

قلت، وأنا فى مكانى: «وهل تظن أنى أضن عليك بشىء؟ إذن أنت لا تعرفنى.. ولكنى أشعر بحاجة شديدة إلى عشرة جنيهات.. عشرة ليس إلا.. مبلغ زهيد فى الحقيقة وقد جئت إليك وفى مأمولى أن أبلغ عندك مقصودى، فما قولك؟»
قال: «خمسة.. مثل كل مرة».
قلت: «عشرة.. والعلبة كلها لك.. إذا شئت.. أما إذا لم تشأ، فالأمر على كل حال لك».

قال: «اجعلها سبعة.. وهات بقى».
قلت: «إنى أكره المساومة.. طباعى تأبأها.. وتربيتى تجعلنى أنفر منها.. أوه أنفر جدا منها.. إنك لا تستطيع أن تتصور شدة نفورى من المساومة.. يبلغ من كرهى لها أن أزهد فى الأمر كله فلا أعود أقبل الكلام فيه مهما كان الذى يبذل لى».
وطويت العلبة على سبيل التأكد لهذا النفور ووضعيتها فى جيبى وقلت: «والآن.. أستودعك الله.. إن شاء الله.. إن شاء الله أراك غدا بخير» وأدرت وجهى وهممت بالخروج، وإذا به يصيح بى: «تعال يا مجنون.. خذ العشرة التى تريدها.. هات بقى».
قلت: «حتى تصير العشرة فى كفى هذه».
وبسطتها له حتى لا يساوره الشك.. فتنهد، وناولنيها وعددتها على مهل ثم رميت له العلبة.

وخرجت وتركت له السجاير غير عابى بأوامر الطبيب، فما أطيش الشباب وأشد حمقه وأقل رفقه.. ولكن الله سلم ونجا ولم تقتله السجاير. أما أنا فلم يكتب لى الله أن أذهب فى سنتى تلك إلى الشام. ولهذا حديث طويل ليس هذا وقته فإن أكثر الذين يعينهم لا يزالون أحياء فموعدنا به بعد عمرهم الطويل.

الفصل الخامس عشر

البغاء والقط

– أعوذ بالله من الستات ... إنهن لا يرحمن ولا يتركن رحمة الله تنزل.

قلت: «لماذا؟ ماذا يسخطك على الجنس اللطيف»؟

فاعتدل على كرسيه وحدق في وجهي، وقال – أو صاح على الأصح: «لطيف؟ أتقول لطيف..؟ أيكون جنسا لطيفا ذاك الذي يلبس هذه الثياب الخفيفة في البرد ويبدو فيها مكشوف الذراعين إلى ما فوق المرفق؟ إننا نحن الجنس اللطيف لو عقل الناس». قلت: «يا سيدى.. ثم ماذا أيضا»؟ قال – غير عابئ بتهكمي: «ثم إنه ليس لطيفا في الحقيقة».

قلت: «هذه ملاحظة سمعناها فهي مكررة.. فإما قلت شيئا جديدا، وإلا فاسكت».

قال: «أنا أعنى أنه جنس غير لطيف المعاشرة».

قلت: «وكيف كان ذلك؟.. أعنى ماذا يسخطك عليه اليوم»؟

قال: «لعلك تذكر «إحسان».. لقد عرفتك بها. تعلقت بى كأنها ظلى، فسئمت وأقول لك الحق أنى خفت العاقبة.. فقد كنت أستملحها وأستعذب حديثها وأستريح إلى مجلسها، ولكن المصيبة أنها تحسب أن الملاطفة والمجاملة حب. الحق أن أمر هؤلاء البنات عجيب.. كل كلمة من الرجل – أعنى كلمة ملاطفة أو تودد – يتخذنها دليلا على الحب.. فإذا قلت لها إن ثوبها جميل، أو أن شعرها المرسل أو المرجل بديع، أو أن حذاءها حسن، أو أن ابتسامتها حلوة أو عذبة، أو أن ظل أهدابها على وجنتيها فاتن أو غير ذلك – أى كلمة ثناء تنطق بها – فما أسرع ما تؤولها بأنها صادرة عن حب وعشق وهيام وتدل! مصيبة يا أختي والله، يظهر أن هؤلاء الفتيات بهن ظمأ شديد إلى الحب، ويخيل إلي أن حياتهن تحفف نفوسهن وتذويها وتؤجج فيها الشوق إلى

الحب.. فلا تكاد الواحدة منهن تسمع لفظا عاديا من ألفاظ المدح التي يستدعيها حسن المجالسة وأدب الحديث حتى يثب خيالها من فرط اللهفة إلى سماء الوهم السابعة».

فقلت — وقد برمت بهذه المحاضرة: «أتريد أن تقص حكاية أم أن تتفلسف؟ يجب أن أعرف لأعد نفسي، وأتهياً لما سألقى».

فقال: «طيب.. قلت لك أن هذه الفتاة — «إحسان» توهمت — أو أنا خفت أن تكون قد توهمت — أنى أحبها. ولست أكرهها أو أستثقلها فإنها ظريفة جدا، ولكنها ليست الفتاة التي أختارها للزواج ولا سيما بعد أن عرفت «حورية».

قلت: «إنى أهنئك».

قال بلهفة: «أو تعرفها؟ أليست بالله مدهشة؟ ألا ترى أنها..» قلت — وأنا أرفع يدي لأصد هذا السيل المنحدر: «مهلا.. مهلا.. أنى لى أن أعرفها؟ إنما راقنى الاسم وجرى في خاطري أنك.. لعلك..».

فلوح بيده وقال: «إنك ثقيل.. تخجل المرء وتلقى على حماسته ماء باردا.. ما هذه الطباع السخيفة؟ لماذا تحب أن تصدم الناس على هذا النحو القاسي؟»

قلت: «أسف يا صاحبي.. لم أصدك.. ولو كنت أعلم أن كلمتي سيء وقعها في نفسك إلى هذا الحد لما نطقت بها. والآن ارجع إلى حوريتك، فإن اسمها يبشر بحكاية...».

قال: «أو هذا كل ما يعينك ... الحكاية ليست إلا ... شيء بارد».

قلت: «يا أحمى كن منصفاً ... هل تريد أن أحب حوريتك هذه من فرط حبك لها وأعجابك بها؟ قال: «أعوذ بالله» قلت: «انتهينا إذن ... هات الحكاية».

فاقتنع وقال: «الحكاية أن حورية أهدتني ببغاء صغيرا وقطة أيضا.. لا أدرى لماذا؟ ولكن لعلها ظنت أن بيتي حديقة حيوانات.. على كل حال هذا ما حدث.. ثم سافرت، وخطر لى أنى أستطيع فى فترة غيابها أن أنخلص من «إحسان» حتى إذا عادت حورية، وجدت الميدان خاليا.. فقد كنت أخاف أن ترى إحسان معى مرة فتظن بى الظنون وإن كان لا محل لها فى الحقيقة، فما بينى وبين إحسان ما يدعو إلى أى ظن.. ولكن النساء لا يفهمن الصداقة، ولا سيما بين الرجل والمرأة. وإحسان — كما تعلم — رقيقة الإحساس جدا، دقيقة الحساب والتقدير لكل حركة. وكانت أمدى تحبها وتخالفنى فى رأى فيها.. ولكنى كنت أقول لها — أعنى لأمدى — إنى أنا الذى سیتزوج لا أنت، فاسمعى لى بحرية الاختيار. وأختصر فأقول: إنى اتفقت معها —

أعنى إحسان في هذه المرة لا أمى — أن تمر بى في البيت لنذهب معها إلى القناطر الخيرية ونقضى يومنا هناك ومعنا أمى. وسافرت في ذلك اليوم على الرغم من احتجاج أمى واعتراضها، ولكنى حلفت لها أن العمل الذى يدعونى إلى السفر لا يحتمل الإرجاء. وطمأنتها فأوصيتها بإحسان وألححت عليها — وإن لم تكن بها حاجة إلى ذلك — أن تكرمها وتسرها وأن تتقى أن «تكسر خاطرها» كما يقولون.. فهل تدرى ماذا صنعت أمى؟

فهمت أن أقول شيئاً، ولكنه منعى بإشارة ومضى يقول: «إن الذى أريد أن أقوله هو أن أمى — على ما يظهر — سئمت عشرة القطط والببغاوات — ولها العذر — والحقيقة أنى لا أدرى كيف يمكن أن يوفق بين قط قوى صحيح وثاب وببغاء صغير لا يستطيع أن يتكلم ولا يحسن إلا أن يخرج أصواتا كتلك التى قد يخرجها كروان أصابه زكام — لا تقاطع أعوذ بالله من هذه المقاطعة — إنما أعنى إذا أمكن أن يصاب الكروان.. أو أى عصفور بالزكام.. هل استرحت الآن؟ فقد كان القط لا ينفك يثب إلى القفص محاولاً أن يقتنص الببغاء، وكان الببغاء لا ينفك يصرخ أو يصيح أو يستنجد أو لا أدرى ماذا أسمى هذه الأصوات المزعجة التى يخرجها ويستغيث بها حين يهجم به القط. ومن العبث أن تحاول أن تفهمه أنه فى قفص وأن القط يستطيع أن يقتل نفسه وثباً، فإن له — أعنى للببغاء — من القفص وقاية كافية. وكيف السبيل إلى الراحة فى بيت فيه ببغاء لا يكف عن الصراخ، وقط لا يكف عن الوثب حول قفصه؟ والقط حيوان خبيث متصلص لا سبيل إلى منعه أن يدخل على الببغاء فى حيث يكون من البيت إلا إذا وقفت له بالعصى على باب الغرفة طول النهار. ومع ذلك يستطيع أن يغافلك ويتسلل من بين رجليك وأنت غير دار بما فعل، وإن كنت واقفا كالعصى أو المقشه التى فى يدك. وقد حيرنا جدا هذا القط — أعنى أنه حير أمى فقد تركت الأمر كله لعنايتها فإذا وضعنا الببغاء على حافة الشرفة لينعم بالشمس والهواء قليلاً، نط القط إليه وراح يحاول أن يدخل من بين القضبان فينأى الببغاء المذعور إلى آخر القفص، ويرى القط أن يده لا تصل إليه فيطوى كفه ويثنى يده ويروح يحكها بالقضبان — عامداً بلا شك — فينقلب القفص ويصيب الببغاء الرعب، فيضرب بجناحيه كالمجنون ويطلق أعلى صيحاته المنكرة، والقط يحوم حوله ويلوب ويموء مواء له دلالة التى لا تخفى، ويُطل الجيران من نوافذهم وشرفاتهم على القيامة التى قامت فى شرفتنا، ونسمع نحن الضجة فنذهب نعدو كمركمة الإسعاف. أعنى أننا لا نبالى ما يكون فى طريقنا من

الأشياء، فكم من طاولة انقلبت بما عليها، ومن زهرية انكسرت، ومن أطباق سجائر انتثرت في الغرفة، الخ الخ.. وإذا علقنا البيغاء — أعنى قفصه يا سيدي — راح القط يتوثب حوله غير عابئ بما يسقط عليه حين يهبط إلى الأرض من وثباته، ويقبله أو يكسره.. ولا أطيل عليك فإن في وسعك أن تتصور حياتنا مع القط والبيغاء.. وأكبر الظن أن حورية أرادت أن تتخلص من هذا البلاء فأهدته إلينا وقيدته علينا في سجل حسناتها. المهم على كل حال أن أمي في غيابي أحسنت الاعتذار إلى «إحسان» وأهدت إليها القط والبيغاء جميعا.. ويخيل إلى الآن أنها رمت عصفورين بحجر.. لاحظ أني لا أقول أصابتهما، وإنما أقول إنها رمتهما فما أصاب الحجر سوى رأسي.. ذلك أني بعد أن عدت وعرفت ما كان واضطربت له وقلقت، انتهيت إلى أن الخيرة في الواقع وأنه ليس في الإمكان خير مما كان.. ومضت أيام وأنا مغتبط بالراحة الجديدة التي شعرنا بها بعد أن تخلصنا من هذين البلاءين — القط والبيغاء — وإذا بحورية داخله كالمدفع الرشاش. ولست أستطيع أن أقص عليك ما سمعت منها، فقد دار رأسي حتى صرت لا أعي ما أسمع، ولكن أمي لخصت لي الموضوع بعد خروجها، فقالت إنها عرفت — لا أدري كيف — أني أهديت هديتها، القط والبيغاء، إلى «إحسان» فهي لهذا واجدة ناقمة ولا تريد أن ترى وجه هذا الخائن بعد اليوم.. وهكذا طارت من يدي حورية.. ما أظن بأمي إلا أنها تعمدت أن تطيرها بهذه الحيلة.. فقد كنت أريد أن أتخلص من إحسان فما تخلصت إلا من حورية. ولا أدري ماذا أصنع فإنها لا تقبل أن تسمع مني كلاما أو تصغي إلى شرح وتفسير، فهل عندك رأى تشير به؟

فقلت: «قل لي أولا.. هل تعلم كيف استطاعت إحسان أن توفق بين القط والبيغاء؟» فقال: «الحق أقول لك أني أعتقد أن المرأة أحزم من الرجل، فإن إحسان لم تحاول قط أن تحل العقدة.. وإنما قطعها بحد السيف. ذلك أنها لم تكد تصل إلى بيتها وترى كيف ينظر القط نظراته المريبة إلى البيغاء حتى خيرت نفسها فاخترت البيغاء. ثم تناولت القط ودسته في غرارة ودفعت به إلى الخادم، وأمّرت أن يذهب إلى الطرف الآخر من المدينة ويفرغ الغرارة هناك. ويظهر أن حورية عرفت هذا أيضا فإني أرى نقمتها تزيد وتشتد ولا أراها تفتّر فما العمل؟»

فقلت: «أوه.. لا شيء.. لا تقطع نفسك حشرات.. دع الأيام تعمل عملها..»

فصاح بي: «ولكن عمل الأيام زفت وقطران.. فكيف أتركها تعمل عملها؟» فهزرت رأسي ومططت بوزي. وماذا أقول لمن يتكلم هذا الكلام؟ ثم خطر لي سؤال

فقلت: «هل أمك رجل؟» فصاح: «إيه؟»

البغاء والقط

قلت: «لماذا لم تحل العقدة كما حلتها إحسان وهي امرأة مثلها»؟
فمضى عنى ساخطا ولم يجب.

السيارة المسروقة

- إن من الواضح أن تربيتك ناقصة.. ناقصة جدا.. هذا أنا - بجلال قدرى - ألكمك منذ عشر ساعات وخمس وعشرين دقيقة وثلاث وأربعين ثانية وأنت لا تجيبين. فقالت زوجتى أخيرا وألقت ما بيدها - وكان شيئا تطرزه أو لا أدري ماذا تعنى به: «إنى لست اليوم كفوًا لك ولهزلك، فاسكت من فضلك».

قالت: «هذا بديل جميل من الاعتذار. ألا تستحيين يا امرأة؟ ثم ما هذه الذى تتشاغلين به عن التقاط الحكمة من فم سيدك وتاج رأسك وبعلك؟» قالت: «أرجوك.. أرجوك يا مسلم.. ثم إن الطباخة خرجت..» فانقضت واقفا وصحت: «نهارها أسود.. لماذا؟»

قالت: «استحسن زوجها أن يكون ذهابها إليه يوم الجمعة بدلا من يوم الأحد..» فانحطت على الكرسى وقالت: «ووافقت أنت بالطبع؟» قالت: «وماذا أصنع غير ذلك؟ وقد أصرا على يوم الجمعة، فلو رفضت لفارقتنا ولعدنا إلى حيرتنا القديمة».

قالت: «يا امرأة.. هل تعرفين أنى أتصور فى هذا البيت؟ يوم الجمعة الذى أستريح فيه وأظل أحلم طول الليل بما أطمع أن أنعم به من الأكل ... أوه إن هذا لا يطاق! هذه.. هذه.. هذه.. نعم بلشفية صريحة، ومع ذلك تزعم الحكومة أنها تكافحها.. ما عيب يوم الأحد بالله.. لماذا يجب - حتما - أن تكون بطالتها يوم الجمعة لا غيره؟» فضجرت زوجتى وبدأت تنفخ، وقالت: «ألا تسكت؟ مالك أنت.. إن لك أن تأكل والسلام.. ثم أنها مسلمة وكذلك زوجها فيوم الجمعة أوفق لهما».

قالت: «وهل من الضرورى أن تتزوج هذه الدميمة وذلك المغفل؟»

قالت، وهى تتمطى: «إنى أشعر بفتور وخذر فاعفنى بالله من وجع الدماغ.. وحسبى همّ إطعامك فى هذا اليوم الثقيل».

فقلت، وقد خطرت لى فكرة: «اسمعى، أقل لك».

قالت وهى تضحك: «وهل ترانى اليوم هنا إلا لأسمع؟ تفضل يا سيدى ونور عينى.. وماذا أيضا؟»

قلت: «وتاج رأسك.. اسمعى.. إن الفتور يغشى جسمك كما تقولين، وأنا رأسى يكاد يطير مذ عرفت أن هذه الطباخة الكريهة الوجه قد تخلت عنا فى يومنا هذا، فما قولك فى أكلة ناشفة خفيفة نصنعها هنا أو نشترىها؟»

فاعتدلت وقالت وقد لمعت عينها: «لماذا؟»

قلت: «وندعو فلانة وفلانا — من أقربائنا — ونذهب جميعا ومعنا الأولاد إلى القناطر الخيرية، فنقضى يومنا هناك بين الخضرة والماء».

قالت: «ولكنه سينقصك الوجه الحسن».

قلت: «يا خبيثة.. هل تظنين أنى تزوجتك وأنا مغمض العينين؟»

وحشرتهم جميعا فى السيارة، ودستت السلة التى فيها الطعام والشراب فى مكان مجعول لما يحمل المسافر من زاد ومتاع، وكانت الساعة الثانية مساء حين انطلقنا فبلغنا القناطر بعد نصف ساعة، فحملنا أشياءنا وتركنا السيارة فى حراسة رجل من الواقفين هناك المستعدين لهذه المهمات. وتخيرنا مكانا يشرف على الماء وتظله أشجار باسقة، وبسطنا السجادة وألقينا عليها صفحات من جرائد الصباح والمساء، ووضعنا عليها الصحون والصوانى ثم شرعنا نأكل، ولم يكن الطعام فيما يبدو لعيوننا الفارغة كثيرا.. فجعل بعضنا يخطف من بعض فكانت ألد أكلة وأهنأها، ثم طرحنا الوسائد على السجادة واستلقينا فنام من نام. ولما أذنت الشمس بالغروب ركبنا زورقا فى ترعة أشمون، ثم بدا لنا أن نعود لندرك الشيخ رفعت وهو يتلو القرآن الكريم — فما نحب أن يفوتنا ذلك منه قط — فرجعنا إلى حيث السيارة.. فاذا بها قد اختفت..

بهتت حين رأيت مكانها خاليا فوقففت كالصنم، وأقبلت على زوجتى تسألنى وتهز ذراعى، فقلت لها وقد أفقت قليلا: «نعم.. هزى ذراعى بقوة.. إن بى حاجة إلى الشعور بأنى لست أحلم وأن هذا ليس كابوسا..».

قالت: «أين ذهبت؟» قلت: «فتشبنى.. لقد كانت هنا.. تركتها فى هذا المكان.. وليس فى الأرض ما يدل على أنها انشقت وابتلعته... ولست أعرف أن لها أجنحة، فلا يمكن

أن تكون طارت. إن الطريقة الصحيحة للاهتداء إلى الحقيقة هي أن يبدأ المرء بنفى كل الاحتمالات غير المعقولة، كما تريننى أصنع الآن».

فصاحت «لولو» قريبتنا: «لقد سرقها اللصوص».

فصحت بها: «تالله ما أذكاك يافتاتى.. ولكن كيف لم نطفن إلى هذا بمثل هذه السرعة المدهشة»؟

فقلت لولو: «وماذا تكون مزية العبقرية وفضيلتها إذن»؟

قلت: «صدقت يا فتاتى النابغة..».

فقلت زوجتى مقاطعة: «هل هذا وقت الكلام الفارغ! ألا تفكرون فى طريقة لاستردادها»؟

فقلت: «آه.. هنا أيضا عبقرية ولكن من ضرب آخر — ضرب عملى لا يرتاح إلى النظريات.. عبقرية يمكن أن ننعته بأنها نابليونية، ولست أرى أنه ينقصنا — لنوقن أن السيارة عائدة باذن الله — إلا ضرب ثالث».

فقلت زوجتى متهكمة: «نعم يا سيدى.. تفضل».

فقلت بحدة: «لا تتهكمى يا امرأة.. نعم ينقصنا الضرب الشرلكمزى».

فصاحوا جميعا: «إيه»؟

فقلت: «أعوذ بالله.. مالكم تصرخون هكذا؟ نعم الشرلكمزى يا جهلة.. لو كنتم تعنون بثقيف عقولكم الفارغة قدر عنايتكم بخلافى والمكابرة معى وإنكار نعمتى عليكم وجود فضلى.. لعرفتم أن الشرلكمزى نسبة إلى شرلوك هولمز».

فقلت زوجتى وهى تضع كفها على فمها: «طيب اسكت بقى».

فلثمت راحتها وسكت.. كما أمرت.

وقال سليم — أخو لولو: «إن من الواضح أن علينا أن نتفرق».

قلت: «بديهى.. حتى لا يرانا اللصوص فيخافوا.. نعم يحسن أن لا نضع شيئا

يزعج اللصوص ويفسد عليهم متعتهم».

فصاح بى: «يا أخى ألا تكف عن هذا العبث»؟

قلت: «كففت بإذن الله.. تفضل.. ولكن اسمح لى أن أسأل هل تعنى أن ترسل

الأطفال وحدهم فى ناحية، وأمهم وأختك فى ناحية وتذهب أنت إلى حيث ألفت، وأعود أنا

إلى البيت وقد تخلصت منكم جميعا؟ إن كان هذا مرادك فأنا من الآن موافق والسلام

عليكم، ولا تكلفوا أنفسكم إرسال عناوينكم».

وبعد أن هدأت الضجة التي أثارتها هذه الكلمات البريئة، قال سليم: «تأخذ أنت الأطفال وهاتين أيضا - وأشار إلى زوجتي وأخته - وتركب تاكسى وتمر أولا بمركز البوليس ثم لا تتكل عليه بل تذهب تبحث.. وأنا أذهب أبحث من ناحية أخرى».

فقالت زوجتي لسليم: «أكون أنا معك فأني لا أكاد أطيق مزاحه في مثل هذه الساعات.. إنه لا يفرق بين جد وهزل كل وقت عنده صالح للضحك ... شيء فظيع..».

قلت: «أشكرك.. على أنى أستطيع أن أهدب لك خطتك العقيمة..».

فقالت زوجتي: «بالله اسكت.. أرجوك.. أر.. جوووووو».

قلت: «حالا. حالا. كل شيء في وقته يا امرأة.. وهل هذا وقت رجاء؟ إنه وقت العمل.. ألا تفهمين؟ اسمع يا هذا. تذهب أنت إلى البوليس وتعفينى من هذه المهمة التى لا أرتاح إليها ولا أعتقد أن فيها فائدة، وتأخذ معك هذه الزوجة الجاحدة الناكرة للجميل، وأفعل بعد ذلك ما تستطيع.. وإلى الملتقى في البيت العامر إن شاء الله».

فقالت زوجتي: «أيوه.. أنا أقول لكم ماذا ينوى أن يصنع.. سيذهب إلى البيت مباشرة ولا يكلف نفسه أى عناء في البحث عن سيارته.. وسترون».

وكنت مقتنعا بهذا الرأى حتى لقد اشتريت «صفيحة» بنزين من القناطر وضعناها معنا في التاكسى، وقلت للولو: «لهذا فائدة أخرى هى أن يعتقد سائق التاكسى حين نتركه وركب سيارتنا أنا ما استأجرنا سيارته إلا لهذا السبب، فلا يروح يعجب أو يسأل عن شيء ولا يبدو له شيء غريب في عملنا».

وقد شاء الله أن يحقق ظنى، فما كدنا نقطع خمسة كيلومترات من الطريق بعد أن تركنا القناطر وأخذنا في سكة قليب حتى وجدنا السيارة. وأوجز فأقول أنا ركبناها فرحين، وعدنا إلى القناطر عسى أن نجد بقيتنا. فلما لم نجد أحدا تركنا لهم خبرا عند الحارس النائم، ثم حملناه معنا إلى مركز البوليس لنسرههم ونعفيهم من البحث، فعلمنا أن أصحابنا أبلغوهم خبر السرقة، وأن بعض الشرطة خرج للبحث وأن الخبر طير بالتليفون إلى قليب والقاهرة ولجهات أخرى أيضا لضبط السارق في الطريق. فشكرنا لهم هذه المهمة التى لم تكن متوقعة ثم قلت لهم: «إن المهم الآن هو البحث عن زوجتي».

فصاح الرجل: «إيه؟ قلت: «إنها مع قريبي وقربها» قال: «انتبهينا».

قلت: «كلا لم ننته.. وما أدراك أن هذه ليست سرقة أخرى أفزع وأشنع؟»

فضحك الرجل.. وجرتنى لولو وهى تحتج.

تركنا السيارة أمام رصيف البيت وجلسنا في الشرفة نأكل لحم الغائبين — أعنى ننتظرهما — وإذا بهما عائدان بعد نحو ساعتين في سيارة — هى أخت سيارتنا بلا فرق — فانددرت إلى الطريق بسرعة فوجدتهما يتأملان هذه المعجزة، فقلت: «تمام.. لقد سرقت هذه السيارة يا صاحبي، ولم أكن أعرف أن قريبى ونسيبى لص.. ولكن ماذا أصنع؟ لقد أخفوك عنى قبل أن أتزوج، فصار واجبي أن أخفيك عن أعين الناس بعد أن تزوجت».

فهم بكلام فمنعته ودعوته أن ينظر إلى السيارتين، فاقتنع وقال: «ما العمل الآن؟ قلت: «تستعد للسجن.. لقد كان هذا واجبا من زمان طويل في الحقيقة، ولكن ما أكثر من يستحقون السجن وهم طلقاء.. والآن انهب بالسيارة إلى الجراج — السيارة المسروقة ثم أبلغ البوليس بالتليفون وقل له إنك عندى تنتظر حضوره للقبض عليك». وعرفنا منهما بعد ذلك أنهما ركبا القطار ثم الترام إلى العتبة الخضراء وإذا بهما يريان السيارة عند رصيف إدارة البريد، فذهبا إليها يعدوان فألفياها خالية فركبا، وانطلقا بها من غير أن يعنيا بالنظر إلى رقمها وانحدرا بها في شارع فاروق.. وتركا صاحبها المسكين يجرى وراءهما ويصيح ويصرخ ويستنجد، وهما يضحكان مسرورين.. بارك الله فيهما من لصين جريئين.

وقلت لهما: «لا عليكما.. ستكون العتبة الخضراء كلها عندنا بعد دقائق ببوليسها وصبيانها وباعتها.. إلى آخره.. إلى آخره.. وسيشهد الجيران وجيران الجيران أمتع رواية رأوها أو يمكن أن يروها في حياتهم أو حياة هذا الشارع الرزين». وجاء الشرطة والمسروق المسكين في تاكسى. وكان لابد أن يروا السيارة وأن ينزلوا، وكنت واقفا إلى جانبها أنتظر هذه التشريف، فقال الرجل: «هذه هى» ومسح العرق المتصعب ودنا منها وهم بأن يفتح بابها فتصدت له وقلت: «عفوا.. هل من خدمة؟» فصاح: «خدمة؟ يا حرامى يا مجرم.. أين أخفيت شريكك؟ المرأة التى كانت معك»؟

فنظرت إلى الشرطى وأنا أبتسم — فقد كان الموقف يتطلب الهدوء والكياسة، وقلت: «هذه سيارتى يا حضرة الشاويش، فما خطب هذا الرجل؟» فصاح الرجل: «سيارتك يا حرامى يا صفيق الوجه؟» — إنى أسمح لك بأن تتأملها.

فدار حولها ونظر إليها من الأمام ثم من الخلف، ثم وقف أمامى وهو يردد وينتنفض ويقول: «أما مجرم.. بسرعة غيرت أرقامها؟ ولكن هل تظن أن هذا ينفك؟».

فبدأ على وجه الشرطى التردد حينما سمع أن الأرقام مختلفة، وإذا كان المفجوع في سيارته قد طار عقله، فإن الشرطى لا يوجد ما يدعو إلى زهاب عقله أيضا، وقلت أنا: «المسألة بسيطة. ومن المعقول أن أغير لوح رقم المرور بسرعة، ولكن ليس من المعقول أن أغير رقم الشاسيه المحفور على محرك السيارة، فتفضل واذكر هذا الرقم بعد مراجعة رخصتك إذا شئت، ثم ارفع غطاء المحرك وانظر».

ففعل فإذا الرقم مختلف جدا، وشعر بالهزيمة وأدرك أنه تجنى على جدا فبدأ يعتذر.. فسألته: «ولكن كيف يمكن أن تخطئ إلى هذا الحد..؟ هل يعقل ألا تعرف سيارتك؟»

قال: «إنه لا فرق بينهما على الإطلاق لا من الداخل ولا من الخارج».

فقال الشرطى وهو يريد أن يفض النزاع الذى تهور فيه صاحبنا: «ما دامت السيارتان متشابهتين إلى هذا الحد فإنه معذور».

قلت: «وهل كنت تعذرني لو كنت أخطأت مثل خطئه وذهبت أسب الناس وأتهمهم بالسرقة؟»

قال: «طبعاً.. صحيح إنه تهور في الاتهام قبل التثبت، ولكنه معذور في خطئه في معرفة السيارة».

قلت: «وإذا دلتك على سيارتك هل تشكرني.. أم تستأنف اتهامك لى بالسرقة؟»

فعاد إلى الاعتذار، وأكد لى أنه يكون شاكرا جدا. فلم يبق داع للإطالة فرويت له وللشرطى القصة من أولها إلى آخرها كما وقعت، وقلت لهما إننا أبلغنا مركز البوليس أنا وجدنا السيارة الأخرى التى ظننا قريبي سيارتنا، وأن البوليس لاشك سيحضر بعد قليل ليتسلمها. وبهذا انتهى الحادث..

وقلت لزوجتى وأنا أدخل بعد الفراغ من ذلك: «هل تعترفين الآن أن الذى كان يضحك ويمزح كان هو الحكيم السديد الرأى الصحيح النظر؟»

فأثرت المكابرة وقالت إنها مصادفة واتفاق، فشهدت لولو بأنى أحسنت التقدير.. فعادت زوجتى تلوم لأنى كتتمت رأىى الحقيقى وتركتها تذهب وتلف وتدور مع سليم، وأنى آثرت لها التعب ولنفسى الراحة.

فقلت: «ليكون هذا لك درسا ... ألم أقل لك أن تربيتك ناقصة؟»

فهاجوا بى وثاروا، ولكن هذا لا يعنى القراء لا قليلا ولا كثيرا.

الفصل السابع عشر

ميمى

– أنت أجمل فتاة على ظهر هذه الكرة الأرضية.. وأنا أسعد الرجال وضم إليه زوجته التى لم يمض على بنائه بها أكثر من اثنتى عشرة ساعة، فالمبالغة تغتفر له ولا ينبغى أن تسوء أحدا من بنات حواء – كل ما فيك صاغة فنان.. فخداك من الممرم الناصح – وأمرّ يده عليهما برفق – وردفاك حساسان ولجلدهما الرقيق اختلاج حسن تمشين كاختلاج الماء صافحه النسيم الوانى.. وثدياك راسخان لينان وأحلى فيما تحس اليد من الكمثرى.

وحنا عليها بسرعة وطبع على غلالة شفيتها قبلة حارة.. فلمعت عينا «ميمى» واتقد وجهها وصار صدرها يعلو ويهبط، ثم قالت: «لكأنا تزوجنا منذ سنين يا سليم.. أليس كذلك؟» ولصقت به، ثم قالت: «تحبنى يا سليم؟»
فرفع رأسه وابتسم ابتسامة عريضة، وقال: «أحبك إنى مجنون بك.. لا أدرى ماذا أصنع إذا لم تكونى معى؟»

فلمعت عيناها وقالت: «من يدرى.. ربما شغلت عنى وألهيت عن ذكرى..».
فلم يدعها تتم الكلام وأهوى على فمها بقبلة.

وكانت «ميمى» مشهورة بقوة جذبها السريع حتى أيام كانت بنتا صغيرة. وكان غيرها من البنات أجمل منها شعرا أو أحلى عينا أو أفتن إبتسامة.. أما ميمى فلم يكن لها ما يمكن أن تقول إنه سر جمالها، وإنما كان المرء يشعر أنها فى جملتها أجمل وأسحر. وكانت قوة الجذب هذه تلفت النظر إليها وهى تلميذة فى المدرسة، وكان كل من يراها يشتهى أن ينظر إليها مرة أخرى. ولكنها هى كانت تعتقد أنها ليست على شىء من الجمال، وإن كان اعتقادها هذا لم يُغرها بالتكلف. وكان الذى وجه خواطرها فى

حدثتها إلى هذه الناحية أنها سمعت أمها تقول لصاحبة لها مرة: «إن ثدي ميمى كبيران جدا» وكان هذا صحيحا، فلما أقبل الليل وصارت في غرفتها وحدها نظرت إلى صدرها في المرآة وسألت نفسها: «أترى هذا من الدمامة؟ أهما أكبر مما يجب أن يكونا؟» وآلت على نفسها في تلك الليلة أن تهتدى إلى الحقيقة.

ولو أن ميمى لم تسمع أمها تقول ذلك لكان الأرجح أن لا تجرى خواطرها هذا المجرى، ولظلت على الأقل سنة أخرى لا تطلب أن تهتدى ولا تشتاق إلى هذا الضرب من المعرفة. وكان أول ما عنيت به هو أن تتأمل صدور البنات من أترابها في المدرسة، فألفتهم جميعا إلا القليلات ذوات أثداء صغيرة نابثة ولم تكن للقليات أثداء كبيرة، ولكنها كانت تقبل المقارنة بثدييها.

أما المقياس الحقيقي فأتيح لها في يوم خرجت فيه مع لفيف من أهلها بينهم سليم — ابن عمها — إلى القناطر الخيرية فاتفق أن جلست على دكة هناك تحت شجرة على ربوة، فجاء سليم وجلس إلى جانبها.. فقالت لنفسها حين أبصرته يقعد معها إن هذه فرصتها، وشرعت تحاول أن تعرف منه ما تريد. أليس سليم شابا؟ فهو خليق أن يقول لها ما رأى الرجال في حجم ثدييها. ولكن سليم حى ففى محتاجة إلى اللف والدوران أو إلى أن تكون معه كالطلبة الماصة لتحمله على القول الذى تنشده، فسألته: «هل تخرج كثيرا مع البنات يا سليم؟»

فقال: «إيه؟ أحيانا».

فسألته: «كم بنتا خرجت معها إلى النزهة؟»

فأطرق وقال وعينه على الأرض: «أوه.. وهل أنا أعرف؟ ربما كان عددهن سبعة أو أكثر..».

فسألته: «كلهن من حيّكم؟»

فقال بإيجاز: «تقريبا».

فسألته: «ألا تعرف أحدا من غير الحى الذى أنت فيه؟»

فقال: «أعرف.. ولكن ما هى الحكاية؟» قالت: «هل هن جميلات؟ أعنى هل

قوامهن جميل؟ فقال: «بعضهن» فقالت: «هل قوامهن أعدل من قوامى؟»

وكان صوتها وهى تلقى عليه هذا السؤال يخيل إلى السامع أنها ترجو منه أن

يكون جوابه «لا» ولكنه خرج من «لا» ومن «نعم» بقوله: «لا أعلم».

ففعلت شيئاً لم تكن تظن أنها تستطيع أن تقدم عليه، ولكنها أقنعت نفسها بأن الامر كله أمر بحث عن حقيقة واختبار لمبلغ الصدق في قول أمها أن ثدييها كبيران، فقالت له وهى تمنحه فمها: «قبلنى».

وصارت شفثاه على شفثيتها — لا يدرى كيف، ولكن هذا هو الذى كان — وأحس حرارة القبلة تسرى فى بدنه وتوقد النار فيه وتخزه أيضاً. وانتهى الفصل الأول ورجعت ميمى إلى بيتها فى تلك الليلة وهى تشعر أن شيئاً حصل تحت الشجرة اللفاء، وأن بابا يفضى إلى أسرار عويصة قد فتح لها.. فتحتة قبلة واحدة ليس إلا.. وصارت تشعر بعد ذلك أنها مخلوق جديد وأن حياتها من طراز آخر غير الذى غبر.. وأصبحت تناجى نفسها وتسالها عما وراء الباب.. وتقول لنفسها إن القبلات حلوة وإنها تحسها معسولة، ولكن أهذا كل شيء؟.. لا.. فإنها تحس حنيناً إلى ما لا تعرف وما لا يسعها أن تدرك، وأخيراً عرفت بعد أن بلغت العشرين وانتقلت إلى بيت سليم وارتمت بين ذراعيه.

وقالت ميمى وهى بين ذراعى سليم صباح ليلة الجلوة: «لقد ارتفعت الشمس.. صرنا قرب الظهر.. ألا نقوم؟»

ففتح سليم عينيه ببطء وقال: من حسن الحظ أن الزواج ليس كله شهر عسل، وإلا متنا.

فزوّت ميمى ما بين عينيها وقالت: «لست أفهم ما تقول.. أليس واجبا أن تظل حياة الزوجين شهر عسل كلها.. أى أن يكون الشهر سرمداً؟»
فتنهده وقال: «إنه ليس كذلك من حسن الحظ.. أوه مستحيل.. أين من يحتمل ذلك.. أوهو.. مستحيل».

ثم عاد فقال: «لا يخب أملك.. كل شيء يفتى على الأيام.. هذا عزاؤنا جميعاً».
فلم تستطع ميمى أن تفهم لماذا لا يبقى شهر العسل دائماً.. ولم تدر ماذا يمنع أن يدوم، ولكنها لم تقل شيئاً ولم يحاول هو أن يفهمها، وشغل كلاهما بحياتهما الجديدة فى البيت وخارجه فنسيت أن شهر العسل سيزول كما هددها سليم أو أنذرهما. وكانت بعد أن تفرغ من تغيير ثيابها كل ليلة على أثر عودتهما من السينما أو الرياضة أو نحو ذلك تجلس فى حجره وتنحى ما أمامه من الأوراق وتوسعه تقبيلاً، ثم تسأله: «ألا تزال تحبنى؟» فيقول: «بالطبع.. يا له من سؤال!»

وكان النهار أثقل الأوقات على نفسها لأن زوجها يغيب فيه عنها، ولم يكن لها فى البيت عمل فإن الخدم كثيرون.. الطباخة وبنتان للكنس والمسح وما إلى ذلك. وكان

بيتها شقة في عمارة كبيرة عالية فحدث يوما أنها كانت تنتظره ليخرج بها إلى السينما، وإذا بالبواب تفتحه فألفت سيدة تقول لها: «معذرة إذا كنت أزعجتك.. ولكن خادمتي أضعأت المنفضة، فهل أجد عندكم واحدة؟»

فقالت ميمي: «لا أدري.. تفضلي حتى أسأل الخادمة».

فدخلت السيدة وهي تقول إن شقتها هي التي فوق هذه، فاستغربت ميمي في سرها لماذا لم تذهب إلى أحد من السكان الآخرين المقابلين لها في دورها، وحدثت نفسها أن لعلها فعلت فلم تجد عندهم ما تطلب. وقالت السيدة — كأنما ترد على هذا الذى تحدثت به ميمي إلى نفسها: «لقد رأيتك منذ لحظة تخرجين إلى الشرفة في قميصك.. ولا يسعنى الا أن أقول أن قدك مدهش».

فسألتها ميمي: «رأيتنى؟ كيف رأيتنى وأنت فوق؟»

قالت: «رأيتك من الشرفة الأخرى.. من حسن الحظ أن زوجى ليس فى البيت ولم يرك، وإلا لكان من المحقق أن يقذف نفسه عليك».

فدهشت ميمي ولم تقل شيئا وراحت السيدة تسألها عن اسمها كله، فقد عرفت بعضه من البواب، وتخبرها باسمها هي تقول إن من الواجب أن تلتقيا كثيرا وأن تتزاورا، ثم سألتها: «هل زوجك يسافر ويغيب عنك أياما؟» فقالت ميمي: «يسافر؟.. يسافر أين؟.. كلا بالطبع».

فقالت الأخرى: «إن زوجى لا يزال على سفر.. وقد كنت فى أول الأمر أقعد فى البيت ولا أبرحه يوما بعد يوم انتظارا لعودته. وقد ضاق صدرى ولم أعد أطيق ذلك، فلن تجدينى فى البيت حين يتركنى ويرحل».

فأحست ميمي أنها تحتاج إلى حماية من هذه الجارة، وألفت نفسها تلف الروب دى شامبر على صدرها وإن كانت مع ذلك لم تستطع أن تمنع نفسها أن تسأل جارتها: «أين تذهبين حين يغيب عنك زوجك؟»

فقالت الجارة بابتسامة وضيئة: «أوه فى أى مكان.. الأصدقاء يتكفلون بذلك».

فصاحت ميمي: «الأصدقاء.. أى أصدقاء؟»

فقالت الجارة: «بالطبع يا طفلى العزيزة.. وأى بأس فى ذلك؟»

فقالت ميمي: «ولكن زوجك؟ ألا يسوءه هذا؟ ألا يغضبه أن تخرجى مع رجال؟»

قالت الجارة: «يغضبه؟ وماذا تظنيه يصنع وهو مسافر؟ يقضى الوقت فى المسجد؟

كلا إنى أعرف ما يصنع».

وصارت هذه الجارة معلمة لميمى. وكرت الأيام فأصبحت لا تبالى تقصير سليم معها، ولا تحفل ما تراه من فتوره حين يعود إلى البيت متعبا. وتكررت زيارات الأتراب لها فجأة بفضل الجارة الحاذقة التى أدركت أن ميمى غريرة لا عهد لها بهذا الضرب من حياة المرح، وما لنا لا نقول حياة الاستخفاف.. فبدأت معها بتبادل الزيارة ثم صارت تزورها ومعها أتراب لها، فحتاج أن ترد الزيارات وتخرج إليهن، وارتقت من ذلك إلى دعوتها إلى التنزه والخلوات، ولم تكن الجارة تعدم سيارة تستعيرها بسائقها من بعض من تعرف من الرجال، وكانت تحرص فى هذه الرحلات الأولى على أن تكون قاصرة عليهن، ثم صار يتفق أن يلتقين فى هذه الرحلات إلى الأهرام أو المازة أو غيرهما ببعض «أقارب» الجارة، فيحصل التعريف الذى تقضى به الآداب، وهكذا إلى أن ألفت ميمى أن تكون مع الرجال كما ألفت أن تخرج مع النساء. وكان الزوج غافلا عن ذلك فى أول الامر. وكانت ميمى إذا آن أن يناما تدنو منه وتلصق به فيتثاءب ويعرض عنها. وكان ربما زجرها عن ذلك وقال لها بعنف إنه محتاج إلى النوم، وكانت هى فى أول الأمر يشق عليها إعراضه وتحس بحزة فى نفسها فتبكي، فلما توثقت الصلات بينها وبين الجارة لم تعد تبالى هذا الفتور. وظن سليم فى بادئ الأمر أن زوجته «هداها الله» حتى كانت ليلة فأقبل عليها يريد أن يقبلها وفتح لها ذراعيه ليضمها، فلم تحرك ساكنا ولم يبد عليها أنها راغبة فى ذلك فعجب وسألها: «مالك»؟ قالت: «لا شىء.. ما لك أنت»؟ قال: «ألا تقبلينى»؟

فمطت شفيتها وهزت كتفيتها وقالت: «إنك تحتاج إلى النوم وأنا لا أريد أن أقبل أحدا».

فلم يفهم وألح عليها بالكلام، فبدرت منها كلمة فهم منها أنها لا تباليه، فنظر إليها محدقا فى وجهها وقال: «مع من تخرجين؟ من هؤلاء الأصدقاء أو الصديقات اللواتى ظهرن فجأة»؟

فقالت: «لم تعد الحقيقة.. أصدقاء وصديقات.. ومن الجنسين.. ولكنك تكون ندلا إذا أسأت الظن.. ولا أكون أنا بنت أبى وأمى إذا احتملت منك ذلك».

فذهل — وإن كان عنفها قد طمأنه — وقال: «ولكن.. ماذا جرى لك»؟

قالت: «لم يجر لى شىء.. إلى الآن.. لا أزال ميمى التى تعرفها وإن كنت قد تعلمت أشياء كثيرة، ولكنه سيجرى لى على التحقيق أشياء كثيرة إذا بقيت تهملنى.. ثق أنى تعلمت ولكنى لم أعمل بما تعلمت إلى الآن.. سأعمل حتما.. فهل ترضيك هذه الصراحة»؟

فقال: «لقد كنت طول عمرك جريئة».

وانحط على كرسى، فقالت: «جريئة أو غير جريئة.. سيان.. المهم أنك دفعتنى إلى التعلم.. وأخشى أن تدفعنى إلى ما هو شر.. وقد أذرتك.. وأنت ورأيك.. ولكن لا تلمنى حينئذ».

فأطرق يفكر وطال تفكيره وأحس أنه واقف على حرف هاوية، وكان قلبه يخفق بشدة وعنف غير أنه كان يبدو للمتأمل هادئا ساكنا، وجرى بخاطره أن ميمى على حق، وراجع نفسه وهو قاعد ورأسه مثنى على صدره وعينه على الأرض، وتذكر أن ميمى كانت أبدا جريئة مجازفة.. ألم تدعه إلى تقبيلها مرة؟ ولكن كيف عرفت هؤلاء الناس.. من الرجال والنساء على السواء.. ولم يرتب قط في صدقها، ولم يخالجه أدنى شك في أن الأمر اقتصر على اللقاء والتنزه، وأنه لم يقع بينها وبين أحد من هؤلاء الرجال ما لا يحمد فإن ميمى صريحة لا تهاب شيئا ولا تخش أحدا. ولكن كيف عرفتهم.. وقال لنفسه إنها عرفتهم لأنه أهمل أن يكون معها ولأنه كان يتركها وحدها ويقضى سهراته مع الإخوان وفي ظنه أنها ستقنع برفقة الخدم. هذا هو يستنكر كيف عرفت هؤلاء.. والمهم الآن هو إنقاذها من الهاوية وإنقاذ نفسه معها. ونهض ومشى إليها وهو يمد يده ويتناول كفها: «سامحيني يا ميمى.. لن أهملك بعد اليوم».

فرفعت رأسها وحدقت في عينيه، وقالت: «صحيح..؟ لا تتركنى وحدى؟» فقال وهو يميل عليها ويدنى فمه من فمها: «كيف يمكن..؟ وأنت هل رجعت إلى..؟ هل أرجو أن أراك كما كنا؟»

وفي هذه اللحظة دق التليفون فمدت يدها وتناولت السماعة، وقالت: «اللو.. نعم..؟ زكيه؟ معك من..؟ حمدى..؟ أسفة.. يا زكية مشغولة.. نعم.. معى صديق قديم عاد إلى.. تريدين أن تعرفى من يكون.. اسمعى إنه أحب الناس إلى.. لا أستطيع أن أعرف أحدا ما بقى هذا الصديق لى.. من هو..؟ سليم.. ألا تعرفين سليم.. لم تسمعى به قط.. معذرة.. زوجى يا بلهاء.. معذرة.. لا.. لا أمل في لقاء أحد بعد اليوم. كلا.. لا تتعبى نفسك لا أنت ولا غيرك.. أعنى هذا.. تماما.. مع السلامة».

والتفتت إلى زوجها وقالت: «فهمت أنى لا أريد منها ولا من غيرها زيارة فغضبت».. فلم يقل سليم شيئا بل انحنى عليها وحملها بين يديه ومضى بها إلى الأريكة الواسعة وهى متعلقة به تضحك له وتقبله راضية.

الفصل الثامن عشر

ليلي

وقفت ليلي أمام المرآة تصلح شعرها، وتضع فيه المشابك وتسويه براحتها وأناملها، وتثنى شعرات منه هنا وترد أخرى إلى مكانها هناك، ثم تناولت المثبنة وفتحتها ونظرت فيها هنيهة ثم قلبتها على المنضدة ونفضتها بأطراف أصابعها، ثم نَحَّتْها وراحت تتأمل ما أفرغته منها. ثم هزت رأسها أسفة، وشرعت ترد الأشياء إلى الحقيقية: المشط والمنديل وثلاثة طوابع بريد بثلاثة ملاليم.. لا شيء غير ذلك.. حتى ولا أجرة الترام إلى عملها الجديد الذي فازت به. وما غناء ثلاثة من طوابع البريد بثلاثة ملاليم.. لو كانت عشرة لباعتها وركبت، إن المسافة طويلة من حدائق القبة إلى شارع سليمان باشا. ولو كانت عشرين لباعتها أيضا — لتركب — فإن المشي يسهل أن يحتمل إذا كان معها قرش تأكل به. كلا.. لا بد أن تصبر على الجوع، وأن تتجلد وتحتمل المشي مع الطوى، وما بقى سوى يومين ثم تقبض أجرها عن هذا الأسبوع الأول. ولكن هل تستطيع أن تحتمل الجوع وتعب العمل والمشى يومين كاملين؟ وأبت أن تفكر في هذا وأن تدعه يثبط همتها وقالت لنفسها إن حسبها أنها وفقت إلى عمل، وأنه في وسعها أن تظل حية إلى اليوم. وهبطت على كرسى وهى تقول «آخ» لا من التعب بل مما ستلقى في يومها هذين. ومر أمام عينها كشريط السينما ما كان من أمرها إلى الساعة، فقد تخرجت في المدرسة السنوية ولكنها لم تشتغل بالتدريس.. فقد أحببت فتى رشيقا أغراها بنفسه ووعدها بالزواج وكرر الوعد وأكده وأقسم على الحفاظ — وما أسهل بذل هذه الوعود على الشبان — حتى فاز منها بما يبغى. وألحت عليه تطلب منه الوفاء. وتوسلت إليه، وبكت وقبّلت يديه ورجليه. ولم يكن هو ينوى الوفاء، ولا كان هذا في وسعه.. فما كان سوى عامل في مصنع، وإن كان مظهره يوهم أنه من الوجهاء. ولم يكن يدرك ما تورط وورطها فيه — وماذا عسى أن يخشى مثله؟ ولكنها هى كانت لا يخفى عليها ما هى صائرة إليه

من الفضيحة لا محالة إذا لم تعجل بالتدبير المنقذ. وليتها أطلعت أمها على ما كان من أمرها مع هذا الفتى.. ولكن ما جدوى «ليت» بعد ثلاث سنوات قضت فيها الحسرة على الأم المسكينة ولم ترقق قلب أبيها الغليظ؟ وكانت ليلي تخشى ضعف أمها وقوة أبيها فلم تجد أمامها الا فتاها تلقي بنفسها عند قدميه باكية متوسلة، وهو يرى تضعها هذا فيتجبر ويتعطرس ويتحكم ويدعوها أن تفر معه. وتتردد وتحجم عن هذه الخطوة الحاسمة التي لا رجعة بعدها إلى أهلها، فإن أباه عنيف عنيد يؤثر أن يقتلها على أن يقبلها في بيته. بل هو لا محالة قاتلها إذا عرف الحقيقة، وإذا أطاعت فتاها وفرت. وسيعرف الحقيقة إذا بقيت فالفراغ أنجى. وقد لا يكون أشرف، ولكنه سبيل الحياة إذا شاءت أن تبقى حية. وقد كان ... فرت مع هذا الفتى وحملت معها في حقيبة الثياب حليها وشيئا من حلى أمها أيضا، وقد نفعها ذلك فما أقامت مع الفتى إلا أياما في فندق زرى، وكان ظنها أنها ذاهبة إلى بيته، وأنها ستكون زوجة له، فيكون مما يرجى، أن تغتفر زلتها على جسامتها.. فإذا بالفتى لا يريد إلا أن يقضى أياما في متعة خالصة ثم يلقي بها عظمة بعد أن أكلها لحما. فكادت تجن ... واغتنتم فرصة خروجه من الفندق يوما، فحملت حقيبتها وأدت حساب الفندق، وانطلقت على غير هدى. وصارت المسألة «أين تذهب؟» بيت أبيها لا سبيل إليه، وأترابها في المدرسة ... كلا، هذا أيضا ممنوع. وتذكرت وهي واقفة في محطة للترام صديقة لها كانت من جيرانها في زمن الحداثة، وهي الآن «حكيمه» في قصر العينى. ولكن الحكيمات في هذا المستشفى يبتن فيه ولا يخرجن إلا أياما معلومة، فما العمل؟.. ولم يطل تردها فذهبت إلى العيادة الخارجية، وسألت تلميذة لقيتها فيها عن صاحبها، واتفق أنها كانت تعرفها فدلتها عليها وأنبأها أنها تعمل في قسم الرمذ، وكتبت إليها ورقة بعثت بها مع خادم أو «تمورجى» كما يسمى فدعتها الحكيمه إليها.. وكانت هذه المقابلة بداية الفرغ.

أقامت ليلي بعد ذلك مع أهل الحكيمه، وكانتا تلتقيان يوم الأحد ويوم الخميس والجمعة إلى المساء — كل أسبوعين مرة — وكانت ليلي ربما اشتاقت إلى صديقتها في أيام عملها بالمستشفى فتذهب في الظهر أو في الساعة التاسعة لترها وهي خارجة من المستشفى في طريقها إلى «الهوستل» حيث الطعام والنوم، فتحدثها دقائق ثم تكرر راجعة إلى البيت. وكانت المسألة التي تشغل البننتين هي كيف ينبغي أن تحيا ليلي. فقد كان مفهوما أن إقامتها في بيت صاحبها ليست سرمداء، وإن كانت تنفق على نفسها من ثمن ما تبيعه من الحلى.. فإن لهذا آخرا على كل حال. وكان مما فكرا فيه أن تعمل

في عيادة أحد الأطباء، ولكن ليلى أشفقت أن تلتقى عنده بأحد من أهلها أو معارفها. وخطر لهما أن تعمل في مصلحة التليفون ولكن السعى أخفق ولم تجد وساطات الأطباء الذين استعان بهم «الحكيمة» فقد تحول التليفون وانقلب. «أوتوماتيكيا» فما الحاجة الى بنات جديدات؟ وخشيت أن تشتغل بالتعليم في مدرسة أهلية فيتهدى إليها أبوها، وكان خوفها من ذلك عظيما. وأخيرا اقترح عليها طبيب أن تتدرب على الآلة الكاتبة، ففعلت وأتقنت ذلك حتى صارت تكتب ثمانين كلمة في الدقيقة، وأعانها الطبيب وألحقها بمكتب يتلقى طلبات «النسخ» ولكن العمل كان قليلا لأن أكثر ما كان يطلب كان باللغتين الفرنسية والإنجليزية. وكانت تعرف الإنجليزية فقد تعلمتها في المدرسة، فلم يسعها الا أن تتدرب على كتابتها على آلتها، وسهل عليها بعد ذلك أن تستطيع «نسخ» الفرنسية أيضا، فإن الحروف واحدة وإن كان جهلها بهذه اللغة قد جعلها أبطأ. غير أن السرعة يمكن أن تجيء مع الوقت.

واستغنت على الأيام عن المقام في بيت صديقتها، وإن كانت صلتها بها قد بقيت وثيقة فإن فضلها عليها كبير، وجميل صنعها معها ليس مما يجحد ولا مما ينسى، حتى لو نزعت نفسها إلى الكفران. وأفلس المكتب فانتقلت إلى سواه بعد عناء، على الرغم من أنها أصبحت معروفة في هذا المحيط.. محيط الكاتبات الناسخات. وكانت حليها قد ذهب جميعا في نفقات الحياة وأجور التعليم وسد النقص.

وها هي نى الآن قد التحقت بمكتب جديد، بعد أن ظلت عاطلة شهرين أكلت البطالة في خلالها القليل الذى كان مدخرا.

ونهضت عن الكرسى وهى تتنهد، وتناولت حقيبته لتخرج إلى عملها. وكانت الساعة السابعة.. فأمامها ساعة كاملة للمشى إلى المكتب، وقد عرفت بالتجربة أن الساعة فوق الكفاية، ولكن فسحة الوقت خير من ضيقه. ومضت إلى بابها لتفتحه وتخرج، وإذا بقرع خفيف عليه.. فقالت: «تفضل»، فدخل رجل بدين وسلم وقال: «أراك خارجة» فقالت: «نعم» وهمت أن تقول أنها مضطرة إلى التبكير، ولكنها كبحت نفسها فما يعنيه هذا، فقال: «أجرة الغرفة عن ثلاثة أسابيع.. ألا يمكن أن تعطينى منها شيئا على الحساب»؟

فقالت: «أسفة.. وإنى لشاكرة لك هذا الصبر كله.. والعطف أيضا.. وبعد يومين.. أقبض أجرة الأسبوع فأعطيك شيئا».

قال: «إنك تحرجينى مع زوجتى.. هذا الصبر الطويل ليس له عندها إلا معنى واحد. وقد أذرتنى اليوم.. وعبثا أحاول أن أفهمها الحقيقة.. لا تريد أن تفهم.. كل ما

تعرفه أن الأجرة تأخرت ثلاثة أسابيع. وكل ما تريده هو أن تؤدى إليها هذه الأجرة أو تخرجى اليوم».

قالت: «ألا يمكن أن تمهلونى يومين اثنين.. أين أذهب إذا خرجت اليوم.. ليس لى مكان آخر». فhez الرجل كتفيه الغليظتين، ولم يقل شيئاً. فدننت منه ليلى، وقالت: «أرجو أن تمهلنى.. كن شفيعى عندها». فقال: «لو كان الأمر إلى لما تقاضيتك شيئاً قط.. ولكنك تعرفين زوجتى.. ولست أعرف لى حيلة».

قالت: «ولكن كيف أستطيع أن أعطيك اليوم شيئاً؟ لا أعرف أحداً أقترض منه. ولا يمكن أخذ شىء من المكتب إنى جديدة فيه». فقال: «اسمعى، لو لم تكونى بلهاء لأمكن تذليل كل هذه المصاعب، ولكن لم أر فتاة مثلك».

فقالت: «ماذا تعنى؟ كيف يمكن تذليل الصعاب؟» فأراح كفيه الغليظتين على كتفها، وقال: «أنا أستطيع أن أدبر الأمر إذا طاوعتنى». فهزت رأسها غير فاهمة، فقال: «تعالى».

وطوقها بذراعيه، وأدنى شفثيه الممطوطتين من فمها.. فحاولت أن تنأى عنه، ولكنه جذبها إليه بقوة، فحولت وجهها عنه، فذهبت تعبتان فى نحرها وكتفها، وكانت يده اليسرى تتحسس صدرها وتقف وتتكور على ثديها الراسخ، فكاد عقلها يطير وتفلتت من عناقه بعنف، وارتدت راجعة إلى آخر الغرفة، وهى تلهث وتنهج، كأنما كانت تجرى وصدرها يعلو يهبط كالموج من جهد المقاومة ومن الغضب أيضاً، وكان هو ينظر إليها نظر النقرة والغليظ فصاحت به وهى ترتجف: «إذا لم تخرج من هنا فسأصرخ».

فزام وهز رأسه، وقال وهو يدور ليخرج: «طيب.. سنرى.. أما أن تدفعى اليوم، وإلا فإخرجى أنت».

فلم تقل شيئاً.. وماذا عسى أن تقول؟

- بونجور.

- بونجور ... خذى هذا العنوان واذهبى إليه حالا ... عمل مستعجل ... الـرمنجتون نهب بها أحمد ... العمل يستغرق يومين ... ثلاثة ... المهم الاتقان ... يجب أن يكون راضياً.. فاهمة؟

فذهبت ولم تسأله أهو عربى أم أفرنجى.. وماذا يهيم.. كله عمل.. ألى. ودخلت الشقة فإذا هى بيت لا مكتب، وقالت للخادم النبوى: «إنى من محل...». فاكتمى بأن يشير إلى غرفة المكتب، فجلست على كرسى من الجلد كبير وثير.. وأدارت عينها فى الغرفة، فلم تر فيها أثاثا غير كرسى آخر كالذى جلست عليه. وحول الجدران رفوف كثيرة عليها كتب لا تحصى، وفى الركن مكتب أنيق، وفى وسط الغرفة منضدة صغيرة مما يستعمل للشاى وضعت عليها «الرمنجتون» فتوقعت أن ترى رجلا على السن، وأدهشها أن يدخل عليها شاب يناهز الثلاثين، وأن تعلم أن هذا هو الذى جاءت لتعمل له ولتنسخ ما يشاء.

وقال برقة لا تكلف بها: «قهوة»؟

قالت: «أشكرك.. فيما بعد.. بماذا تأمر؟...».

فقال — وهو يناولها ملفا ضخما: «فى كم يوم يمكن الفراغ من نسخ هذا كله؟ فقلبت الأوراق ونظرت فى الخط والسطور، ثم رفعت رأسها إليه وقالت: «صعب أن أقول كم يستغرق.. ولكن.. بعد ورقة أو اثنتين أستطيع أحكم حكما قريبا من الصحة».

فهز رأسه وهو يبتسم وتحول عنها، ثم خطر له خاطر، فدار على عقبه بسرعة وسألها: «يهودية»؟

فابتسمت وقالت وهى تهز كتفها: «لأنى شقراء»؟

فقال: «إذن أنت...».

فأراحته من عناء التخمين، وقالت: «مسلمة».

فقال وهو يهز رأسه بعنف: «أنا أيضا مسلم».

فلم تقل شيئا واجتزأت بالابتسام وشرعت ترفع غطاء الـرمنجتون، وتركها هو وذهب فجلس على الكرسى الآخر، ثم رآها تتلفت فى الغرفة، فنهض وهز رأسه مستفسرا، فنهضت هى أيضا وقالت: «لا تتعب نفسك.. أظن أن فى وسعى أن أجد كرسيا من الخيزران فى...».

فقال وهو يعدو إلى الباب: «بالطبع.. أما أنى لمغفل...».

وعاد بالكرسى وهو يقول ضاحكا: «لكأنما كنت أظن أنك ستجلسين القرفصاء وتكتبين على حجر.. لم تشهدى ذلك العهد بالطبع.. لا يمكن فإنك ما زلت صغيرة.. أوه جدا.. ولكن أين تعلمت الكتابة على هذه الآلة؟.. معذرة إذا كنت أتطفل، ولكن المصرىات يندرن.. جدا أن تعنى واحدة منهن بذاك».

قالت: «أضطرت أن أتعلم.. صنعة في اليد أمان من الفقر...». وابتسمت، فقال: «أهو ذاك؟ معذرة، كان سؤالاً فضولاً منى لا يغتفر... سامحيني».

فسرها منه هذا الأدب، وقالت: «ليس هذا سرا.. ألسنت أعمل؟ لست هاوية بالطبع».

فقال: «إذا كنت تعملين في مكتب.. فإنك ولا شك تعرفين لغة أجنبية أو اثنتين.. ف... ف...».

قالت: «أعرف الانجليزية.. وأصبحت أعرف من الفرنسية ما يكفى للنسخ.. وأتكلما أيضاً، فإننا جميعاً نتكلما هناك».

فقال: «أوه لست أريد أن أفتح لك محضر تحقيق.. معذرة مرة أخرى». ورفع يده إلى جبينه العريض ومسحه، وقال: «هذه أول مرة أرى فيها مسلمة تشتغل بالنسخ — وضك — أرانا نتقدم.. أليس كذلك؟»

وكانت قد شرعت تدق على الآلة الكاتبة، فاكتفت بالابتسام..

وتركها هو بعد ذلك وخرج بعد أن قال لها أن في وسعها أن تطلب ما تشاء من الخادم.. أى شىء.. قهوة.. شاي.. أكل.. كل ما في البيت تحت أمرها..

ولكنها لم تطلب من الخادم شيئاً، ولم تقلق راحته بل أقبلت على الآلة تدق وتدق بسرعة ثمانين كلمة في الدقيقة، وتخرج له من كل ورقة نسختين. واستغرقها العمل، ووجدت فيه متعة لا عهد لها بها في مثله.. فقد كانت هذه رواية تنقلها — استعداداً لطبعها ولا شك — وكانت الصور التي يرسمها المؤلف — هذا الشاب الوسيم المؤدب — تتجسد لها، والمواقف تتمثل وهي تدق وتدق بسرعة ثمانين كلمة في الدقيقة. وكانت نفسها تجيش بمثل العواطف الموصوفة والإحساسات المصورة، فتضح تارة، وتخفقها العبرة تارة أخرى، وتعبس حيناً.. وترى نفسها تنطق بالألفاظ التي تدقها بقوة وعنف كأنها تمثل ما تقرأ أو كأنما كان الأمر حقيقة لا خيالاً. وكانت بعد ورقة تلقى في السلة على المكتب، وهي زاهلة عن كل شىء. فما قامت مرة، ولا تمطت لتريح أعضائها المكدودة وتحرك أصابعها التي كادت تتشنج وتتصلب أو تتخشب، ولا شعرت بظماً أو جوع، ولا كان لها بال إلا إلى هذه الرواية التي تقرأها وهي تنسخها. ولقد كانت مشغولة أيام المدرسة بالروايات والقصص، ولكنها منذ ثلاث سنوات لم تقرأ رواية، وإن كانت قد ذهبت مراراً إلى السينما — وهي مطمئنة — فإن أباهما من ألد أعداء السينما. ومع ذلك كانت تتحرز وتلقى على وجهها نقاباً خفيفاً شفافاً، حتى حين تمشى في الطريق كانت تتنقب زاعمة أن هذا وقاية من الشمس والتراب.

ولم تشعر بعيد الحميد — فقد كان هذا اسمه — حين دخل عليها، ووقف ينظر إليها أكثر من دقيقتين. فلما رآها لا تنظر إليه ولا ترفع عينها إليه عن الورق ولا تتمهل أو تتباطأ في العمل، قال: «معذرة.. إن هذا انتحار».

فرفعت رأسها حينئذ، وقالت: «أوه.. لم أرك لما جئت.. كلا.. إني على العكس مسرورة.. وأعترف لك بأن هذه أول مرة سرنى فيها عملي ... رواية مدهشة».

فقال وهو ينحى كفيها عن الرمنجتون: «قد تكون الرواية مدهشة.. ولكن أبعث على الدهشة أن لا يحتاج الإنسان إلى راحة.. تفضل وقومي، أريحى جسمك قليلا على هذا الكرسي» وتناول ذراعها لينهضها، فقالت وهى تقوم: «صدقت.. أستريح دقيقة».

فقال وهو يمضى بها إلى الكرسي: «تستريحين تماما».

فقالت، وهى تجلس على الكرسي: «ولكنى أريد أن أعرف بقية الرواية».

فقال: «اضطجعى أولا.. أنا أقص عليك البقية.. ألخصها لك فى ألفاظ قليلة».

قالت: «كلا، هذا يفسدها ... إني أريد أن أقرأها».

قال: «إذن أقرأها لك».

قالت: «تتعب.. دعنى أقرأها أنا وأنا أستريح».

قال: «بعد الغداء.. الوقت طويل».

فقالت: «الغذاء..؟ كلا.. اسمح لى أن أخرج وأعود فى الساعة الثالثة كالعادة».

قال: «ولم لا تبقين وتتغدين هنا..؟ قولى إنك باقية».

قالت: «لا أستطيع.. سأعود بالطبع بعد الظهر».

وكانت تعلم أنها مفلسة، وأنها لا تستطيع أن تذهب إلى بيتها — حيث ذلك الرجل الخشن الفظيع — وهبه ليس فيه، فما تصنع هناك؟ وإذا لم تذهب إلى البيت فأين يمكن أن تذهب؟ هذا شاب يعرض عليها أن يطعمها وأن يريحها من الأتياب التى تمزق أحشاءها ويعفيها من الشعور الثقيل بالقرص والعض فى جوفها، فلم لا تطيع وتقع وتأكل؟ وأحست وهى تدبر هذا فى نفسها بالدموع تترقرق فى مآقيها أمامه.. فقرضت أسنانها وشدت أعصابها ونهضت متحاملة على نفسها. فقال: «إلى أين؟.. لا يمكن أن تخرجى.. عيب.. لا يليق».

فقالت بضعف، فما بقيت فى بدنها ذرة من القوة بعد أن أنفقت البقية فى المكابرة:

«أرجو..» ولم تزد، فقد هوت كالجثة أو كأنها ثوب فارغ.

ولم يكن هذا مما يجرى لصاحبنا فى حساب، فلم ينتبه إلى ما حدث إلا بعد أن ارتمت على الأرض.. بعضها على الكرسي، وسائرهما على السجادة. فانحنى عليها وحملها

وأراحها على الكرسي، وخرج يعدو ويصيح: «محمد. محمد. تعال حالا..» ولم ينتظره بل ذهب إلى غرفة النوم، وجاء منها بزجاجة من الكولونيا رش منها على وجهها الأصفر، وأقبل على راحتها يدلكهما وخلع حذاءها وجوربيها، وراح يدلك قدميها أيضا بالكولونيا ومحمد واقف ينظر وينتظر الأوامر التي لا تصدر ولا يصنع شيئا.

بعد لأي ما، بدأ الدم يعود إلى وجهها الممتقع.. فتنفس عبد الحميد الصعداء واطمأن. وفتحت ليلي عينيها وأجالتهما فيما حولها بفتور، ثم تنهدت ووسعها أن تتكلم. فقالت: «لم يحدث لي هذا أبدا».

فقال بشيء من العنف: «كان جميلا جدا أن يحدث لك هذا في الشارع.. هه..» فابتسمت، وقالت: «أشكرك، إنى أسفة .. هذه أول مرة..» فقال: «محمد. خذ هذه الزجاجة وضعها في مكانها.. والآن لا يسعنى — وقد خرج محمد — إلا أن أوجه إليك سؤالاً ثقيلاً .. بارداً في الحقيقة .. ولكنه واجب .. متى أكلت آخر مرة؟ احذرى أن تكذبي».

قالت: «لا داعى للكذب.. أمس، الظهر».

قال: «لقد ظننت ذلك..» قالت: «كيف عرفت؟».

قال: «أوه المسألة في غاية البساطة.. ليست المسألة فراسة، ولكنها مسألة ضم قرينة الى قرينة.. مررت بمكتب.. واستدرجت صاحبه إلى الكلام عنك، فقال إنك معروفة في مكاتب النسخ وإن كنت من الجديديات عنده.. هذا يومك الخامس في مكتبه، وأثنى عليك وطمأننى كأنما كنت أحتاج إلى ذلك، فلما أغمى عليك الآن أدركت أن هذا من التعب والجوع ... ألا ترين أنى أصلح للقيام بدور سنكلر أو شرلوك هلمز؟ فضحكت وقالت: «لماذا سألت عنى؟»

فقال: «قبل أن أجيبك، يجب أن تنتظري قليلا حتى أعود إليك».

وخرج وتركها، فراحت تفكر مسرورة في هذا الشاب. نعم هو شاب، وإن كان الأرجح أنه جاوز الثلاثين. وفي رفته ودعته، وفي مروءة نفسه وحسن أدبه، وفي براعته في فن الرواية، براعة جعلتها تعمل كما لم تعمل قط في حياتها، وفي وسامته، وفي هذا السحر الذى ينطلق من عينيه فينفذ إلى القلب، ثم تنهدت أسفة.. سحر أو لا سحر ... سيان، لا شك أنه يعجب بها، هذا واضح. ولكن ما قيمة هذا الإعجاب؟ وهبه أحبها فما أملها معه إلا أمل الخلية، وهيهات أن ترضى ذلك. ولو كانت ترضى ذلك، لما فاتها ما فاتها من الفرص، ولا كانت خسرت ما خسرت من الأعمال، فما كان أكثر أصحاب

الأعمال الذين طمعوا في هذا النوع من العلاقة، فلما خيبت أملهم ألقوا بها في الشارع، وحسبها زلة واحدة في حياتها أورتتها هذا الشقاء الطويل.

واختصرت زفرة طويلة، فقد دخل في هذه اللحظة محمد وأمامه سيده.. الخادم يحمل سلطانية متوسطة فيها مرق، والسيد يحمل فوطة، وقال السيد: «اشربى هذا حالا».

وطرح الفوطة على حجرها ففعلت كما أمر، وقال: «هذا يكفى الآن.. بعد طول الطوى، يحسن التخفيف حتى لا تتعب المعدة».

فقالت وهى تضحك: «لا تبالح، إنه يوم واحد ليس إلا».

قال: «هذه الشجاعة التى تظهرينها تسرنى وتعليك فى عينى، ولكنها تكلف على كل حال».

فقالت مستغربة: «تكلف ... أبدا».

قال: «إن الذى أعنيه هو أن الشجاعة لا تكون إلا تكلفا شىء يحمل الإنسان نفسه عليه، هذا ما أعنى».

فسألت: «ولكنى لست فاهمة».

قال: «نؤجل الدرس إلى وقت آخر. ونتحدث الآن عنك.. قولى ما اسمك». فقالت:

«فريدة». قال: «ينطقونها فى المكتب «فريدا».. ما علينا.. هل هذا اسمك الحقيقى؟»

قالت: «ولماذا تظن أنه ليس اسمى؟» قال: «ما رأيت من شجاعتك يحملنى على هذا الظن.. أنت بنت ناس».

قالت: «كل الناس أبناء ناس». فضحكت، فقال: «أعنى أنك تشعرين بكرامة

تحرصين عليها».

قالت: «هل أنا الوحيدة التى تفعل ذلك؟» قال: «أعترف أنى انهزمت ... عندى

كلام كثير ... حجج ... ولكنى أوتر الهزيمة ... فما قولك أن نكون صريحين؟»

فضحكت.. ولم يكن ضحكها مسرورا، بل عن شعور بالضعف وبالأضطراب الذى

أدركت أنه سيدفعها إلى الاعتراف بكل ما فى نفسها، فقال: «قولى لى اسمك الحقيقى.. سأحتفظ به».

فأقرت من حيث تريد المكابرة، وقالت: «ولكن ما الفرق بين اسم واسم..؟ كله

اسم».

قال: «ها.. لقد صح ظني، والآن اسمك الحقيقي. لقد وعدتك بكتمانه فهل تستطيعين أن تثقي بي؟» قالت: «نعم، ليلي» قال: «ليلي، ليلي ماذا». قالت: «ألا تعفيني؟ لست أشعر أنى أستطيع المقاومة إذا ألححت ارحم ضعفى».

فقال: «بالطبع ... معذرة ... لست أريد أن أستغل ضعفك ... كلا، اغفرى لى فضولى، فإنه ليس عن خسة بل عن».

وأمسك مترددا، فقالت وقد رأت تردده وأدركت بغريزتها الذكية دلالتة: «عن».

فقال: «عن حب ... لقد قلتها ... قولى عنى مغفل. ما شئت قوليه.. ولكنها الحقيقة، وقد استرحت الآن، رفعت عن صدرى حجرا.. تنفست.. عجب ولا شك.. هى دقائق رأيتك فيها.. ولكنى مع ذلك أحببتك كأنى عرفتك من قبل أن أخلق، كأنما كنا معا فى عالم آخر قبل هذا. ولست أقول هذا لأخدعك. وإنى لأعلم أن الرجل يستطيع أن يخدع المرأة بتمثيل دور العاشق، ولكنى لا أحاول خداعك ولا مطعم لى فيك، كل ما أعرفه أنى أحببتك، قد يكون هذا شعورا وقتيا يفتربعد قليل أو كثير، وأى حب لا يفتربعد على كل حال لا أعلم، أعرف فقط أنى أنا فوجئت بهذا الحب الذى غمر نفسى وشاع فيها علوا وسفلا ... انظرى إليه كيف شئت ... باستخفاف إذا أردت أو لم يسعك غير ذلك. ولكن صدقيني، فإنى أحتمل الاستخفاف، ولكنى لا أستطيع أن أحتمل التكبذب. كلا!!»

فقالت ببساطة: «إنى أصدقك» فصاح بها: «إيه؟» قالت: «ألم تسمع؟ هات أذنك وأنا أصيح لك فيها ... صدقتك ... هل سمعت الآن؟ لالالا ... صدقتك معناها صدقتك فقط...».

وعرف اسمها الكامل اسم أبيها أيضا، فقال وهو يمسح جبينه: «انظرى ... أليس والدك هو الذى كان ضابطا فى الجيش؟»

قالت: «هو بعينه» قال: «وكان يسكن فى شارع ...».

قالت: «هذا هو البيت الذى ولدت فيه».

قال: «غريب.. لقد كان أبى رحمه الله صديقا جدا لأبيك. ولدهما يلتقيان الآن.. غريب. ماذا حملك على ترك أبيك؟ أسمع أنه كان عنيفا». قالت: «لأنى خفت عنفه ... اسمع ... سأقص عليك حكايتي كلها ... لم يبق بد من هذا. وأحبيبنى بعد ذلك إذا استطعت، ربما كان هذا لازما لتشفى».

وقصت عليه الحكاية ولم تكتم شيئا ولم تحاول أن تهون من زلتها. وكان يصغى وهو مطرق، فلما فرغت قالت: «والآن يمكنك أن تبلغنى أنك دفنت حبك المباغت لهذه الفتاة الطائشة».

قال: «لقد كنت ضحية ... ولست أدفن حبي لك، ولكنى أنوى أن أعلنه، فهل تسمحين لي بأن أطمع أن تحبينى يوما من الأيام»؟
فأطرقت تفكر، فقد أساءت فهم ما قصد إليه وتوهمت أنه يريد لها كما أراد غيره، خلية ... وشعر هو من إطراقها أن معنى كلامه ليس واضحا وشجعه ترددها الظاهر فقال: «إنى لا أرى أنى أستطيع أن أعيش بعد اليوم بدونك، فهل تقبلينى زوجا على أن تكون الطاعة منى والحب ... ولا يكون منك إلا ما يسمح بالأمل فى أن تحبينى يوما ما»؟

فصاحت: «ولكنى أحبك من الآن!».
وندعهما ... فما بقى لنا مقام معهما.

الفصل التاسع عشر

حواء والحية

رفعت «جلیلة» رأسها قليلا عن الرمل، ونظرت إلى صدرها الذى يعلو ويهبط، وجلدها الذى دبغته الشمس ثم مدت بصرها إلى ساقیها وإلى أصابعها التى عنيت بصبغ أظافرها، وابتسمت ابتسامة الرضى والاعتباط، ثم ردت رأسها وظلت راقدة وتركت الشمس تفعل فعلها فى جسمها العارى من الصدر إلى الردفین ومن الساقین إلى الأخصصین وكانت هذه عادتها منذ جاءت إلى الاسكندرية.. تخرج كل صباح من الفندق فى ثياب الاستحمام، فتلقى بنفسها فى الماء فى هذه الناحية المنعزلة وتسبح ما شاءت قريبا من الساحل، ثم تخرج إلى الرمل وترخى ما على صدرها من ثوب البحر وتعريه للشمس، لتفید ما قيل لها أن أشعة الشمس تفیده من الصحة والعافية. ولم تكن تلقى أحدا فى هذا المكان أو تخشى أن يتطفل عليه فيه مخلوق، لبعده وضيقه واحتجابه وكثرة ما يحيط به من الصخور.

ولحت زورقا شراعيا يشق الماء من بعيد فنهضت واتكأت على كوعها، وراحت تنظر إليه تارة وإلى أظافر قدميها المصبوغة تارة أخرى ثم أرهفت أذنيها، فقد خيل إليها أنها سمعت صوتا يشبه صوت تكسر العود داسته قدم.. فنسيت أظافرها وانطرحت على بطنها وعينها إلى الناحية التى تتأدى إليها منها الصوت، فما لبثت أن سمعت وقع أقدام — أو قدمين على الأصح — فما أسرع ما جلست على ركبتيها، ورفعت الثوب فغطت صدرها. وكانت أصابعها لا تزال تعمل فيه لتربطه، حين وقف أمامها رجل وسيم معتدل القامة حسن البزة عارى الرأس، فحدقت فى وجهه.. فقد وقف مفتوح الفم وكأنما بهره جمالها ثم قال: «أرجو المعذرة».

فلم تقل جلیلة شيئا وظلت قائمة على ركبتيها تنظر إليه، فضحك فجأة وبلا مناسبة ظاهرة، ثم كف فجأة وقال: «أرجو المعذرة.. لكأنك حواء تصلى فى الجنة».

فقال بلهجة امتزج فيها الغضب بالسرور المكبوح: «ماذا تعنى بحواء والجنة»؟
قال: «من الاتفاق الغريب أن اسمى آدم، وقد كنت وأنا ماش أتوقع — أخشى في الحقيقة — أن ألقى حية ... ولكنى على التحقيق لم أكن أتوقع أن ألتقى بحواء».
وضحك مرة أخرى، فقالت بحدة: «ليس اسمى حواء». فقال بابتسام: «هل لى إذن أن أسأل ما اسمك»؟

قالت: «كلا.. لن أخبرك» قال: «إذن سأسميك حواء فإنه أليق ما يكون.. وليت من يدرى هل كان لحواء بحر كهذا في الفردوس»؟
ونظر إلى البحر، ولكنها ردت بقولها: «سمنى ما شئت فأنى راجعة إلى الفندق».
وهمت بالنهوض، فقال: «سأرافك إليه فأنى نازل فيه إذا كان هو هذا» وأشار الى ناحيته.

ولكنها لم تذهب، بل وقفت وقالت، وقد جنحت إلى العناد: «بل سأبقى هنا». فوافق الرجل بسرور وقال: «حسن جدا.. سأبقى أنا أيضا.. لأسليك وأونسك في وحدتك».
فهزت جليلة كتفها هزه خفيفه، وعادت إلى الرمل فجلست عليه، فجلس مثلها بثيابه الأنيقة وراح يجيل عينه في مفاتنها ... وكانت هى أيضا تتأمل كتفيه العريضتين ووجهه القسيم وشعره وساقيه المفتولين، ولا يبدو عليها أنها غير راضية عن وجوده وتطفله عليها في هذا المكان الذى كانت تظنه نائيا عن الخلق.

وسألها: «ماذا تصنعين هنا»؟ فقالت باختصار: «كنت أتمشى».
ولكنها رمت إليه ابتسامة ساحرة، فقال: «ولكنك كنت راقدة على الرمل، فهل هذه طريقة جديدة للمشى»؟ قالت: «كنت أستحم». قال: «تستحمين؟ ولكن بينك وبين البحر أكثر من مائة متر».

فقالت بغضب: «ألا أستطيع أن أخذ حمام شمس إذا أردت»؟
فقال: «أوه.. صحيح».

وهز رأسه ثم رفع طرفه إلى السماء وقال: «حواء تأخذ حمام شمس، فيفاجئها آدم الذى كان يبحث عن الحية ... أليس كذلك؟ ويفسد عليها حمامها ... معذرة مرة أخرى».

فتركت الاعتذار وسألته بلهفة: «آدم.. قل لى.. هل تظن أن هنا حيات»؟ فقال: «لا أظن.. وماذا تصنع حتى الحية هنا؟.. تأخذ حمام شمس هى أيضا»؟
فضحكت وقالت: «ألم تأخذ قط حمام شمس»؟

فكاد يفهق. وقطب هنيهة وهو يحاول أن يهتدى إلى المعنى الذى أرادته ثم قال بابتسام: «كلا.. لم أفعل ذلك قط ... جربت كل نوع من الحمامات إلا هذا، والله فكرة». فصاحت به: «لم أكن أعنى هذا» وابتسمت على الرغم منها، ثم أردفت: «أنما أردت مجرد الاستفهام».

فقال: «لقد كنت الآن فى حمامك فقطعته عليك، أفلا يمكن أن تستأنفيه من حيث انقطع»؟

فقالت: «ولكن هذا لا يمكن ... أعنى لا يليق يا آدم. ربما كان هذا مألوفا فى الجنة. ولعلنا لو كنا فى عصر قبل عصرنا هذا ببضعة قرون ... ولكن فى هذه الأيام التى ليس فيها جنات ... كلا يا آدم». فسألها: «ولكن لماذا تحرمين نفسك ما تحبين»؟ قالت: «قد يرانى أحد». قال: «لا أحد هنا يراك». قالت بابتسام: «ألم تفاجئنى أنت فى الحمام»؟ فلم يستطع أن يرد عليها وينقض حجتها وأطرق شيئا، ثم تناول شعره وشده وصاح: «وجدتها ... استأنفى حمامك ... وأقعد أنا وراء هذه الصخرة ... أحرسك ... وأنهبك — عند الحاجة — إذا طرأ طارئ».

ولم ينتظر أن توافق بل نهض ووثب فوق الصخرة واختفى عنها. وصاح بها من ورائها: «ما قولك»؟ قالت: «حسن. وإذا رأيت أو سمعت أحدا مقبلا فنبهنى واسمع حاذر أن تنظر».

قال: «مستحيل» بلهجة من يعتقد أن هذا غير معقول ثم أردف: «لقد رأيت بما فيه الكفاية».

واستلقت مطمئنة وراحت تفكر فى آدم القديم وآدم الحديث، وتسأل: «أتراه سينظر من بين الصخور»؟ وتهز كتفيها وتنظر إلى ثدييها وتحدث نفسها أن لا بأس ... ولا خوف ... ثم إنه ظريف، فلينظر ... ألم ير ما فيه الكفاية كما قال؟

وكان آدم — على الجانب الآخر من الصخور — قد خلع الجاكته واتخذ منها وسادة لرأسه واستلقى على الرمل وذهب يفكر فى هذا الجمال البارع الذى كتب له فى يومه أن يراه، ويسأل نفسه: «أتراها تريد منه أن يبقى حيث هو.. أم هى ياترى تنتظر منه أن يكون جريئا وأن يحوط إلى طباع أجداده.. ماذا كان جده الأعلى خليقا أن يصنع فى مثل هذه الحالة؟ أكان يطيع المرأة التى لعلها تعنى خلاف ما تقول أم كان يطيع غرائزه ورغباته»؟

وأنه ليفكر فى هذا وما إليه، وإذا بصرخة عالية.. فوثب إلى قدميه ونط فوق الصخرة وانحط عند جليته وسألها: «ماذا جرى»؟

ولم يحتج منها إلى جواب فقد كان حسبه ذلك الفزع الذي ارتسم على وجهها، فدار بعينه ينظر فما كان يسعها أن تقول شيئاً من فرط الجزع، فأبصر أفعى على نحو مترين منها.. فانقض عليها وتناولها من ذيلها وطوح بها فرماها بعيداً، ثم تناول يد الفتاة فأنهضها وهي لا تزال نصف عارية، ولكنها صاحت به: «لا تلمسنى ... أوه لقد لمست يدي ... ماذا أصنع الآن»؟

وانتزعت يدها منه، ولكنها أبقتها بعيدة عنها كأنها ملوثة، فقال: «ماذا جرى؟ هل يدك»؟

وهبط قلبه في صدره، وابترد الدم في عروقه وجمد، وجعل ينظر إليها وهو مفتوح الفم من الخوف الذي ساوره، فقالت: «لا تلمسنى.. أقول لك لا تلمسنى.. أنى أمقت الأفاعى».

فأدرك مرادها، واطمأن قلبه وتشهد، وهز رأسه مرتاحاً، ووسعه أن يبتسم وقال: «آه ... هذا ... لا بأس ... سأذهب وألبس جاكيتى وأعود إليك». فصرخت: «كلا. لا تتركنى وحدي» قال: «إذن تعال معي.. نلبس جماعة».

وهم أن يتناول يدها ليعينها على الصعود فوق الصخرة، ولكنها تراجعت عنه فقال: «لا بأس ... أرانى صرت مثل المنبوذين الهنود الذين لا يلمسهم أحد».

فرقت له ولكنها قالت وهي تخطو إلى جانبه: «أظنك وضعت هذا الثعبان بيدك إلى جانبي عامدا». فقال: «كيف يمكن؟ لقد كنت راقداً في الناحية الأخرى».

فقالت: «وأظنك كنت ستنام» فقال معترفاً: «أى والله كاد النعاس يغلبني».

قالت: «هذا ألعن». قال: «ولكنك أمرتني أن أبقى هناك ولا أجيء».

قالت: «وتتركنى مع الثعبان»؟ قال: «لا تكونى متعنتة». قالت: «لن أجيء إلى هنا بعد اليوم».

فقال بضحك: «انتهى فصل الحمامات الشمسية» قالت: «بل انتهى شهر العسل». فالتفت إليها وصاح بها: «إيه؟ شهر الـ الـ الـ».

قالت: «نعم شهر العسل.. ألا تعرف ما هو.. أنا وزوجى هنا فى الفندق وسنعود إلى القاهرة غدا ... وسمع، إن زوجى غيور جداً. أسرع ما يكون إنسان إلى إساءة الظن.. فاحذر.. ابق حكاية حواء والحية بينى وبينك».

قال: «تعنين بينى وبين نفسى» قالت بابتسام: «لا.. سنلتقى يوماً..». قال: «متى؟».

طمئنيتى» قالت: «متى أيقنت أن يدك لم يبق بها أثر من الحية».

مناجاة، فمضى يغنى: «طول الليالي وناطيفك على بالى، يالى غرامك ملك قلبى وشغل بالى، يا خوفى من طول بعاك والى خبالى».

فأسرع الطبيب يقول مقاطعا: «تمام ... لم تكن بك فى الحقيقة حاجة إلى إتعاب نفسك بهذا الغناء البديع. الآن اسمع: إن حالتك عصبية وأنت على ما يظهر شديد الحياء». فلم يرق عبده هذا التشخيص، وحاول أن يعترض، فحالت الحبسة دون ذلك ... فتذكر أن الغناء أسعفه كما لم يسعفه شيء فيما يذكر، فصاح يقول: «لا، لا، لا، ليس بى حياء بل أنا قليل الحياء».

وقاطعه الطبيب بدوره إشفاقا على نفسه وعلى سُمعة عيادته، وعجل بأن يقول: «طبعاً.. طبعاً.. والآن اسمع ولا تضيع وقتى. يجب أن تفهم أن علاجك الوحيد أن تجترئ على الناس بالكلام.. تعرفهم أو لا تعرفهم، سيان. والأفضل أن يكونوا ممن لا تعرف. ابدأ بالكلام كل من تلقاه إذا استطعت، بأى كلام ... وحبذا لو كلمت النساء فإذا فعلت هذا كل يوم، فأنت لا شك تشفى بعد حين».

فنفخ عبده صدره استعدادا للاستفسار بالغناء، فريح الطبيب منه وسد أذنيه وخاف أن تطير لعيادته سمعة سيئة، وصاح به: «لالالا.. ابق صوتك الحلو لمن تقابل لا تسرف يا صاحبي» وأسرع فأدراه إلى الباب وأحكم إيصاده وراءه وتشهد.

وكانت عيادة الدكتور — ولعلها ما زالت — فى العباسية فلما خرج عبده اتجه إلى آخر محطة الترام الأبيض إلى مصر الجديدة حيث بيت خاله، وكان وهو يمشى شارداً ذهن موزع النفس، يفكر فيما أشار به الطبيب من ابتداء الناس بالكلام وإن كان لا يعرفهم. وكيف بالله يبدأ غريباً لا يعرفه بمثل هذه الأصوات: «ممنم ففففضلك السسسساعة ككككككام». إن هذا مستحيل. وهذا الطبيب لا شك مجنون إنه طبيب مجاني لا طبيب ... ماذا؟ أى طبيب هو؟ لقد أرشده إخوانه إليه أنه أخصائى فى هذه الحالات، غير أنهم لم يقولوا أى حالات فهل تراهم حسبوه؟ ولكن هذا غير معقول وكان قد بلغ المحطة وراح يتمشى ريثما يجيء الترام، وكانت الشمس قد مالت إلى المغرب، ولم تكن المصابيح التى رفعتها شركة النور سبعة أمتار فوق الرءوس إلا كالنجوم التى لا تنير، وأنما تريك كيف تكون العتمة، وكيف تغيب معارف الأرض، وكيف تستطيع أن تظن الرجل شجرة ومصباح النور فتاة هيفاء، والظل على الأرض ماء يحسن أن تتقى بله وتلويثه للحذاء الجميل. وإنه كذلك، وإذا به يرى رجلاً عجيب الثياب مقبلاً يتمشى مثله، فوقف مكانه مبهوراً. وكان الرجل لابسا جلباباً قد يصلح أن يكون كلة

من حين إلى آخر، لينظر من النافذة مخافة أن يكون ذلك المجنون قد لحق به. وكان الترام قد قطع شوطا كبيرا، فهدأت نفسه شيئا فشيئا وأبصر السيدة.. وكان الترام لم يقف بعد أن ركبه فلا شك أنها كانت من أول الأمر هنا معه. وتذكر أنه دخل كالمدفع وانحط على المقعد كالحجر وأنه لا شك قد بدر منه ما يريب، فأراد أن يفسر ما لعلها استغربته من سلوكه ... غير أن دخول الكمسارى قطع عليه عزمه، وكان الكمسارى ثرثارا فجعل يقول وهو يتناول القرش ويقدم التذكرة: «مجنون هرب من المستشفى.. وجدوه في محطة العباسية. في آخر محطة وقفنا فيها، لكنه اختفى بسرعة غريبة. من يعرف يمكن يكون ركب الترام. لكن هذا مستحيل ... ومع ذلك أين اختفى؟ ليس في المحطة مكان يختبئ فيه.. لابد أن يكون ركب الترام».

وكان عبده حين سمع ذلك قد ذعر وفتح فمه كالأبله.. وكانت السيدة تنظر إليه وتسمع حديث الكمسارى ثم تنظر إلى عبده، وترى آيات الفزع في وجهه. وخرج الكمسارى إلى حيث الركاب الآخرون وأحس عبده أن عليه أن يقول شيئا، ولو على سبيل التفكهة والتسلية وليخفف عن هذه السيدة التي لا شك أنها ريعت من حديث الكمسارى، ولا سيما أنه — أى عبده — الوحيد الذى يعرف أين اختبأ المجنون — وهذا العلم وحده يغرى بالكلام. ولكن لسانه خانه على عادته فقال — على حين لم تكن تنتظر كلاما: «أأأأأنا ششفففته».

وأمسك، فما في مثل هذا فائدة، وتذكر أن الطبيب قال له: «غن».
فرفع صوته يقول مغنيا: «المجنون يا ستى الذى سمعت عنه مختبئ في الكشك هناك».

ولم تتح له فرصة لإتمام ما بدا.. فقد وقفت السيدة وانطلقت تصرخ بأعلى صوتها وتصيح: «أدركونى.. أدركونى.. الحقوا..».

وكان الترام قد بلغ محطة وقف عندها، فلم يسع عبده الا أن ينزل مسرعا ... فما بقى له مقام في هذا الترام وإلا قبضوا عليه على أنه المجنون الهارب، وانطلق يعدو. وأخيرا بلغ البيت وقابل — أول من قابل — بنت خاله، فأدهشه وأدهشها أن الحبسة زالت عنه.